419





S.H.

عبد الحميد جوده السحار

كتابنا القادم



السلطان سليم خان الأول

ياووز YAVUZ

السلطان القاطع

أوقاي ترياقي أوغلو

رواية





ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

مطبوعات مكتبة مصر

أهل بيت النبي ﷺ

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

١

انتشت نفوس المسلمين ، وأحسوا غبطة تشيع فى الصدور ، فقد انتصروا نصرًا مبينًا فى أول معركة خاضوا غمارها ، وأذلوا المشركين .

ورأى رسول الله أن يبعث إلى المدينة نبأ انتصار المسلمين فى بدر ، فقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، فامتطى زيد العضباء ناقة رسول الله ، وامتطى عبد الله راحلته ، وأغذًا السير حتى إذا بلغا العتيق انطلق ابن رواحة إلى أهل العالية ، وانطلق زيد إلى أهل السافلة يبشران بما فتح الله على رسوله والمسلمين :

أشرف عبد الله على القوم فجعل ينادى على راحلته :

ــ يا معشر الأنصار ، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم .

وصاح صائح :

ــ أحقًا يابن رواحة ؟

ــ إى والله ... وغدًا يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارًا دارًا .

وقدم زيد على ناقة رسول الله ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته :

ــ قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البحترى بن هشام ، وأمية بن خلف ، وابنا الحجاج ، وأُسرَ سهيل ابن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير .

وبانت الدهشة فى الوجوه ، فهؤلاء سادات قريش وصناديدها ، وبدا كأن الناس لا يصدقون ما يسمعون ، فجعل بعضهم يقول :

ــ ما جاء زيد بن حارثة إلا فلا .

وغاظ المسلمين ذلك ، وقال رجل من المنافقين لأسامة وقد قابله وهو عائد من

دفن رقية بنت الرسول :

— قُتِلَ صاحبكم ومن معه .

فأسرع أسامة إلى المصلى وهو فى قلق شديد ، وقال آخر لأحد المسلمين :

— قد تفرق أصحابكم تفرقًا لا يجتمعون فيه أبدًا ، وقد قتل عليه أصحابه ، قُتِلَ محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب .

ودخل أسامة المصلى وهو يضطرب ، فرأى أباه وقد غشيه الناس وهو يقول :

— قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة .

فجذب أسامة أباه حتى إذا ما اختلى به قال فى اضطراب :

— أحقًا ما تقول ؟

فقال زيد فى توكيد :

— إى والله حقًا ما أقول يا بنى .

فقويت نفس أسامة ، ورجع إلى ذلك المنافق فقال له :

— أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ، لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك .

— إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه .

* * *

وأقبل رسول الله قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى ، ونزل على كثيب بين مضيق الصفراء والنازية ، فقسم النفل الذى أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء ، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين .

فقال لهم رجل من أهل بدر :

— وما الذى تهنئوننا به ؟ والله إن لقينا إلا عجائز صلعًا كالبدن المعقلة فنحرناها .

فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

ـــ يابن أخى أولئك الملأ .

وعاد البدريون إلى دورهم راضين ، وعاد علىٌّ مع النبى مغتبطًا ، فقد صال وجال فى بدر وجدّل صناديد المشركين ، وما دار بخلده أنه أوغر صدور الأمويين ؛ فما حصد رءوس رجالهم إلا سيفه ، فجرعهم الحزن المرير ، فيا للفتى الشاب ! ما اشتد ساعده حتى أذاق سادات الأمويين وأصهارهم المنون ، فبات بينه وبينهم ثارات ، وبذر فى صدورهم بذور الغل والأحقاد .

وعاد إلى المدينة هدوؤها ، وجعل خاطر يطوف برءوس صحابة الرسول ، إن فاطمة الزهراء أضحت فى الخامسة عشرة ، وإنه لشرف عظيم أن يصاهر صحابى النبى الكريم . وجال هذا الخاطر برأس الصديق ، فوطن العزم على مفاتحة النبى فى أمر هذه المصاهرة ، فدخل عليه يومًا يخطب فاطمة ، فأطرق النبى قليلا ثم قال فى رقة :

ـــ انتظر بها القضاء .

وجاء عمر يخطب الزهراء ، فقال له النبى فى رقة :

ـــ انتظر بها القضاء .

وجاءت أسماء بنت عميس لعلىٍّ وقالت له :

ـــ هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله ؟.

فأحس كأنما قُبض صدره ، فقد كان يتمنى أن يتزوج ابنة عمه ؛ وقال فى صوت فيه رعدة :

ـــ لا .

ـــ فقد خُطبت ، فما يمنعك أن تأتى رسول الله ﷺ فيزوجك ؟

فقال على فى انكسار :

ـــ وعندى شىء أتزوج به ؟

ـــ إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك .

وجعل على يفكر فى الأمر ، إنه يريد أن يتزوج فاطمة ، ولكنه يحس رهبة

ووجلا ، فما يجد فى نفسه الشجاعة ليفاتح النبى فى أمر ذلك الزواج ، فما يملك شيئًا يستحلها به .

وأخيرًا رأى أن يأتى رسول الله يخطب فاطمة ، فذهب إليه وهو يرتجف رهبة .
ودخل عليه فلما قعد بين يديه أُفحم ، فوالله ما استطاع أن يتكلم جلالة وهيبة .

وفطن النبى إلى اضطرابه فقال له :

ــ ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟.

فَهَمَّ أن يتكلم ، ولكنه لم يجد لسانه فسكت وأطرق .

فقال له النبى ﷺ :

ــ لعلك جئت تخطب فاطمة ؟

ــ نعم .

ــ هل لك من شىء ؟

ــ لا .

ــ فأين درعك الحطمية ؟

ــ هى عندى .

ــ فأعطنيها .

ودخل النبى على فاطمة ، فقال لها :

ــ أى بنية ، إن ابن عمك عليًا قد خطبك .. فماذا تقولين ؟

فأطرقت ثم قالت :

ــ كأنك يا أبت إنما ادخرتنى لفقير قريش .

ــ ما تكلمت فى هذا حتى أَذِنَ لى الله فيه من السماء .

ــ رضيت بما رضى الله ورسوله .

* * *

ومرت شهور ، وجاءت ليلة الزواج . فبعث بالدرع إلى سوق بدر فبيع بدراهم معدودة ، وَوُضِعَتْ الدراهم فى حجر النبى ، فقبض منها قبضة وقال :

— أى بلال ابتع لنا بها طيبًا .

وخطب علىٌّ خطبة ، وخطب النبى ﷺ خطبة ، وما تم العقد حتى دعا ﷺ بطبق بسر ، فوضع بين يديه ، ثم قال للحاضرين :

— انتهبوا .

وجهز رسول الله فاطمة فى خميل وقربة ووسادة أدم حشوها أذخر ، وذهبت فاطمة إلى بيت الزوجية فى رفقة أم أيمن ، فقعدت فى جانب البيت ، وعلىّ فى جانب آخر . وساد البيت هدوء وترقب . فقد كان الجميع ينتظرون وفود رسول الله وسمع طرق على الباب فهرعت أم أيمن تفتح للأب الكريم .

وجاء رسول الله ﷺ ورنا إلى فاطمة فى حنان ثم قال لها :

— ائتنى بماء .

فقامت تتعثر فى ثوبها من الحياء ، فأتته بقعب فيه ماء ، فأخذه رسول الله ﷺ وتلا قل هو الله أحد والمعوذتين ، ثم قال لفاطمة :

— تقدمى .

فتقدمت على استحياء ، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال :

— اللهم إنى أعوذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

ثم قال :

— ائتونى بماء .

فعلم على الذى يريد ، فقام وملأ القعب ، فأتاه به ، فأخذه وصنع بعلى ما صنع بفاطمة ، ودعا له بما دعا لها ، ثم قال فى ابتهال :

— اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما فى شملهما .

وسار النبى ﷺ ليخرج ، وتبعته أم أيمن . فالتفت إلى علىّ وهو على وصيد الباب وقال :

— ادخل بأهلك باسم الله والبركة .

٢

استيقظت أم الفضل امرأة العباس من نومها وهى تحس انقباضًا ، فقد رأت رؤيا أزعجتها. وفكرت فى أن تقص رؤياها على رسول الله، ولكن كيف تقص عليه أنها رأت عضوًا من أعضائه يُقطع ويُلقى به فى بيتها ؟ إن ما رأته يزعجها . فعزمت على ألا تقص خبره على النبى . وأخذت تغدو وتروح . وما تزال الرؤيا المفزعة ماثلة فى ذهنها تقلقها وتحيرها . حاولت أن تتناساها . ولكنها كانت تحتل كل تفكيرها ، فلما لم تطق صبرًا انطلقت إلى النبى . وقالت له فى صوت أسيف :

— يا رسول الله . رأيت كأن عضوًا من أعضائك فى بيتى .

وأحست ببعض الراحة ، فقد أفضت بما كان يقلقها كتمانه . ورنت إلى النبى لترى أثر حديثها فى وجهه ، فإذا به يتطلق ويقول .

— خيرًا رأيته ، تلد فاطمة غلامًا فترضعينه .

ودخل علىّ على فاطمة . والبشر يترقرق فى محياه ، تملأ نفسه الغبطة التى تملأ كل زوج يرقب قدوم وليده الأول . وأقبل على الزهراء يلاطفها ، فنزلت السعادة بالدار الصغيرة التى ما كان بها إلا إهاب كبش كانت فراش الإلفين وقطيفة . إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما . وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رءوسهما .

وحضرت ولادة فاطمة ، فهرع إلى بيت النبى ، فقال عليه الصلاة والسلام لأسماء بنت عميس وأم سلمة .

— احضرا فاطمة .

واستمر علىّ فى قلقه ، حتى إذا ما وقع ولده واستهل صارخًا . انتشت روحه وسكنت الطمأنينة قلبه ، فقد كان يخشى على زوجه التى شحبت وانتابها هزال فى شهورها الأخيرة .

وجاء النبى . فأُخرج إليه المولود فى خرقة صفراء ، فرمى بها وقال :

ــ ألم أنهكم أن تلفوا المولود فى خرقة صفراء !

وأمر أن يُلَف فى خرقة بيضاء ، فلفوه وجاءوا به ، فقطع سرته وقال له :

ــ اللهم إنى أُعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم :

وفى اليوم السابع جاء رسول الله وقال :

ــ أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟

فقال على ، رجل السيفَ :

ــ حربًا .

فقال رسول الله :

ــ بل هو حسن .

ونحر كبشًا ، وأعطى القابلة فخذًا ودينارًا وقال :

ــ يا فاطمة ، احلقى رأسه وتصدق بزنة شعره فضة .

وأثلج صدر علىّ فقد وهبه الله هبة عظمى ، وهبه ذرية من نسل رسول الله .

وانشرح صدر فاطمة بوليدها ، فجعلت ترقصه وهى فرحانة وتقول له :

أشبــه أبــاك يــا حسن   واخلـع عـن الحق الـرسن
واعبــد إلٰهــا ذا منــن   ولا تــوال ذا الإحــن

وما انقضى شهر وبعض شهر حتى حملت فاطمة ثانية ، فكانت أم الفضل تُرضع الحسن . وفى يوم جاءت به إلى النبى ، فوضعته فى حجره فبال ، فضربت كتفه فنظر إليها عليه السلام وقال :

ــ أوجعت ابنى رحمك الله .

ومرت الأيام ، ووضعت فاطمة مولودها الثانى ، فجاء النبى وقال :

ــ أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟

فقال علىّ :

ــ حربًا .

فقال رسول الله :

ـ بل هو حسين .

* * *

وقف رسول الله يصلى بالمسلمين فجاء الحسن وهو ساجد فجلس على ظهره ، فرفعه النبى رفعًا رفيقًا ، فلما فرغ من الصلاة ، وضعه فى حجره ، فكان يدخل أصابعه فى لحية النبى ، والنبى يضمه ويقبله فى حنان ويقول :

ـ اللهم إنى أُحبه .

ورأى المسلمون ذلك الحب الدافق ، فقالوا :

ـ يا رسول الله إنَّا رأيناك تصنع بهذا الصبى شيئًا ما رأيناك تصنعه بأحد .

ـ إن هذا ريحانتى ، وإن هذا ابنى سيد ، وعسى الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين .

ونهض النبى وحمل الحسن وسار ، فقابله رجل فقال :

ـ نعم المركب ركبت يا غلام .

فقال النبى :

ـ ونعم الراكب هو .

وفى يوم خرج رسول الله من بيت عائشة ، فمر على بيت فاطمة ، فسمع حسينًا يبكى ، فمس بكاؤه شغاف قلبه ، فهرع إلى فاطمة وقال لها :

ـ ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى ؟

ودارت عجلة الزمن دورة ، ووقف رسول الله فى مسجده يخطب ، وبينا هو يعظ المسلمين ، جاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فلم يتمالك رسول الله نفسه بل نزل إليهما وأخذهما وعاد إلى المنبر وهو يضمهما إليه ، ثم وضعهما فى حجره وقال :

ـ صدق الله ! إنما أموالكم وأولادكم فتنة .

٣

سهام تتطاير ، وسيوف تتألق وتتصافح ، ثم تُرفع لتهوى كوميض البرق ، فتحصد رءوس ، وتهرق دماء تروى أقدام أُحُد ، وكان يشهد معركة الثأر الناشبة بين قريش والمسلمين . وقامت هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان شيخ الأمويين فى النسوة اللواتى معها ، وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضنهم ، راحت هند تقول :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار ضربًا بكل بتار

وكانت هند ترقب القتال الدائر أمامها فى قلق ورجاء ، كانت تخشى أن تُمنى قريش بهزيمة أخرى ، فيلحقهم عار بعد عار ، وتزداد نار الحقد التى تأكل كبدها تأججًا وضرامًا ، وكانت ترجو أن يتمكن الرجال من القضاء على علىٍّ وحمزة ، فتشفى غليل نفسها ، وتبرد النار التى كانت تنهشها الليالى والأيام طوال العام الذى انقضى كما ينقضى أسوأ عام .

رأت علىّ بن أبى طالب يجدل حملة الألوية واحدًا إثر واحد ، وحمزة بن عبد المطلب يحس الرجال بسيفه ، فأحست حنقًا وامتلأت غيظًا ، فما كانت ترجو فى يومها هذا إلا أن يشرب ابن أبى طالب وعمه حمزة من نفس الكأس التى جرعاها يوم بدر ابنها حنظلة ، وأباها عتبة ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد .

وخاض حمزة فى الناس كأنه الجمل الأورق يهد الأعداء بسيفه هدًا ، ما يقوم له شىء . وتقدم إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال :

ـــ هلم ، إلى يابن مقطعة البظور .

وضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه ، وإذا بحربة وقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، فالتفت فرأى الحبشى الذى رماها ، فذهب لينوء نحوه فغلب .

وقُضى حمزة ، فأتاه وحشى فأخذ حربته وعاد إلى العسكر وقعد فيه ، فما كان له بغيره حاجة ، فقد قيل له : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق .

وهجم المسلمون على الأعداء وهم يتصايحون : « أمت .. أمت » فانهزم الكفار ، وأخذ نساؤهم يشددن فى الجبل ، رافعين عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، وأسرع المسلمون يجمعون الغنائم . فلما لمح الرماة ذلك تصايحوا :

— الغنيمة الغنيمة .

فقال عبد الله بن جبير :

— عهد إلى ﷺ ألا تبرحوا .

— لقد انهزم القوم وابتدأ إخواننا فى جمع الغنائم .

— لا تبرحوا .

فأبوا وانصرفوا ليجمعوا الغنيمة ، وأخلوا ظهور المسلمين ، فظهر خيل الكافرين على الجبل خلف المسلمين ، فالتفت المسلمون نحو الصوت مذعورين ، وانقضت خيل قريش عليهم ، فوقع بينهم هرج شديد .

وعادت هند والنسوة اللاتى معها، ورحن يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ، يجدعن الآذان والأنوف ؛ حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم قلائد . ورأت حمزة العظيم مجدلا لا حول له ولا سلطان ، فلم يذهب الموت بأحقادها ، بل ثار الوحش الكامن فى نفسها ، فبقرت عن كبد حمزة وهى تصرف أنيابها غيظًا ، ثم رفعت كبده إلى فيها فلاكتها لتطفئ النار المندلعة فى جوفها ، فلما لم تستطع أن تسيغها لفظتها .

وجاء أبو سفيان ووقف عند حمزة وقد بقرت بطنه ، فلم تأخذه الشفقة بابن عمه ، بل ثارت حفيظته فضرب فى شدقه بزج الرمح وقال :

— ذُق عقق .

ورأى الحليس سيد الأحابيش فعلة أبى سفيان النكراء ، فقال فى استنكار :

— يا بنى كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما !

فأحس أبو سفيان خزيًا ، وقال فى توسل :

ــ ويحك ، اكتمها عنى فإنها كانت زلة .

ذهب حمزة ، فتجمعت الأحقاد فى ابن أبى طالب .

ورمى عتبة بن أبى وقاص رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وجرح شفته السفلى ، وجاء آخر فشجه فى جبهته . ووقع رسول الله فى حفرة ، فأخذ على بن أبى طالب بيده ، وتفرق عنه أصحابه ، وفر بعضهم مذعورين حتى دخلوا المدينة ، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل إلى الصخرة ، وجعل رسول الله ﷺ يدعو إليه الناس :

ــ إلىّ عباد الله ، إلىّ عباد الله .

فاجتمع إليه ثلاثون رجلا ، فجعلوا يسيرون بين يديه ، وصاح صائح : « ألا إن محمدًا قد قتل » ، فهدأت المعركة ، وانسل الرسول إلى الشعب ، وانضم إلى أصحابه .

وقعد النبى ﷺ والدم يسيل على وجهه ! فخفت فاطمة إليه ، وأحضر على ماء بالمجن ، وراح يسكبه وفاطمة تغسل جرح أبيها العظيم ، ورأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة ، فأخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها ، فاستمسك الدم .

وعلت هند بنت عتبة على صخرة مشرفة ، وصرخت بأعلى صوتها فى شماتة :

نحن جزيناكم بيوم بدر   والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لى عن عتبة من صبر   ولا أخى وعمه وبكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى   شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمرى   حتى ترم أعظمى فى قبرى

وأشرف أبو سفيان على الجبل وصرخ بأعلى صوته :

ــ أنعمت ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، اعل هبل .

فقال رسول الله ﷺ لعمر :

ـــ قُم يا عمر فأجبه فقل : « الله أعلى وأجل ، لا سواء . قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار » .

فقال أبو سفيان :

ـــ هلُم إلَىّ يا عمر .

فقال رسول الله :

ـــ ائته فانظر ما شأنه !

فجاءه ، فقال له أبو سفيان :

ـــ أنشُدُكَ الله يا عمر ، أقتلنا محمدا؟

ـــ اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

ـــ أنت عندى أصدق من ابن قمئة وأبر .

وانصرف أبو سفيان ومن معه ، فنادى رسول الله عليًا وقال له :

ـــ اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فإن كانوا قد اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأناجزنهم .

وتحرك علىّ ، فقال له النبى :

ـــ أى ذلك كان فاخفه حتى تأتينى .

وخرج علىّ فى آثارهم ينظر ماذا يصنعون ، فلما اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل علم أنهم توجهوا إلى مكة ، فأقبل يصيح ما يستطيع أن يكتم الذى أمره به رسول الله ﷺ لما به من الفرح .

وفرغ الناس لقتلاهم ، فخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة بن عبد المطلب ، فوجده ببطن الوادى قد بُقِرَ بطنه عن كبده ، ومُثِّلَ به فجُدِعَ أنفه وأذناه ، فبان الحزن العميق فى وجه النبى ولم يستطع أن يكتم ما به ، فقال :

ـــ لن أصاب بمثلك أبدا ، ما وقفت قط موقفًا أغيَظ إلى من هذا .

وصمت رسول الله قليلا ثم قال :

ـ لولا أن تحزن صفية أو تكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى أجواف السباع وحواصل الطير ، ولئن أنا أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلنّ بثلاثين رجلا منهم .

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على ما فُعِلَ بعمه قالوا :

ـ والله لئن ظهرنا عليهم يومًا من الدهر لنمثلنَّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط .

وتذكر الرسول قول الله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾(١) ، فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة .

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى أخيها حمزة ، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام :

ـ القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها .

فلقيها الزبير وقال لها :

ـ يا أمه ، إن رسول الله ﷺ يأمُرك أن ترجعى .

ـ ولِمَ ؟ وقد بلغنى أنه مُثِّلَ بأخى ، وذلك فى الله قليل ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله .

فلما جاء الزبير رسول الله ﷺ وأخبره بذلك قال :

ـ خل سبيلها .

وانتهى رسول الله إلى أهله ، فدخل على فاطمة كما هى عادته قبل أن يدخل على زوجاته ، وناول سيفه ابنته وقال :

ـ اغسلى عن هذا دمه يا بنية .

وناولها علىّ سيفه وقال :

ـ وهذا فاغسلى عنه فوالله لقد صدقنى اليوم .

---

(١) هذه الآية مكية ولم تنزل فى هذه المناسبة كما قالت كتب السير .

(أهل البيت)

٤

استوت الشمس فى كبد السماء ، ونزل جيش المسلمين بالقرب من المدينة بعد أن قفلوا عائدين من غزوة بنى المصطلق ، وأقبل صفوان بن المعطل يقود بعائشة الراحلة ، وكان هادئا صافى النفس ، وكانت عائشة مرفوعة الرأس . فقد ذهبت تلتمس عقدها الذى انسل من عنقها دون أن تحس ، فخلفها الركب . وجاء صفوان وكان على ساقة الجيش ، فلما رآها قرب ناقته وأناخها وقال لها : « يا أمة قومى فاركبى » ، فركبت وانطلق يغذ السير وهو آخذ برأس البعير ليلحق بالجيش .

ولم يوح طلوع عائشة وصفوان على الناس إلى المؤمنين شيئا ، فإن نفوسهم طاهرة . ولكن كان هناك كبير المنافقين عبد الله بن أُبَىّ الذى أكلت الغيرة قلبه ، وملأ الحقد نفسه . فلما رأى زوجة غريمه ، لذى جاء إلى المدينة إذ كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ، مقبلة بعد الناس مع صفوان ، رأى أن يشكك الناس فى زوج نبيهم الأثيرة عنده ، فعاهد شيطان نفسه على أن يخوض الإفك ، وعلى أن يلوث عائشة الطاهرة الذيل ، لعل نفسه تهدأ ، ولعل داء قلبه يبرأ ، ولعله ينتقم ممن استلبه ملكا .

رأى عائشة على ظهر البعير وقد خمرت وجهها بجلبابها ، وصفوان يقود بعيرها ، فقال فى خبث ليلفت نظر الناس إلى القادمين :

ـــ مَن هذه ؟

فقالوا فى براءة :

ـــ عائشة وصفوان .

فقال فى نبرات تقطر سما :

— ما برئت منه وما برئ منها .

وهبط على الناس وجوم ، وصمتوا كأنما عُقِدَتْ ألسنتهم فما ينطقون .

فقال ابن أُبَىّ فى سخرية :

— امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت !

ونشط ابن أُبَىّ فراح يجوس خلال العسكر يوسوس للناس ، ويوسع الأرض إشاعة ! ووجد بعض الآذان الواعية ، فتمادى فى غيه حتى ارتج العسكر .

ودخل الناس المدينة ، وذاع خبر عائشة وصفوان ، وما درت عائشة شيئا .

وقال أبو أيوب الأنصارى لزوجته :

— ألا ترين ما يُقال ؟!

فقالت له فى إنكار :

— لو كنت بدل صفوان أكنت تهم بسوء لحرم رسول الله ﷺ ؟!

— لا .

— ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله .

واشتكت عائشة ومرضت ، وانتهى الحديث إلى النبى وأبى بكر وأم رومان زوجه ، فأما أبو بكر وأم رومان فقد نزل بهما هم ثقيل ، فكان قلباهما يحترقان غيظا ولا يحركان لسانهما بكلمة ، ينتظران رحمة الله ولا يذكران لعائشة شيئا . إنها لتشتكى شكوى شديدة ، وإن ألم نفسيهما الذى يعانيانه لأشد من ألمها .

وآذى رسول الله ما بلغه ، وشاء ألا يُصدق حديث السوء فما يعلم عن عائشة إلا خيرا ، وجعل يفكر فى أمرها فأقلقه فكره ، ودخل يعودها فلم يستطع أن يكتم ما به ، فلم يلاطفها كما اعتاد أن يلاطفها كلما وعكت ، فأنكرت عائشة منه ذلك .

وانتقلت إلى بيت أبويها ، وبلغها حديث الناس فازدادت مرضا على مرضها ، ومازالت تبكى حتى لكاد البكاء يصدع كبدها ، وأقبلت أمها فقالت لها عائشة عاتبة :

— يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ، وبلغك ما بلغك ، ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟

فشاءت الأم أن تخفف عن ابنتها وقع مصابها ، وأن تهون عليها ما بلغها ، فقالت :

— أى بنية ، خفضى الشأن ، فوالله قل ما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر ، إلا كثرن وكثر الناس عليها .

وظل النبى يتألم ، وانتظر براءة عائشة ، فإنه لا يستطيع أن يصدق ما قيل ، كما إنه لا يملك البرهان الحاسم الذى يبرئها مما لصق بها . اختُبِرَ فى أعز ما يملك فصَبِر ، ولكن حديث الناس يؤذيه ، فشاء أن يضع لذلك الأمر حدا ، فذهب يستشير أصحابه ، فقال له عمر :

— من زَوَّجَهَا لك يا رسول الله ؟

— الله تعالى .

— أفتظن أن الله دلس عليك فيها . سبحانك هذا بهتان عظيم .

ودعا النبى علىّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد ليستأمرهما فى فراق أهله ، فقال أسامة .

— يا رسول الله . أهلك ولا نعلم عليهن إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وشعر علىّ بعظم الأسى الذى يكابده الرسول . فقال فى صراحته المعهودة :

— يا رسول الله ، إن النساء لكثير . وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدق .

ودعا رسول الله بُرَيْرَة يسألها :

— أى بُرَيْرَة . هل رأيت من شىء يريبك ؟

— لا .

فقام إليها علىّ فضربها ضربا شديدا وهو يقول :

— أصدقى رسول الله .

فالتفتت إلى رسول الله وقالت :

ـــ والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمطه ، غير أنها جارية حديثة السن . تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله .

ونزلت براءة عائشة من السماء . ونسى علىٌّ ما قاله ، ولكن عائشة لم تنس قط أن عليا قال : « يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف » . لقد بذر علىّ بقوله هذا بذرة من بذور الكره فى صدر عائشة ، ستنمو على الأيام ، وستؤتى ثمارها ، يوم يقفان وجها لوجه على رأس جيشين متنازعين من المسلمين .



استمر القتال بين المسلمين والقرشيين وكان أبو سفيان يقودهم لاستئصال محمد وصحبه ، ولكن نجم محمد كان فى صعود بينا نجم أبى سفيان كان آخذا فى الأفول ، وعقد أخيرًا صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش ؛ وفيه أن من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل . فدخلت بنو بكر فى عهد قريش ، ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ .

وكان الخزاعيون على ماء لهم آمنين ، فجاءهم بنو بكر ليلا بغتة . فأصابوا منهم عشرين ، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفيا ، منهم صفوان بن أمية وحويطب ابن عبد العزى وعكرمة بن أبى جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو .

وناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق . وجاء الحرث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم ، فأطرق أبو سفيان قليلا ثم قال :

ـــ هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وإنه لشر ، والله ليغزونا محمد . ولقد حدثتنى هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل

حتى وقف بالخندمة .

وندمت قريش على نقضهم العهد ، وفكروا فى أن يبعثوا إلى رسول الله رسولا يجدد عهدهم ، فلم يجدوا إلا أبا سفيان لهذه السفارة فقالوا له :

— ما لها سواك ، اخرج إلى محمد فكلمه فى تجديد العهد وزيادة المدة .

خرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين . وأسرع السير فقد كان يريد أن يبلغ المدينة قبل أن يبلغ رسول الله خبر ما جرى لحليفه . ولقى أبو سفيان بديل بن ورقاء بعسفان ، فأشفق أن يكون بديل ، وهو من خزاعة ، جاء المدينة إلى رسول الله ﷺ فاقترب من بديل ومن معه وقال :

— أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها ؟

— لا علم لنا بها . إنما كنا فى الساحل نصلح بين الناس فى قتل .

— ما أتيت محمدًا يا بديل ؟

— لا .

وتوجه بديل إلى مكة ، فالتفت أبو سفيان إلى مولاه وقال :

— لئن كان جاء إلى المدينة لقد علف بها النوى .

فجاء منزلهم ففتت أبعار أباعرهم ، فوجد فيها النوى .

قال أبو سفيان : أحلف بالله لقد جاء القوم محمدًا .

ودخل أبو سفيان المدينة ، فرأى أن يدخل على بنته أم حبيبة زوج النبى ، فاتجه إليها ودخل عندها ، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه ، فبان فى وجهه دهشة وقال :

— يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟

— بل هو فراش النبى ﷺ وأنت مشرك نجس .

— والله لقد أصابك بعدى شر .

— بل هدانى الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر ، واعجبًا منك يا أبت وأنت سيد قريش وكبيرها .

— أنا أترك ما كان يعبد آبائى وأتبع دين محمد ؟

وخرج إلى المسجد حتى أتى النبى ، فالتفت الناس إلى سيد قريش المتعجرف الذى جاء يرجو ويتوسل .

قال : إنى كنت غائبًا فى صلح الحديبية ، فامدد العهد وزدنا فى المدة .

فقال رسول الله ﷺ :

— لذلك جئت يا أبا سفيان ؟!

— نعم .

— هل كان فيكم من حدث ؟

— معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبدل .

— فنحن على مدتنا وصلحنا .

وحاول أبو سفيان أن يقنع النبى بأن يجدد العهد ، ولكن النبى لم يرد عليه شيئا ، فرأى أن يستعين بأبى بكر فذهب إليه وقال له :

— جدد العقد وزدنا فى المدة .

فقال أبو بكر :

— جوارى فى جوار رسول الله ، والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم.

وخرج من عند أبى بكر يجر أذيال الإخفاق ، ولكنه لم يقنط ، فرأى أن يذهب إلى عمر ، فلما أتاه كلمه ، فقال عمر :

— ما كان من حلفنا جديدًا أخلقه الله ، وما كان مقطوعًا فلا وصله الله .

فرمقه أبو سفيان شزرا وقال :

— جزيت من ذى رحم شرًا .

ثم جاء إلى عثمان بن عفان فقال :

— إنه ليس فى القوم أقرب بى رحمًا منك ، فزد فى المدة وجدد العقد فإن صاحبك لا يرد عليك أبدًا .

— جوارى فى جواره ﷺ .

ولم يبق أمامه إلا بيت عليّ ، فدخل على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة وحسن غلام يدب بين يديها فقال :

— يا عليّ ، إنك أمس القوم بى رحمًا وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، اشفع لى إلى محمد .

فقال عليّ :

— ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه .

فالتفت إلى فاطمة فقال :

— يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

— والله ما بلغ ابنى ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد .

ورأى أبو سفيان الأمور قد انسدت عليه ، فقال :

— يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى .

— والله ما أعلم شيئًا يغنى عنك شيئًا ؛ ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك .

— أوترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟

— لا والله لا أظن ؛ ولكن لا أجد لك فى غير ذلك .

فخرج أبو سفيان إلى المسجد ، فقام فقال :

— أيها الناس إنى أجرت بين الناس .

ثم ذهب إلى النبى ﷺ وقال :

— يا محمد ، إنى أجرت بين الناس ، لا والله ما أظن أحدًا يخفرنى ويرد جوارى .

فقال رسول الله ﷺ .

— أنت تقول هذا يا أبا حنظلة ؟

وركب أبو سفيان بعيره لينطلق إلى قريش بعد أن طالت غيبته فى يثرب ؛ واتهمته قريش أنه صبأ واتبع محمدًا سرًا وكتم إسلامه .

دخل أبو سفيان على هند زوجته فقالت له :

— إن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل .

فأخبرها بإخفاق سفارته ، فضربت برجلها فى صدره وقالت :

— قبحت من رسول قوم فما جئت بخير .

فلما أصبح أبو سفيان ، حلق رأسه عند إساف ونائلة وذبح عندهما للبدن ، ومسح رأسهما بالدم ليدفع عنه تهمة إسلامه ، فلما رأته قريش أقبلوا نحوه وقالوا :

— ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟

— جئت محمدا ، فكلمته ، فوالله ما رد على شيئًا ، ثم جئت إلى ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بشيء صنعته فوالله لا أدرى أيغنى عنى شيئا أم لا .

— وبِمَ أمرك ؟

— أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت .

— فهل أجاز ذلك محمد ؟

— لا .

— رضيت بغير رضا ، وجئت بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئا ، ولعمر الله ما جوارك بجائز ، وإن إخفارك عليهم لهين ، والله أراد الرجل أن يلعب بك .

— والله ما وجدت غير ذلك .

٥

عقد ﷺ الألوية والرايات ودفعها للقبائل ، ثم سار إلى مكة وقد أعمى الله الأخبار عن قريش حتى نزل بمر الظهران ، فأمر ﷺ أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب ، ونظر العباس الذى أقبل إلى رسول الله مسلما إلى عسكر المسلمين فرقت نفسه لأهل مكة ، فجلس على بغلة رسول الله وخرج عليها وهو يقول فى نفسه :

ــ لعلى أجد بعض الحطّابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة يخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة .

وفيما هو سائر إذ سمع كلام أبى سفيان وحكيم بن حزام وهما يتراجعان ، فقد خرجا يتحسسان الأخبار وينظران هل يجدان خيرًا أو يسمعان به ، فلما سمعا صهيل الخيل راعهما ذلك ، فقال أبو سفيان :

ــ ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا ، هذه كنيران عرفة .

ــ هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

ــ خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وعرف العباس صوت أبى سفيان فقال :

ــ أبا حنظلة !

فقال أبو سفيان فى استغراب .

ــ أبو الفضل ؟!

ــ نعم .

ــ مالك فداك أبى وأمى ؟

ــ والله هذا رسول الله ﷺ فى الناس قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به .

— وَاصباح قريش ، والله فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟

— والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتيك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك .

فركب خلفه وسارت البغلة ، وكلما مرا بنار من نيران المسلمين قالوا :

— من هذا ؟.

فإذا ما استبانوا بغلة رسول الله ﷺ قالوا :

— عم رسول الله ﷺ على بغلته .

ومر العباس وأبو سفيان بنار عمر فقال :

— من هذا ؟.

وقام إليهما ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال :

— أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد .

وهرع عمر إلى رسول الله ﷺ فركضت البغلة فسبقته ، فدخل العباس على رسول الله ﷺ وعمر فى أثره يقول :

— يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ، فدعنى لأضرب عنقه .

فقال العباس :

— يا رسول الله إنى قد أجرته .

وجلس العباس إلى رسول الله وقال فى نفسه : والله لا يناجيه الليلة رجل دونى ، وقال عمر فى ثورة :

— دعنى يا رسول الله لأضرب عنقه .

فقال العباس :

— مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عُدَىّ بن كعب ما قلت مثل هذا .

— مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىّ من إسلام

الخطّاب لو أسلم ، وما بى إلا أن عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطّاب لو أسلم .

فقال رسول الله ﷺ :

ــ اذهب به يا عباس ، فإذا أصبحت فأتنى به .

ونُودى بالصلاة . وثار الناس ، ففزع أبو سفيان وقال للعباس :

ــ يا أبا الفضل ، ما للناس ؟ أأمِروا فىّ بشىء ؟

ــ لا ، ولكنهم قاموا إلى الصلاة .

ورأى أبو سفيان المسلمين يركعون إذا ركع الرسول ويسجدون إذا سجد ، فقال :

ــ يا عباس ما يأمرهم بشىء إلا فعلوه .

ــ لو نهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه .

فغمغم أبو سفيان :

ــ ما رأيت ملكا مثل هذا ، لا ملك كسرى ، ولا ملك قيصر ، ولا ملك بنى الأصفر .

ثم التفت إلى العباس وقال :

ــ كلمه فى قومك هل عنده من عفو عنهم .

انطلق العباس بأبى سفيان حتى أدخله على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله :

ــ ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إلٰه إلا الله ؟

ــ بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إلٰه غيره لما أغنى عنى شيئًا .

ــ ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

ــ بأبى أنت وأمى ، أما والله هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيئًا .

فقال العباس :

ــ ويحك ، أسلم واشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تُضرب

عنقك .

فشهد أبو سفيان ثم قال :

— يا رسول الله ادعو الناس بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها آآمنون هم ؟

— نعم من كف يده وأغلق داره فهو آمن .

قال العباس :

— يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا .

— نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

ودخل أبو سفيان مكة وهو يصرخ بأعلى صوته :

— يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

فما إن صك صوته أذنىّ هند زوجه ، حتى اربد وجهها وأحست غيظًا ، فخرجت إليه فأخذت بشاربه وقالت :

— اقتلوا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه ، قُبح من طليعة قوم .

— ويحك اسكتى ، ادخلى بيتك ، ويحكم فلا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قِبَلَ لكم به .

— قبَّحك الله ، وما تغنى عنا دارك !

— ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن .

ودانت مكة للرسول الكريم ، فدخلها وهو راكب على ناقته القصواء ، واضعًا رأسه على رحله ، تواضعًا لله تعالى حين رأى الفتح العظيم .

وجاء البيت وطاف به سبعًا على راحلته ؛ وحُطِّمَتْ الأصنام جميعًا و لم يبق إلا أكبرها ؛ ووفد الليل فانطلق رسول الله ﷺ بعلىٍّ حتى أتى الكعبة ، فقال له :

— اجلس .

فجلس عليّ إلى جانب الكعبة ، فصعد رسول الله ﷺ على منكبه ثم قال :

— انهض .

فنهض عليّ ، فلما رأى الرسول ضعفه تحته ، أشفق عليه فقال له :

— اجلس .

فجلس عليّ ، وهبط رسول الله ، ثم جلس وقال :

— يا عليّ ، اصعد على منكبيّ واهدم الصنم .

— يا رسول الله بل اصعد أنت ، فإني أُكرِمك أن أعلوك .

— فاصعد أنت .

فصعد عليّ على كاهله ثم نهض به ، فصعد فوق ظهر الكعبة ، وتنحى رسول الله ﷺ ، وراح عليّ يعالج الصنم ، والتفت الزبير إلى أبي سفيان وقال :

— إن هُبل الذى كنت تفخر به يوم أُحد قد كسر .

— دع هذا عنك يابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إلٰه محمد ﷺ غيره ، لكان غير ما كان .

* * *

وأمر رسول الله بقتل عبد الله بن أبي سرح ، لأنه كان أسلم قبل مكة ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحى فكان يحاول أن يبدل فى الوحى ، فلما ظهرت خيانته لم يستطع أن يقيم بالمدينة ، فارتد وهرب إلى مكة ، فلما كان يوم الفتح وعلم بإهدار النبى ﷺ دمه ، لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه من الرضاعة فقال :

— يا أخي استأمن لى رسول الله ﷺ قبل أن يضرب عنقى .

فأتى به عثمان إلى النبى ، فأعرض عنه النبى ، فصار عثمان يقول :

— يا رسول الله أمنته ؟

واستمر النبى يعرض عنه ، ففى الواقفين رجل نذر أن يقتل ابن أبي سرح إذا لقيه ، وظل عثمان يقول فى استعطاف :

— يا رسول الله أمنته ؟

فقال النبى :

— نعم .

فبسط يده فبايعه .

وخرج عثمان وعبد الله ، فقال ﷺ لمن حوله :

— أعرضت عنه مرارًا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه .

والتفت إلى عبَّاد بن بشر وقال :

— انتظرتك أن تفى بنذرك .

فقال عبَّاد :

— يا رسول الله خفتك ، أفلا أومضت إلىّ ؟

— إنه ليس لنبى أن يومض .

وكان النبى ﷺ قد أمر بقتل هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان لأنها مثلت بعمه حمزة يوم أُحد ولاكت قلبه ، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء فقال:

— تبايعن على ألا تشركن بالله شيئًا ؟

فقالت إحداهن :

— إنك لتأخذ علينا أمرًا ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه .

— ولا تسرقن ؟

قالت :

— والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة وما أدرى أكان ذلك حِلاً لى أم لا .

فقال أبو سفيان .

— أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حِل .

فقال رسول الله ﷺ :

— وإنك لهند بنت عتبة ؟

— أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك .

— ولا تزنين ؟

فقالت هند :

— هل تزنى الحرة ؟

— ولا تقتلن أولادكن ؟

— قد ربيناهم صغارًا وقتلتهم يوم بدر كبارًا .

— ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ؟

— والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

— ولا تعصينني فى معروف ؟

— ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف .

فقال رسول الله ﷺ لعمر :

— بايعهن .

٦

دانت قبائل العرب للرسول إلا هوازن وثقيفًا ، ومشت أشرافهما بعضها إلى بعض ، فقد أشفقوا أن يغزوهم رسول الله ﷺ وقالوا : « قد فرغ لنا فلا ناهية » . واستعد القوم للقاء محمد ، ولم يمش الخوف فى ركابهم ، فقد كانوا على ثقة من أمرهم . وقالوا مهونين من شأن محمد : « والله إن محمدًا لاقى قومًا لا يحسنون القتال » .

خرجت هوازن وعلى رأسها مالك بن عوف ، فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر ، وهم الذين كان رسول الله ﷺ مسترضعًا فيهم ، وحضر معهم دريد بن الصمة ، وكان شجاعًا مجربًا ، ولكنه كبر وقد عمى وصار لا ينتفع إلا برأيه ومعرفته بالحرب .

وصـل أذن دريد رغاء الإبل ونهاق الحمير وبكاء الأطفال وأصوات النساء فعجب وقال :

ــ أين مالك ؟

ــ هذا مالك .

ودُعِيَ له ، فقال الرجل المُجرب .

ــ يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام . مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ويعار الشاة وبكاء الصغير .

ــ سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

ــ ولِمَ ؟

ــ أردت أن أجعل خلف كل أهله وماله ليقاتل عنهم .

فزجره وقال :

ــ راعى ضأن ، والله هل يرد المنهزم شيء ، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت من أهلك ومالك .

ثم صمت قليلا وقال :

ــ وما فعلت كعب وكُلاب ؟

ــ لم يشهد منهم أحد .

ــ غاب الجد والحد ، لو كان يوم عُلا ورفعة ما غابا ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب . فمن شهدها منهم ؟

ــ عمرو بن عامر وعوف بن عامر .

ــ ذانك الجذعان من بنى عامر لا ينفعان ولا يضران . يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا . ارفعهم متمنع بلادهم وعليا قومهم ثم الق الصباء على متون الخيل . فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

ــ والله لا أفعل . إنك قد كبرت وضَعُفَ رأيك .

فقال دريد لهوازن :

— قد شرطَ أن لا يخالفنى ، فقد خالفنى فأنا أرجع إلى أهلى .

فقام الرجال إليه ومنعوه ، وخشى مالك أن ينتصر رأى دريد فيكون له ذكر فقام مهددًا :

— والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

فلم يجد الناس بدًا من أن يطيعوه فقالوا :

— أطعْناك .

فقال دريد :

— هذا يوم لم أشهده و لم يفتنى .

وجعل مالك النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفًا ، ثم جعل الناس الإبل صفوفًا والبقر والغنم وراء ذلك لئلا يفروا ، وراح مالك يتفقد صفوف جيشه ثم قال :

— إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا شدة رجل واحد عليهم .

وبعث عيونًا لينظروا إلى رسول الله ﷺ فأتوا وقد تفرقت أوصالهم ، قال :

— ويلكم ، ما شأنكم ؟

— رأينا رجالا بيضًا على خيول بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، وإن أطعتنا رجعنا بقومك .

فبان الضيق فى وجهه وقال فى غيظ :

— أفٍّ لكم ، بل أنتم أجبن العسكر .

وسمع رسول الله ﷺ باجتماعهم فأرسل إليهم رجلا من أصحابه ، وأمره أن يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه ، فمكث فيهم يومين ، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وقال :

— يا رسول الله ، إنى انطلقت بين أيديهم فإذا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشبابهم اجتمعوا إلى حنين .

فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

— تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله تعالى .

وعلم رسول الله أن عند صفوان بن أُميَّة درعًا وسلاحًا ، ولم يكن صفوان قد أسلم ، فأرسل ﷺ إليه فقال :

— يا أبا أُميَّة أعرنا سلاحك نلق به عدونا غدًا .

— أغصبًا يا محمد ؟

— بل عارية وهى مضمونة حتى نؤديها إليك .

— ليس بهذا بأس .

واستعار ﷺ من ابن عمه نوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح فقال له :

— كأنى أنظر إلى رماحك تقصف ظهر المشركين .

وخرج رسول الله ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة ، وخرج أهل مكة ركبانًا ومشاة حتى النساء يمشين على غير وهن يرجون الغنائم .

واقترب جيش المسلمين من العدو ، فأعطى النبى عليًا لواء المهاجرين ، وأعطى الحباب بن المنذر لواء الخزرج ، وأعطى سيد بن حضير لواء الأوس . وفى عماية الصبح انحدر المسلمون فى وادى حنين ، فانقض عليهم العدو من شعاب الوادى ومضايقه ، وحمل عليهم حملة رجل واحد ، وتطايرت النبال ، وانتشر أهل هوازن كالجراد ، فقال أهل مكة الذين لم يثبت الإسلام فى قلبهم بعضهم لبعض :

— اخذلوه هذا وقته .

فانهزموا وتبعهم الناس منهزمين لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ذات اليمين ومعه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلىّ والعباس وابنه الفضل . وهتف رسول الله :

— أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، إنى عبد الله ورسوله ، إلىّ أيها الناس .

ولكن الناس اندفعوا لا يلوون على شيء ، ورأى أبو سفيان فرار المسلمين فابتسم فى شماتة ، ونضح بما فى نفسه من ضغن فقال :

— لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وقال أخو صفوان بن أُميَّة :

— ألا بَطُل السحر اليوم .

فقال له صفوان و لم يسلم بعد :

— اسكت فَض الله فاك ، فوالله لأن يُربنى (يحكمنى) رجل من قريش أحب إلىّ من أن يُربنى رجل من هوازن .

والتفت رسول الله إلى العباس وكان امرءًا جسيما شديد الصوت وقال له :

— يا عباس ، اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وبالأنصار الذين آووا ونصروا .

وجلجل صوت العباس الجهورى فإذا بأصوات المهاجرين والأنصار ترتفع :

— لبيك يا رسول الله نحن معك .

وكان أمام المشركين رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته رفع رمحه لمن خلفه فاتبعوه ، ورأى علىّ بن أبى طالب ما يفعل ذلك الرجل ، فاتجه إليه وجاء من خلفه فضرب عرقوبىّ الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الرجل على أنصارى فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه ؛ واجتلد الناس واشتد القتال ، وانقض فرسان المسلمين على هوازن ، فطاحت رءوس وسالت الدماء ! وانقلبت المعركة إلى مذبحة ، ففر من حملته رجلاه ، وسقط خلق كثير أسرى فى أيدى المسلمين .

٧

عاد النبى ﷺ من حجة الوداع ، فكان يجيء كل صباح إلى دار فاطمة يقول :

ــ السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، الصلاة رحمكم الله : ﴿ إنما يُريد الله ليُذهب عنكم الرِجسَ أهْلَ البيْت ويُطَهِّرَكُم تطْهِيرَا ﴾ .

وفى ليلة من الليالى أحس رسول الله ﷺ أرقًا ، فخرج من الدار وذهب إلى أبى مويهبة وقال له :

ــ يا أبا مويهبة أسرج لى دابتى .

فذهب أبو مويهبة فى جوف الليل يُسرج دابة رسول الله ، ثم قفل عائدًا بها ، فقال رسول الله ﷺ :

ــ يا أبا مويهبة إنى قد أُمِرْتَ أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى .

فركب رسول الله ، ومشى أبو مويهبة حتى انتهيا إليهم ، فنزل رسول الله عن دابته ، وأمسك أبو مويهبة الدابة ، ونظر رسول الله إلى القبور وقال :

ــ السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنَ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ؛ أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى .

ورجع رسول الله ﷺ من البقيع ، فدخل على عائشة وهى تشتكى رأسها :

ــ وَارأساه .

ــ بل أنا والله يا عائشة وَارأساه !!

وجلس إلى جوارها وقال مداعبًا :

ــ وما عليك لو مت قبلى ، فوليت أمرك وصليت عليك وواريتك .

ــ والله إنى لأحسب لو كان ذلك لقد خلوت ببعض نسائك فى بيتى فى آخر النهار !

فَضَحِكَ رسول الله .

واستمر النبى يدور على نسائه ، وهو فى وجعه ، وكان يسأل :

— أين أنا غدًا ، أين أنا غدًا ؟

يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء ، فخرج بين علىّ بن أبى طالب والفضل بن العباس عاصبًا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة .

واجتمع نساء رسول الله عنده ، فجاءت فاطمة تمشى لا تخطئ مشيتها مشية أبيها ، فلما رآها النبى قال :

— مرحبًا بابنتى .

فأقعدها عن يمينه ثم سارها بشيء فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فالتفتت إليها عائشة وقالت لها :

— خصك رسول الله بالسرار وأنت تبكين ؟

وقامت فاطمة فهرعت عائشة إليها وقالت :

— أخبرينى ما سارك ؟

— ما كنت لأفشى سر رسول الله .

وأتت فاطمة بالحسن والحسين إلى رسول الله فقالت :

— يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئًا .

— أما الحسن فإن له هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فإن له جرأتى وجودى .

وثقل برسول الله ﷺ وجعه ، وعكف الناس بالمسجد ينتظرونه لصلاة العشاء ، فقال :

— أَصلَّى الناس ؟

— لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله .

— صبوا لى ماء فى المخضب .

ففعلوا ، واغتسل ثم ذهب لينوء فأُغمى عليه ، ثم أفاق فقال :

— أَصلَّى الناس ؟

— لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله .

— ضعوا لى ماء فى المخضب .

ففعلوا ، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأُغمى عليه ، ثم أفاق فأرسل إلى أبى بكر ليُصلى بالناس .

فلم يقع فى قلب عائشة أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدًا ، وكانت ترى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأرادت أن يعدل ذلك رسول الله عن أبى بكر فقالت :

— إن أبا بكر رجل رقيق ، وإنه متى يقوم مقامك لا يُطِيق .

— مروا أبا بكر يُصلى بالناس .

— إن أبا بكر رجل أسيف ، إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء .

— إنكن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليُصلِ بالناس .

وصلى الناس ، وراح الأنصار يُشفقون من موت النبى ﷺ ، فدخل عليه الفضل فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه علىّ فأخبره بذلك . ثم دخل عليه العباس فأخبره بذلك ، فخرج النبى متوكئًا على علىّ والفضل والعباس أمامه ، والنبى ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثار الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

— أيها الناس ، بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خُلِّدَ نبى قبلى فيمن بُعِثَ إليه فأُخلَّدُ فيكم ؟ ألا وإنى لاحق بربى ، وإنكم لاحقون به ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرًا وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير ، فإن الله يقول ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ... ﴾ وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . وأوصيكم بالأنصار خيرًا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يُشاطروكم فى الثمار . ألم يوسعوا لكم فى الديار ،

ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا فإنى فرطكم وأنتم لاحقون بى ، ألا وإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده علىّ غدًا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى . يٰأيها الناس ، إن الذنوب تغير النعم ، فإذا بر الناس برتهم أئمتهم ، وإذا فجر الناس عقوا أئمتهم .

ونامت مدينة الرسول تلك الليلة ، وأصبح الصباح فخرج علىّ من عند رسول الله ، فهرع الناس إليه وقالوا :

— يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ؟

فقال علىّ فى انشراح :

— أصبح بحمد الله بارئًا .

فأخذ بيده العباس فقال له :

— أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإنى والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا ، إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر ؟ إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا .

فلم يوافق علىّ على ذلك وقال :

— إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده ، وإنى والله لا أسألها رسول الله .

والتفت رسول الله إلى من عنده وقال :

— ابعثوا إلى علىّ فادعوه .

فقالت عائشة :

— لو بعثت إلى أبى بكر .

وأسرعت حفصة وقالت :

— لو بعثت إلى عمر .

واجتمع علىّ وأبو بكر وعمر عند النبى ، ولكن رسول الله لم يقل لهم شيئًا ذا بال ، بل صرفهم قائلا :

ــ انصرفوا ، إن تكُ لى حاجة أبعث إليكم .

وأذَّن بلال بالظهر ، فاصطف الناس خلف أبى بكر ، وأخرج رسول الله ﷺ رأسه من الستارة ، فلما لمحه الناس أرادوا أن ينحرفوا فأشار إليهم أن امكثوا ، وتبسم رسول الله ﷺ لما رأى من هيئة المسلمين فى صلاتهم .

ودخل أبو بكر على عائشة وقال :

ــ الحمد لله ، قد أصبح رسول الله وأرجو أن يكون الله عز وجل قد شفاه .

ثم ركب أبو بكر فلحق بأهله بالسنح ، وانقلبت كل امرأة من نساء النبى ﷺ إلى بيتها . واشتد عليه الوعك ثانية فالتفت إلى عائشة وقال :

ــ يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم .

وأخذ فى الموت فصار يُغمى عليه ثم يُفيق . فبعثت عائشة إلى أزواجه فرجع إليه من كان ذهب من نسائه ، ورأت فاطمة ما يعانى رسول الله فسالت دموعها وقالت :

ــ واكرب أبتاه .

فقال رسول الله ﷺ .

ــ ليس على أبيك كرب بعد اليوم .

وتذكر ﷺ أن عنده سبعة دنانير ، فأمر عائشة بإرسالها إلى علىّ كرم الله وجهه ليتصدق بها وهو يقول :

ــ ما ظن محمد بربه أن لو لقى الله وهذه عنده !

وكان رأس النبى فى حجر عائشة ، وكان عنده قدح فيه ماء ، فكان يدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول :

ــ اللهم أعنِّى على سكرة الموت .

وخفت حركة النبى وتمتم بصوت خافت :

ـــ بل الرفيق الأعلى من الجنة .

ووجدت عائشة رسول الله يثقل فى حجرها ، فذهبت تنظر فى وجهه ، فإذا نظره قد شخص ، لقد خُيِّر فاختار ولحق بالرفيق الأعلى .

ووضعت رأسه على وسادة ، وقامت تلتدم مع النساء وتضرب وجهها .

وراحت فاطمة تبكى وتقول :

ـــ واأبتاه ، أجاب داعٍ دعاه ، يا أبتاه ، الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه .

وصك صوت فاطمة آذان من فى المسجد ، فطاشت العقول ، فأخرس عثمان ابن عفان ، فلم يطق الكلام ، وأقعد علىّ فلم يستطع أن يتحرك ، وهرع إلى دار النبى عمر والمغيرة بن أبى شعبة ، فاستأذنا ، فأذِنَتْ لهما عائشة ، وجذبت إليها الحجاب ، ورأى عمر النبى مُسَجَى ، فرفع عنه الثوب وقال :

ـــ واغشياه ! ما أشد غشى رسول الله ﷺ !

ثم قاما فلما دنيا من الباب قال المغيرة :

ـــ يا عمر ، مات رسول الله .

فثار عمر وقال :

ـــ كَذِبْت ، بل أنت رجل تحوسك فتنة ، إن رسول الله لا يموت حتى يفنى المنافقين .

واختلف الصحابة فيما بينهم ، فمن قائل يقول : مات رسول الله ، ومن قائل : لم يمت ، فذهب سالم بن عبيد وراء الصديق إلى السنح فأعلمه بموت رسول الله ، فأقبل على فرس حتى نزل ، فدخل المسجد وهو مكروب حزين ، وانطلق لا يكلم الناس ، واستأذن فأُذِنَ له ، فدخل ، فألفى النبى فى فراشه والنسوة حوله قد خمرن وجوههن واستترن منه ، فكشف عن رسول الله ، فقال :

ـــ إنا لله وإنَّا إليه راجعون ، مات رسول الله ﷺ .

ثم أتاه من قِبَلِ رأسه وحدر فاه وقبل جبهته ثم قال :

— واصفياه .

ثم رفع رأسه وحدر فاه وقبل جبهته وقال :

— واخليلاه !

وخرج سريعًا إلى المسجد يتخطى رقاب الناس ، فرأى عمر يخطب فى الناس فقال :

— اجلس يا عمر !

فأبى عمر أن يجلس .

فتَشَهَّدَ فأقبل الناس إليه ، فقال :

— أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لا يموت .

* * *

دخل علىّ والعباس وأبو بكر يعدون العدة لجهاز النبى ، واجتمع الناس فى المسجد يتحدثون ، وأقبل رجل إلى عمر وقال له :

— اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لمبايعة سعد بن عبادة خليفة لرسول الله .

فأرسل عمر إلى أبى بكر أن اخرج إلينا ، فخرج أبو بكر فقال عمر :

— أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ؟

فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى سقيفة بنى ساعدة ، وبقى علىّ والعباس وبعض بنى هاشم يشتغلون بإعداد جهاز النبى ، وأحس العباس أن فى الأمر شيئًا ، وأن الناس يفكرون فيمن يخلُفُ رسول الله ، فالتفت إلى علىّ وقال :

— امدد يدك أبايعك ، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ﷺ فلا يختلف عليك اثنان .

ـــ أوَ يطمع فيها يا عم طامع غيرى ؟

ـــ ستسمع .

وطفق علىّ يقول وهو يلى غسله :

ـــ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء ، وخصصت حتى صرت مسليًا عمن سواك ، وعممت حتى صار الناس فيك سواء ، ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذنا عليك ماء الشئون ، ولكان الداء مماطلا ، والكمد محالفًا وقلا لك ، ولكنه ما لا يُملك رده ولا يُستطاع دفعه ، بأبى أنت وأمى ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك .

واجتمعت بنو أميَّة إلى عثمان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد بن أبى وقَّاص وعبْد الرحمن بن عوف ، اجتمعوا فى المسجد فى حلق شتى ، وراحوا يتذاكرون أمر المسلمين بعد موت الرسول ، وأقبل عليهم أبو بكر وأبو عبيدة وعمر وقد بايع الناس أبا بكر ، فقال لهم عمر :

ـــ مالى أراكم مجتمعين حلقًا شتَّى ، قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايعته وبايعه الأنصار .

فقام عثمان بن عفان ومن معه من بنى أميَّة فبايعوه ، وقام سعد وعبد الرحمن ومن معهما من بنى زهرة فبايعوا .

وبلغ عليًا خبر السقيفة واجتماع الناس على بيعة أبى بكر فلم يستطع أن يفعل شيئا ، فقد كان فى شغل بجهاز الرسول ، وقال له العباس :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

وجاء أبو سفيان وهو يقول :

ـــ أما والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ، يا لعبد مناف ، فيم أبو بكر من أمركم ؟ أين المستضعفان علىّ والعباس ؟ أين الأذلاّن ؟

وجاء عليًا فقال له :

— يا أبا الحسن ابسط يدك أبايعك ؛ فوالله لو شئت لأملأنها على أبى فضيل خيلا ورجلا : فامتنع علىّ فأنشد :

ولن يقيم على خسف يراد بـه　　إلا الأذلاّن عير الحى والوتـد
هذا على الخسف معكوس برمته　　وذا يشج فلا يبكى لـه أحـد

فزجره علىّ وقال :

— إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة ، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شرًا . لا حاجة لنا فى نصيحتك .

وخرج أبو سفيان وهو يقول :

— مالنا ولأبى فُضيل إنما هى بنو عبد مناف .

فقيل له :

— إنه قد ولى ابنك .

فقال أبو سفيان فى رضا :

— وصلته رحم .

وماتت ثورة أبى سفيان .

أُدرِجَ ﷺ فى أكفانه ، وَوُضِعَ على سريره ، وفُتِحَتْ الأبواب للمسلمين ليدخلوا من ناحية المسجد ، ليلقوا على نبيهم الحبيب نظرة الوداع الأخيرة ، فدخلوا أفواجًا أفواجًا وقد غَشِيَ وجوههم الإظلام ، وارتسم عليها الأسى العميق ، وساد المكان صمت رهيب ، وأتم أبو بكر صلاته ثم قال فى صوته الخفيض :

— اللهم إنا نشهد أنه ﷺ قد بلَّغَ ما أُنزِلَ إليه ونصح لأمته وجاهد فى سبيل الله حتى أعزَّ الله دينه وتمت كلمته .

— آمين .

— فاجعلنا إلٰهنا ممن تبع القول الذى أُنزِلَ معه .

— آمين .

ـــ واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به فإنه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما .

ـــ آمين .

ـــ لا نبتغى بالإيمان به بدلا ، ولا نشترى به ثمنًا أبدا .

ـــ آمين .

ودلوه فى حفرته بين النشيج والنحيب ، وأخذ شقران مولاه قطيفة كان رسول الله يلبسها ويفترشها فقذفها إلى القبر وقال :

ـــ والله لا يلبسها أحد بعدك أبدًا .

وقُبِرَ الرسول ، فعاد الناس إلى دورهم مطأطئى الرءوس ، فقد نزل بهم هم ثقيل . ودخل علىّ كرم الله وجهه على فاطمة فقالت له :

ـــ يا علىّ ، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟!

فجرى دمعه غزيرا حتى بل لحيته .

٨

ودت عائشة أن تعلم السر الذى أفضى به النبى إلى فاطمة قبل موته ، فاقتربت من الزهراء وقالت :

ـــ أسألك لما لى عليك من الحق لما أخبرتنى ما سارك ؟

ـــ أما الآن فنعم ! سارنى فى أول الأمر قال لى إن جبريل كان يعارضنى فى القرآن كل سنة مرة وقد عارضنى فى هذا العام مرتين ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى ، فاتقى الله واصبرى فنعم السلف أنا لك ، فبكيت ثم سارنى فقال : أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين ؟

وجاء رجال إلى بيت علىّ فأخذوه وأتوا به إلى أبى بكر وهو يقول :

ـــ أنا عبد الله أخو رسول الله .

ـــ بايع أبا بكر .

ـــ أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى ﷺ وتأخذوه منا أهل البيت غصبا . ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة ، فإذًا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، نحن أولى برسول الله حيًّا وميتًا ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون .

فقال له عمر :

ـــ إنك لست متروكًا حتى تبايع .

ـــ احلب حلبًا لك شطره وشد له اليوم يردده عليك غدا .

فقال أبو عبيدة بن الجراح :

ـــ يابن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالا واستطلاعا ، فسلم لأبى بكر هذا الأمر فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

ـــ الله الله يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم وتدفعون أهله عن مقامه فى الناس وحقه ؛ فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم .

فاعتذر إليه أبو بكر بخوف الفتنة لو أخر ، ثم أشرف على الناس وقال :

ـــ أيها الناس هذا علىّ بن أبى طالب لا بيعة لى فى عنقه وهو بالخيار من أمره ، وأنتم بالخيار جميعًا فى بيعتكم ، فإن رأيتم لها غيرى فأنا أول من يبايعه .

فلما سمع ذلك علىّ النبيل زال ما كان قد داخله ، وصفت نفسه فقال :

ـــ أجل لا نرى غيرك ، امدد يدك .

بايعه هو والنفر الذين كانوا معه .

وصلى أبو بكر وعليّ العصر ثم خرجا من المسجد ، فوجدا الحسن بن عليّ يلعب مع الغلمان ، فاحتمله أبو بكر على كاهله وهو يقول :

ــ هذا بأبى شبه النبى ! ليس شبيهًا بعليّ .

فضحك عليّ فقد كان مما يغبطه أن يكون الحسن شبيها بجده العظيم .

* * *

أراد أزواج النبى أن يبعثن عثمان إلى أبى بكر ليسألنه ميراثهن فقالت عائشة :

ــ أليس قد قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » .

وأتت فاطمة والعباس وأبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ ، كانا يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر ، فقالت فاطمة :

ــ أأنت ورثت رسول الله أم أهله ؟

ــ لا ، بل أهله .

ــ من يرثك إذا مِتَّ ؟

ــ ولدى وأهلى .

ــ فما لنا لا نرث رسول الله ﷺ .

ــ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن النبى لا يورث » ، ولكنى أعول من كان رسول الله يعول وأنفق على من كان رسول الله ينفق .

وسألته فاطمة أن يتنظَّر عليّ على تلك الأرض وذلك السهم فقال أبو بكر :

ــ لست بالذى أقسم من ذلك شيئًا ، ولست تاركا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به فيها إلا عملته ، وإنى أخشى إن تركت أمره أو شيئًا من أمره أن أزيغ .

فغضبت فاطمة ، وساء أبا بكر وعمر غضبها فقال عمر لأبى بكر :

ــ انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها .

فانطلقا جميعًا ، فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليًا فكلماه ، فأدخلهما عليها ، فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط ، فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال :

— يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله أحب إلىّ من قرابتى ، وإنك أحب إلىّ من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى أمت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ ألا إنى سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول : « لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » .

— أرأيتكما أن حدثتكما حديثًا عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به ؟

— نعم .

— نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاى وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى ؟

— نعم سمعناه من رسول الله ﷺ .

— فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ولئن لقيت النبى لأشكونكما إليه .

فقال أبو بكر :

— أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة .

ثم انتحب يبكى وخرج باكيا فاجتمع إليه الناس فقال لهم :

— يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورًا بأهله وتركتمونى وما أنا فيه ، لا حاجة لى فى بيعتكم ، أقيلونى بيعتكم .

— يا خليفة رسول الله إن هذا الأمر لا يستقيم وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين .

— والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ما بت ليلة ولى فى عنق مسلم بيعة بعد ما سمعت ورأيت من فاطمة .

ووقعت الجفوة بين فاطمة وأبى بكر ، فقر علىّ فى داره إكراما لفاطمة ، وجانب من خاصمتهم من أجله .

* * *

ومرضت فاطمة وراح أبناؤها يرقبونها وهى تذوى بقلوب هصرها الألم ، وأحس علىّ حسرة ! فقد حزر أن زوجه الحبيبة لاحقة بأبيها الكريم ، إن أحباءه يمضون مخلفيه للشانئين والحاسدين . وعلم أبو بكر بمرض حبيبة الرسول فأتاها أبو بكر فما يحب أن تموت فاطمة وهى ساخطة عليه ، واستأذن أبو بكر فدخل علىّ على زوجه فقال :

— هذا أبو بكر يستأذن عليك .

فقالت فى صوت خفيض :

— أتحب أن آذن له ؟

فقال علىّ :

— نعم .

فأذنت له ، فدخل عليها يترضاها فقال :

— يا حبيبة رسول الله ، والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ، ومرضاة رسوله ، ومرضاتكم أهل البيت .

وطفق يترضاها حتى رضيت ، فانصرف أبو بكر برضائها مسرورا :

ومضت الزهراء لتلحق بأبيها الكريم هاجرة دنيا الغرور ، وغسَّلَها علىّ عليه السلام وأسماء بنت عميس زوجة الصديق ، وصلى عليها العباس ثم حُمِلَتْ فى سكون الليل إلى البقيع ، وشعر علىّ بنار الحزن تلسع قلبه فلم يقدر على أن يكبت ما به ، فوقف يناجى رسول الله ويرثى زهراءه :

— السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك ، والسريعة اللحاق بك ، قَلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورقَّ عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزٍ ، ولقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك . إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على

هضمها ، فأحفها السؤال واستخبرها الحال ، هذا و لم يطل العهد و لم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن لما وعد الله الصابرين .

٩

أشرف الصديق على الموت ، وتذكر ما جرى فى سقيفة بنى ساعدة غب موت الرسول ، لقد كادت الفتنة تطل بخطمها لولا أن جمع الله كلمة المسلمين ، وتذكر جيوش العرب التى تواجه فارس والروم ، فأشفق على المسلمين الفرقة والاختلاف ، فعزم على أن يستخلف قبل أن يموت ليُجنب المسلمين الاختلاف .

ودعا الصديق عبد الرحمن بن عوف فسأله عن عمر ، فقال :

ــ هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه من غلظة .

ــ ذلك لأنه يرانى رفيقًا ، ولو أُفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه ، ويا أبا محمد قد رمقته فرأيته إذا غضبت على الرجل فى الشىء أرانى الرضا عنه ، وإذا لنت له أرانى الشدة عليه .

وخرج عبد الرحمن ودخل عثمان فسأله خليفة رسول الله عن عمر فقال :

ــ اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله .

وجعل أبو بكر يشاور أصحابه ، وبلغ أمر تلك المشاورة المهاجرين والأنصار فدخلوا على الصديق وقالوا :

ــ نراك استخلفت علينا عمر وقد عرفته وعلمت بوائقه فينا وأنت بين أظهرنا ، فكيف إذا وليتَ عنا وأنت لاق الله عز وجل فسائلك فما أنت قائل ؟

وبان الغضب فى وجه أبى بكر وصاح بأهله :

ــ أجلسونى .

فلما أجلسوه التفت إلى طلحة بن عبيد الله الذى قال تلك المقالة التى أغضبته

وقال :

— أبالله تخوفونني ؟ خاب من تَزوَّد من أمركم بظلم ؟ أقول : اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك .

وخرجوا من عنده ، فخشى الصديق ألا يكون قد جمع كلمة المسلمين على الرضا بخلافة عمر له ، فقضى ليله مؤرقا ، فلما أصبح الصباح دخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال الصدِّيق :

— إنى وليت أمركم خيركم فى نفسي فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه .

— خفف عليك رحمك الله ، فإن هذا يهيضك . إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك ، وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيرا ، ولم تزل صالحا مصلحا .

ورأى أبو بكر أن يخاطب المسلمين ، فأمر أن يجتمع له الناس ، فاجتمعوا ، فأشرف من حجرة بداره على المجتمعين بالمسجد فقال :

— أيها الناس ، قد حضرنى من قضاء الله ما ترون ، وإنه لا بد لكم من رجل يلى أمركم ويصلى بكم ويقاتل عدوكم ويقسم فيأكم ، فإن شئتم اجتمعتم فأتمرتم ثم وليتم عليكم من أردتم ، وإن شئتم اجتهدت لكم رأيى ، والله الذى لا إلٰه إلا هو لا آلوكم فى نفسى خيرا .

فبكى فلم يتمكن الناس من أن يحبسوا دموعهم فسالت عبراتهم وقالوا :

— يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا ، فاختر لنا .

— سأجتهد لكم رأيى وأختار لكم خيركم إن شاء الله .

ودعا عثمان بن عفان فقال :

— اكتب عهدى .

فكتب عثمان وأملى أبو بكر .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة آخر عهده فى

الدنيا نازحا عنها . وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطَّاب فإن تروه عدل فيكم فذلك ظنى به ورجائى فيه ، وإن بدل وغير فالخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ثم أرسل إلى عمر فقال :

ـــ يا عمر ، أحبك محب وأبغضك مبغض ، وقديما يحب الشر ويبغض الخير .

وذكر له أنه استخلفه فقال عمر :

ـــ لا حاجة لى بها .

ـــ لكن بها إليك حاجة ، والله ما حَبَوْتُكَ بها ولكن حَبَوْتُها بك ... خُذ هذا الكتاب واخرج به إلى الناس وأخبرهم عن عهدى وسلهم عن سمعهم وطاعتهم .

فخرج عمر بالكتاب مختوما وأعلمهم أنه عهد خليفة رسول الله فقالوا :

ـــ سمعًا وطاعة .

وصاح صائح فى المسجد :

ـــ ما فى الكتاب يا أبا حفص ؟

ـــ لا أدرى ولكنى أول من سمع وأطاع .

فصاح الصائح :

ـــ ولكنى والله أدرى ما فيه : أمَّرته عام أول وأمَّرك العام .

ففض عمر الكتاب و لم يلتفت إلى من صاح ، وأخذ يقرأ على الناس عهد خليفة رسول الله .

* * *

والتفت الصديق إلى عائشة وقال :

ـــ فى كَمْ كُفِّن رسول الله ﷺ .

ـــ فى ثلاثة أثواب .

ـــ اغسلوا ثوبىّ هذين وابتاعوا لى ثوبًا آخر .

ـــ يا أبه إنا موسرون .

— أى بنية ، الحى أحق بالجديد من الميت ، إنما هى للمهلة والصديد . وأخذ يعالج سكرات الموت ، وفتح عينيه وقال :

— يا عائشة ، ادفنونى بجوار رسول الله .

وراح يجود بأنفاسه وغمغم :

— ربى ، توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين .

ومات أبو بكر فارتجت المدينة لوفاته ، وأقبل علىّ العظيم ووقف على بابه يرثيه دون أن يوغر صدره أن خليفة رسول الله الذى يبكيه كان السبب فى انفلات الأمر من يده مرتين ، قال علىّ النبيل :

— رحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أوفى القوم إسلامًا وأخلصهم إيمانًا ، وأشدهم يقينا وأعظمهم عناء ، وأحفظهم على رسول الله وأحدبهم على الإسلام وأحناهم على أهله ، وأشبههم برسول الله خَلْقًا وخُلُقًا ، وهديا وسمتا ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيرا . صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صديقا ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ ؛ تريد محمدًا ويريدك . وكنت والله للإسلام حصنًا ، وعلى الكافرين عذابا ، لم تفلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن . كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كما قال رسول الله : ضعيفا فى بدنك ، قويا فى الله ، متواضعا فى نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض ، كبيرا عند المؤمنين . ولم يكن لأحد عندك مطمع ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك .

* * *

أخذ عمر وبعض أصحابه يتذاكرون الشعر ، فقال بعضهم فلان أشعر ، وقال بعضهم بل فلان أشعر ، وأقبل عبد الله بن عباس ، فقال عمر :

— قد جاءكم أعلم الناس بها .

والتفت إلى ابن عباس وقال :

ــ من شاعر الشعراء يابن عباس ؟

ــ زهير بن أبى سلمى :

ــ هلم من شعره ما نستدل به على ما ذكرت .

ــ امتدح قوما من بنى عبد الله بن غطفان فقال :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد من ولدوا
إنس إذا أمنوا ، جن إذا فزعوا ... مرزءون بهاليل إذا حشدوا
محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ماله حسدوا

فقال عمر :

ــ أحسن ، وما أعلم أحدا أولى بهذا الشعر من هذا الحى من بنى هاشم لفضل رسول الله ﷺ وقرابتهم منه .

ــ وفقت يا أمير المؤمنين و لم تزل موفقا .

ــ يابن عباس ، أتدرى ما منع قومكم منهم بعد محمد ؟

فكره ابن عباس أن يجيبه ، فقال :

ــ إن لم أكن أدرى فأمير المؤمنين يدرى .

ــ كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحا بجحا ، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت .

ــ إن تأذن لى فى الكلام وتمط عنى الغضب تكلمت .

ــ تكلم يابن عباس .

ــ أما قولك يا أمير المؤمنين اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت ، فلو أن قريشا اختارت لأنفسها حيث اختار الله عز وجل لكان لها الصواب بيدها غير مردود ولا محسود ، وأما قولك إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوة والخلافة فإن الله عز وجل وصف قوما بالكراهية فقال ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط

أعمالهم ﴾ .

ـــ هيهات والله يابن عباس ، قد كانت تبلغنى عنك أشياء كنت أكره أن أفرك عنها فتزيل منزلتك منى .

ـــ وما هى يا أمير المؤمنين ؟ فإن كانت حقا ، فما ينبغى أن تزيل منزلتى منك ؛ وإن كانت باطلا ، فمثلى أماط الباطل عن نفسه .

ـــ بلغنى أنك تقول إنما صرفوها عنا حسدا وظلما .

ـــ أما قولك يا أمير المؤمنين ظلما فقد تبين للجاهل والحليم ، وأما قولك حسدًا ، فإن إبليس حسد آدم ، فنحن ولده المحسُودون .

ـــ هيهات ، أبت والله قلوبكم يا بنى هاشم إلا حسدا ما يحول ، وضغنا وغشا ما يزول .

ـــ مهلا يا أمير المؤمنين ، لا تُصيب قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا بالحسد والغش ، فإن قلب رسول الله ﷺ من قلوب بنى هاشم .

ـــ إليك عنى يابن عباس .

ـــ أفعل .

فلما ذهب ابن عباس ليقوم واستحيا عمر منه فقال :

ـــ يابن عباس ، مكانك فوالله إنى لراع لحقك محب لِمَا سرك .

ـــ يا أمير المؤمنين إن لى عليك حقا وعلى كل مسلم ، فمن حفظه فحظه أصاب ومن أضاعه فحظه أخطأ .

١٠

بعث أمير المؤمنين عمر إلى عائشة يطلب تزويجه من أم كلثوم بنت الصدِّيق ، فطلبت من السفير أن يمهلها حتى تستطلع رأى الصغيرة ، ودخلت أم كلثوم على عائشة فأجلستها بجوارها وقالت :

ـــ أرسل أمير المؤمنين فيك إلىّ ، فما ترين ؟

فأطرقت أم كلثوم وقد توردت وجنتاها وعقد لسانها و لم يظهر فى وجهها الارتياح فقالت لها عائشة :

ـــ الأمر إليك .

وذهب روع أم كلثوم وانطلقت عقدة لسانها فقالت فى حياء :

ـــ لا حاجة لى فيه .

ـــ ترغبين عن أمير المؤمنين ؟!

ـــ إنه خشن العيش ، شديد على النساء .

وراحت عائشة تفكر فيما تفعل ، وكيف تبلغ هذا الرفض إلى أمير المؤمنين الذى يجلهم بعد موت الصدِّيق ، وجعلت تستعرض الدهاة فى مخيلتها لتختار من بينهم أكيسهم ليقوم بهذه السفارة البغيضة دون أن يحرجها ودون أن يجرح كبرياء أمير المؤمنين ، فلم تجد إلا عمرو بن العاص كفئا لها ، فبعثت إليه . وجاء عمرو فقالت له أم المؤمنين :

ـــ خطب أمير المؤمنين أم كلثوم ولكنها ترغب عنه .

وسكتت عائشة ، وفهم عمرو ما ترمى إليه فقال لها :

ـــ أكفيك .

وخرج إلى أمير المؤمنين ، وطفق يفكر فى الطريق ، و لم يطل تفكيره فقد وجد

المخرج ، فجد فى السير حتى إذا ما جاء عمر قال له :

— يا أمير المؤمنين ، بلغنى خبر أُعيذك بالله منه .

— وما هو ؟

— خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ؟

— نعم . أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى ؟

— لا واحدة ، ولكنها حدثة نشأت تحت كنف، أم المؤمنين فى لين ورفق وفيك غلظة ، ونحن نهابك ولا نقدر نرد عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شيء فسطوت بها ، كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك .

— فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟

— أنا لك بها ، وأدُلك على خير منها .

— فمن ؟

— أم كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله ﷺ .

وانصرف عمرو وترك عمر لفكره ، إنه تمنى فى يوم من الأيام أن يتزوج من فاطمة الزهراء ليكون له عقبه من رسول الله ﷺ ، ولكن رسول الله رده فى رقة لأنه كان قد ادخرها لعلىّ ، وها هى الفرصة تلوح له ليرتبط بابنة الزهراء فيعلق منها بنسب من رسول الله ﷺ ، وأقبل على أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب وقال له :

— ذكرت إليك أم كلثوم يا أبا الحسن .

وصمت علىّ و لم يحر جوابا ، فأعاد عمر سؤاله فقال علىّ :

— يا أمير المؤمنين ، إنها صبية .

فقال عمر فى عتاب :

— إنك والله ما بك ذلك ، ولكن قد علمنا ما بك .

فلم يجد علىّ بدًا من أن يصارحه بما عزم عليه .

— إنما حبست بناتى على بنى جعفر .

وخشى عمر أن ينهار حلمه اللذيذ فقال :

— أنكحنيها يا عليّ ، فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما أرصد .

ورأى عليّ إلحاف أمير المؤمنين فغلبه خجله ، فما كان أمامه إلا أن يوافق على ما طلبه عمر ، وامتلأت نفس عمر نشوة ، وبان البشر فى وجهه ، وأحس خفة فأغذَّ فى السير ليدخل المسجد يزف البشرى إلى أصحابه .

والتفت عمر إلى من جلس إليه من الناس وقال فى سرور :

— رفئونى ، رفئونى .

— بمن يا أمير المؤمنين ؟

— بابنة عليّ بن أبى طالب .

وأقبلوا عليه يهنئونه ، وكأنما شاء أن يعبِّر لهم عن دواعى سروره بهذا الرِباط الجديد فقال :

— إن النبى ﷺ قال : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى .

وهرع عمر إلى بيته ينتظر وفود أم كلثوم بنت عليّ ، فقد اتفق مع أبيها على أن يبعث بها إليه ليراها ، واستأذنت بنت عليّ فى الدخول على أمير المؤمنين فأُذِنَ لها فدخلت وهى تحمل بُردًا مطويا وما إن بلغت عمر حتى قالت ما لقَّنها أبوها :

— أرسلنى أبى يقرئك السلام ، ويقول : إن رضيْت البُرد فأمسكه ، وإن سخطته فرده .

فنظر عمر إليها وقال :

— بارك الله فيك وفى أبيك ، قد رضينا .

و لم يمد عمر يده إلى البُرد ، ولكنه كان يمد بصره إلى الصبية الواقفة أمامه وقد بان الذهول فى وجهها ، فما كانت تفهم ما يجرى أمامها ، و لم تجد إلا الانصراف فقفلت عائدة إلى الدار ، فسألها أبوها عما فعلت ، فقالت فى إنكار :

— ما نشر البُرد يا أبت ولا نظر إلا إلىّ :

* * *

أرسل عمر إلى ابن عباس فقال له :

— يابن عباس ، إن عامل حمص هلك ، وكان من أهل الخير ، وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم ، وفى نفسى منك شيء لم أره منك ، وأعيانى ذلك ، فما رأيك فى العمل ؟

— لن أعمل حتى تخبرنى بالذى فى نفسك .

— وما تريد إلى ذلك ؟

— أريده ، فإن كان شيء أخاف منه على نفسى خشيت منه عليها الذى خشيت ، وإن كنت بريئا من مثله علمت أنى لست من أهله ، فقبلت عملك هنالك ، فإنى قلما رأيت أو ظننت شيئا إلا عاينته .

— يابن عباس ، إنى خشيت أن يأتى على الذى هو آت وأنت فى عملك فتقول : هلم إلينا ، ولا هلم إليكم دون غيركم ، إنى رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وتركك ، والله لقد رأيت من ذلك ، فلمَ تراه فعل ذلك ؟ والله ما أدرى أضن بكم من العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه العقاب ، ولا بد من عتاب فقد فرغت لك ؛ فما رأيك ؟

— أرى لا أعمل لك .

— ولِمَ ؟

— إن عملت لك وفى نفسك ما فيها لم أبرح قذى فى عينك .

— فأشر علىّ .

— إنى أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك .

* * *

قوض عمر مُلك فارس ، وطفق قواده يجدون فى أثر ملكهم يزدجرد ،فكان كلما نزل بمدينة حاصروها وفتحوها فلا يسعه إلا أن يفر وقد حمل أهل بيته ونفائسه : واستمرت المطاردة العنيفة ، واستمرت المدن تسقط فى أيدى العرب مدينة إثر مدينة ، فضاقت الأرض فى وجه يزدجرد ، وحدث أن دهم الغزاة إحدى

مدنه و لم يأخذ أهبته للفرار ، فكاد أن يقع فى الأسر ، فلما وجد الفاتحين قاب قوسين منه أو أدنى ، فر ناجيا بجلده ، هائما على وجهه مخلفا وراءه أعز ما فى ملكه ، فلذات أكباده الثلاث فوقعن فى أيدى العرب سبايا ، وحُملن إلى القائد فيما حُمل إليه من نفائس وغنائم وسبى ، فأخرجن فى الخُمس الذى بعث به إلى المدينة ليتصرف فيه أمير المؤمنين .

ووردت نفائس كسرى مدينة الرسول ، فقسمت فى الناس ، وأمر عمر ببيع السبايا ، وانتظرت بنات يزدجرد ما يُصيبهن وقد ارتسم الألم فى وجوههن، وبان الأسى فى عيونهن وخيمت على وجوههن الوضاءة سحائب من الحزن فقد جار الزمن عليهن صغيرات ، وعبس لهن وعبث بهن وما دار بخلدهن قط أن يعبس أو يعبث ، فما كن يحسبن الدنيا إلا باسمة مشرقة ، مقبلة غير مدبرة ، فإذا بها عنهن كاشحة معرضة ، ولسلطانهن طاوية ، ولحريتهن سالبة ، لقد ضاع كل شىء ، و لم يبق لهن إلا شبابهن ونضارتهن ، وتلفتن حولهن بعيون زائغة ملأتها العبرات ، فأين ما هن فيه مما كن فيه ، ذل بعد عز ، وخوف بعد أمن ، وانخفاض بعد رفعة ، وفقر بعد غِنى ، ورِق بعد سيادة وسلطان .

ونظرت كل إلى أختها وقد سالت الدموع وتألمت النفوس ، فإنهن الآن مجتمعات ، وعما قريب مفترقات ، لا يعلمن إلى أين يُحملن ، ولا إلى من يُدفع بهن ، إلى كريم يرحمهن ويواسى الجراح ، أم إلى لئيم لا يقيل عثرتهن ويسقيهن دواما كأس الهوان ؟

و لم يشأ الزمن أن يستمر فى قسوته ، بل شاء أن يجبر هذه القلوب التى تصدعت فما نظر ابن أبى طالب إليهن حتى رَقَّ لهن قلبه ، وتحركت عوامل الشفقة فى نفسه الكبيرة ، وترقب ما يرى فيهن عمر ، فأمر عمر ببيعهن فالتفت إليه وقال :

— إن بنات الملوك يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة .

فصوب عمر بصره إليه وقال :

— وكيف الطريق إلى العمل معهن ؟

— يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن .

فوافق أمير المؤمنين ، وقومن فدفع عليّ قيمتهن ، وأخذ يفكر فى أكفاء لهن . فرأى أن يدفع بهن إلى أحب الناس إليه ، فدفع واحدة إلى عبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لربيبه محمد بن أبى بكر الصدّيق ، فأولد عبد الله أمته ولده سالما ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، وأخذت عجلة الزمن فى الدوران ليشب سالم وزين العابدين والقاسم أتقى أهل زمانهم .

* * *

خرج البريد من عند عمر لينطلق إلى ملك الروم ، فبعثت زوجه أم كلثوم بنت عليّ إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد ، وقدم البريد الهدية إلى امرأة هرقل فجمعت نساءها وقالت :

— هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم .

ثم أهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر ، وانتهى البريد إلى عمر وقدم إليه العقد فأمر بإمساكه ودعا : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فصلى بهم ركعتين وقال :

— إنه لا خير فى أمر أبرم عن غير شورى فى أمورى .. قولوا فى هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم .

— هو لها بالذى لها ، وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ، ولا تحت يدك فتتقيك .

وقال آخرون :

— لقد كنا نهدى الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب ثمنا .

فلم يعجب ذلك عمر فقال :

— ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم .

وأمر برد الهدية إلى بيت المال ، ورد على أم كلثوم بقدر نفقتها .

١١

عمر بن الخطّاب يطوف فى السوق ، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المُغيرة بن شعبة ، فقال :

ــ يا أمير المؤمنين ، أعدنى على المغيرة بن شعبة فإن على خراجا كثيرا .

ــ وكم خراجك ؟

ــ درهمان فى كل يوم .

ــ وإيش صناعتك ؟

ــ نجار نقاش حداد .

ــ فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت .

ــ نعم .

ــ فاعمل لى رحى .

ــ لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب .

وانصرف أبو لؤلؤة .

فقال عمر : لقد توعدنى العبد آنفا .

وراح عمر يصرف أمور المسلمين ، ومرت أيام نسى عمر بعدها حديث أبى لؤلؤة ، وارتفع صوت المؤذن يدعو الناس لصلاة الصبح ، فخرج عمر من داره وانطلق إلى المسجد لا يلوى على شيء ، وتقدم الصفوف ، فعرض له أبو لؤلؤة فطعنه ثلاث طعنات ، فصاح عمر :

ــ دونكم الكلب ، فإنه قد قتلنى .

وماج الناس وخرج رجال وصاح بعضهم ببعض دونكم الكلب ، فشد عليه

رجل من خلفه فاحتضنه ، وقال قائل :

ــ الصلاة عباد الله ، طلعت الشمس .

فقال عمر :

ــ أفى الناس عبد الرحمن بن عوف ؟

ــ نعم يا أمير المؤمنين هوذا .

ــ تقدم .

فصلى عبد الرحمن بأقصر سورتين فى القرآن ثم هرع الناس إلى عمر فقال :

ــ يابن عباس ، اخرج فناد فى الناس أعن ملأ ورضى منهم كان هذا ؟

فخرج فنادى فقالوا :

ــ معاذ الله ، ما علمنا وما اطلعنا .

واحتمل عمر فأُدخل إلى داره ، ودخل الناس عليه يذكرون فضله فقال :

ــ إن من غررتموه لمغرور ، إنى والله وددت أن أخرج منها كفافا ، كما دخلت فيها ، والله لو كان لى اليوم ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع .

ــ يا أمير المؤمنين ، لا بأس عليك .

ــ إن يكن القتل بأسا فقد قتلنى أبو لؤلؤة .

ــ فإن يكن ذلك فجزاك الله عنا خيرا .

ــ لا أراكم تغبطونى بها ، فوالذى نفس عمر بيده ما أدرى على ما أهجم ، ولوددت أنى نجوت منها كفافًا ، لا لى ولا على ، فيكون خيرها بشرها ويسلم لى ما كان قبلها من الخير .

ودخل علىّ بن أبى طالب فقال عمر :

ــ يا علىّ ، أعن ملأ منكم ورضى كان هذا ؟

ــ ما كان من ملأ منا ولا رضى ، ولوددنا أن الله زاد من أعمارنا فى عمرك .

وكان رأسه فى حجر ابنه عبد الله فقال له :

ــ ضع خدى بالأرض .

فلم يفعل ، فلحظه وقال :

— ضع خدى بالأرض لا أم لك .

فوضع خده بالأرض فقال :

— الويل لعمر ولأم عمر إن لم يغفر الله لعمر .

ودخل المهاجرون على عمر فقالوا :

— استخلف علينا .

— والله لا أحملكم حيا وميتا ، إن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى ، وإن أدع فقد ترك من هو خير منى .

— جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين .

— ما شاء الله راغبا ، وددت أن أنجو منها لا لى ولا على .

وأحس بالموت فقال لابنه :

— اذهب إلى عائشة وأقرئها منى السلام ، واستأذنها أن أقبر فى بيتها مع رسول الله ومع أبى بكر .

فأتاها عبد الله بن عمر فأعلمها فقالت :

— نعم وكرامة . يابنى أبلغ عمر سلامى وقل له لا تدع أمة محمد بلا راع . استخلف فيهم ولا تدعهم بعدك هملا فإنى أخشى عليهم الفتنة .

فأتى عبد الله فأعلمه فقال :

— ومن تأمرنى أن أستخلف ، لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقيا استخلفته ووليته ، فإذا قدمت على ربى فسألنى وقال لى : من وليت على أمة محمد ؟ قلت : أى رب ، سمعت عبدك ونبيك يقول : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح ، ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته فإذا قدمت إلى ربى فسألنى من وليت على أمة محمد ؟ قلت : أى رب ، سمعت عبدك ونبيك يقول : إن معاذ بن جبل يأتى بين يدى العلماء يوم القيامة ، ولو أدركت خالد بن الوليد وليته فإذا قدمت على ربى فسألنى من وليت على أمة محمد ؟ قلت : أى رب ، سمعت عبدك

ونبيك يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه على المشركين ، ولكنى سأستخلف النفر الذين توفى عنهم رسول الله وهو عنهم راض .

وبعث إلى عبد الرحمن بن عوف وقال له :

— ادعُ لى عليًّا وطلحة والزبير وسعدا .

جاء علىّ وعثمان وسعد بن أبى وقّاص وعبد الرحمن بن عوف و لم يأت طلحة فقد كان غائبا فقال عمر :

— يا معشر المهاجرين الأولين ، إنى نظرت فى أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقا و لا نفاقا ، فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم ، تشاوروا ثلاثة أيام ، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك ، وإلا فأعزم عليكم بالله لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم ، فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل وليُصَلِّ بكم صهيب هذه الثلاثة أيام التى تتشاورون فيها ، فإنه رجل من الموالى لا ينازعكم أمركم ، وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء ، وأحضروا معكم الحسن بن علىّ وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة ، وأرجو لكم البركة فى حضورهما ، وليس من أمركم شيء ، ويحضر ابنى مستشارا وليس له من الأمر شيء .

وغشى عليه حتى ظنوا أنه قُضى ، فجعلوا ينادونه ولا يفيق ، ومرت مدة ثم فتح عينيه وقال :

— لقد قَوَّمتُ لكم الطريق فلا تعرجوه .

ثم التفت إلى علىّ بن أبى طالب ، فقال :

— لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وقرابتك وشرفك من رسول الله وما أتاك من العلم والفقه والدين فيستخلفونك ، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله يا علىّ فيه ، ولا تحمل أحدًا من بنى هاشم على رقاب الناس .

ثم التفت إلى عثمان فقال :

— يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك وسابقتك فيستخلفونك ، فإن وليت هذا الأمر فلا تحملن أحدًا من بنى أمية على

رقاب الناس .

وجاء العباس ليرى ما استقر عليه رأى الخليفة الجريح ، فقابل عليًّا وقد بان فى وجهه همٌّ وضيق فقال له :

ـــ فما العهد يا أبا الحسن ؟

ـــ جعلها فى جماعة زعم أنى أحدهم .

فأطرق العباس قليلا ثم قال :

ـــ يابن أخى ، لا تدخل معهم وارفع نفسك عنهم .

فقال علىّ فى رفق .

ـــ إنى يا عم أكره الخلاف .

ـــ إذن ترى ما تكره .

ومات عمر وقُبر ، ففرغ الناس لأمر دنياهم ، ويمم رهط الشورى نحو حجرة عائشة فقابل علىّ عمه العباس فقال له :

ـــ سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن ، فلو كان الآخران معى لم ينفعانى ، بله إنى لا أرجو إلا إحدهما .

فقال له العباس :

ـــ لم أدفعك فى شىء إلا رجعت إلى مستأخرا بما أكره ، أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت ، وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، احفظ عنى واحدة ، كلما عرضوا عليك القول فقل ، لا ، إلا أن يولوك .

واجتمعوا فتشاوروا ثلاثة أيام فلم يبرموا فتيلا ، فلما كان فى اليوم الثالث قال لهم عبد الرحمن بن عوف :

ـــ أتدرون أى يوم هذا !؟ يوم عزم عليكم صاحبكم أن لا تتفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحدكم .

ـــ أجل .

ـــ فإنى عارض عليكم أمرًا .

ـــ وما تعرض ؟

ـــ أن تولونى أمركم وأهب لكم نصيبى فيها وأختار لكم من أنفسكم .

فقال عثمان :

ـــ أنا أول من رضى ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أمين فى الأرض أمين فى السماء » .

فقال الزبير وسعد :

ـــ قد رضينا .

وظل علىّ ساكنا لا ينبس وتذكر قول العباس له : كلما عرضوا عليك القول قل لا إلا أن يولوك ، وهمَّ أن يرفض ، لكن صوت عبد الرحمن رن فى أذنه :

ـــ ما تقول يا أبا الحسن ؟

فغلب عليه حياؤه فقال :

ـــ أعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ، ولا تأل الأمة .

فقال عبد الرحمن :

ـــ أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين .

فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله ، وانصرف الجميع وقد ترك الأمر بين يدى عبد الرحمن بن عوف ، وأتى عليًّا على انفراد وقال له :

ـــ إنك تقول إنى أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك فى الدين ، و لم تبعد ؛ ولكن أرأيت لو صُرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟

ـــ عثمان .

وانصرف من عند علىّ وانطلق إلى عثمان وخلا به وقال له :

— تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، لى سابقة وفضل و لم تبعد . فلم يصرف هذا الأمر عنى ؟ ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟

— علىّ .

وقابل علىّ سعدًا وكان معه الحسين فقال لسعد :

— اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ، أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ﷺ ، وبرحم عمى حمزة منك ألا تكون لعبد الرحمن لعثمان ظهيرًا علىّ ، فإنى أدلى بما لا يدلى به عثمان .

راح عبد الرحمن يدور على أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس ، يشاورهم ويسألهم عمن ينتخبونه خليفة لهم ، وبلغ الجهد من عبد الرحمن منتهاه ، إنه لم يذق كثير غمض ، فأرسل فى طلب الزبير وسعد ، فوافاه الزبير فى المسجد ، فسأله للمرة الأخيرة ، فقال الزبير :

— نصيبى لعلىّ .

وأقبل سعد فى سكون الليل فقال له عبد الرحمن :

— أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لى فأختار .

— إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلىّ . أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا وارفع رءوسنا .

— يا أبا إسحاق ، إنى قد خلعت نفسى منها على أن أختار ، لا يقوم مقام أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس .

— فإنى أخاف أن يكون الضعف قد أدركك ، فامض لرأيك ، فقد عرفت عهد عمر .

وأصبح الصباح وخرج الناس إلى المسجد زرافات زرافات ليروا ما قرَّ عليه رأى رهط الشورى . وصلى الناس الصبح ، ثم جمع عبد الرحمن الرهط وأرسل إلى أمراء

الأجناد . وتوافدت جموع الناس حتى التج المسجد بأهله ، ووقف عبد الرحمن فسكت الجمع وأعاروه سمعهم ، فقال :

— أيها الناس ، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم .

فصاح صائح :

— إنا نراك لها أهلا .

فقال عبد الرحمن :

— أشيروا علىّ بغير هذا .

فقال عمار بن ياسر :

— إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليًا .

فصاح المقداد بن الأسود :

— صدق عمار ، إن بايعت عليًا سمعنا وأطعنا .

فصاح عبد الله بن أبى سرح :

— إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان .

فصاح آخر مؤمنًا على هذا القول :

— إن بايعت عثمان قلنا : سمعنا وأطعنا .

فثار عمَّار وشتم ابن أبى سرح وقال فى سخرية :

— متى كنت تنصح المسلمين !؟

وأخذ بنو هاشم يعددون مناقبهم ، وأخذ بنو أميَّة يذكرون فضلهم ، وصاح عمَّار :

— أيها الناس، إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟

فقال أحد أنصار بنى أميَّة :

— لقد عدوت طورك يابن سُميَّة ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ؟

فاقترب سعد من عبد الرحمن وقال له :

— يا عبد الرحمن ، افرغ قبل أن يفتتن الناس .

فأشار عبد الرحمن للناس فلاذوا بالصمت فقال :

— إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا .

ودعا عليًّا فقال :

— عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟

— أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى .

ودعا عثمان وقال له :

— عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟

— نعم .

— إنى أبايعك أميرًا للمؤمنين .

فثار أنصار علىّ ، وأظهروا استياءهم من ذلك القرار ، وقال علىّ لعبد الرحمن :

— حبَوْته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون .

وانجفل الناس إلى عثمان وأخذوا يبايعونه ، وتقدم سعد وبايعه ، ثم تقدم الزبير ، وتلكأ علىّ وخشى عبد الرحمن مغبة ذلك التلكؤ ، فأسرع إليه قبل أن تندلع نار الفتنة وقرأ :

﴿ من نكثَ فإنّما ينكُثُ على نفسِه ، ومَنْ أوْفَى بِما عاهَدَ عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا ﴾ .

فراح علىّ يشق الناس حتى بلغ عثمان الجالس على الدرجة الثانيةمن المنبر وهو يقول :

— خدعة وأيما خدعة .

ثم تقدم منه وبايعه ، فاطمأنت القلوب ، فلن يشق أحد عصا المسلمين ، وبايع الناس وانصرف عثمان وعلّى وسعد وعبد الرحمن والزبير إلى بيت فاطمة ابنة قيس .
فقام المُغيرة بن شعبة خطيبًا فقال :

— يا أبا محمد ، الحمد لله الذى وفقك ، والله ما كان لها غير عثمان .

فقال عبد الرحمن :

— يابن الدباغ ، ما أنت وذاك ، والله ما كنت أبايع أحدًا إلا قلت فيه هذه المقالة .

١٢

سمع عبيد الله بن عمر من عبد الرحمن بن أبى بكر أنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة يدخلون فى مكان يتشاورون وبينهم خنجر له رأسان ومقبضة فى وسطه .
فلما مات عمر وقُبِضَ على أبى لؤلؤة ، ثارت ثائرة عبيد الله ، فجرد سيفه وانطلق إلى الهرمزان فقتله ، وإلى جفينة فقتله ، وإلى بنت صغيرة لأبى لؤلؤة فقتلها ، وجعل يصيح :

— والله لأقتلنَ رجالا ممن شرك فى دم أبى .

وتفرَّق الناس عنه مفزوعين ، وبلغ الخبر سعد بن أبى وقَّاص فخرج إليه ، وانقضَ عليه ونزع منه السيف ، ولكنه أخذ يقاوم ويثور ويتوعد ، فجذب سعد شعره حتى أضجعه إلى الأرض ، ثم اقتاده إلى داره وحبسه فيها ، وانتظر حتى يفرغ الناس من انتخاب خليفتهم .

وبويع لعثمان وجلس للناس ، فأخرج سعد عبيد الله وجاء به إليه . فالتفت عثمان إلى من عنده وقال :

— أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق .

فقال على الذى يعلم أن النفس بالنفس :

ـــ أرى أن تقتله فما من العدل تركه .

فقال بعض المهاجرين مستنكرين :

ـــ أيُقتل أبوه بالأمس ويُقتل هو اليوم ؟

فقال عمرو بن العاص :

ـــ يا أمير المؤمنين قد برأك الله من ذلك ، قضية لم تكن فى أيامك فدعها عنك .

فودى عثمان أولئك القتلى من ماله ، وخلى سبيل عبيد الله ، فلم يعجب ذلك عليًّا ، وأوغر صدر عبيد الله على علىّ ؛ فراح يتربص به الدوائر .

وساء ترك عبيد الله خلقًا كثيرا ، ففى يوم تقابل زياد بن لبيد وعبيد الله بن عمر ، فقال زياد :

ألا يا عبيد الله ما لك مهرب ... ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر

أصبت دمًا والله فى غير حله ... حرامًا وقتل الهرمزان له خطر

على غير شىء غير أن قال قائل ... أتتهمون الهرمزان على عمر

فقال سفيه والحوادث جمة ... نعم أتهمه قد أشار وقد أمر

وكان سلاح العبد فى جوف بيته ... يقلبها والأمر بالأمر يعتبر

وكان زياد يقول له ذلك كلما رآه فشكاه إلى عثمان ، فاستدعى عثمان زيادا لينهاه فقال زياد :

أبا عمرو عبيد الله رهن ... فلا تشكك بقتل الهرمزان

فإنك إن غفرت الجزم عنه ... وأسباب الخطا فرسا رهان

أتعفو إذ عفوت بغير حق ... فمالك بالذى يخلى يدان

* * *

دخل عثمان داره ومعه بنو أميَّة مغتبطين ، وكان أكثرهم اغتباطًا شيخ الأمويين فقد أصبح الأمر فيهم ، ولم يستطع أبو سفيان أن يكتم غبطته ، فقال هامسًا :

ـــ أفيكم أحد من غيركم ؟

— لا .

— يا بني أميَّة ، تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة .

فانتهره عثمان ، ولم يكتم الأمويون هذا الكلام بل خرج إلى المهاجرين والأنصار ، فغضب عمَّار فقام فى المسجد فقال :

— يا معشر قريش ، أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ها هنا مرة وها هنا مرة ، فما أنا بآمن من أن ينتزعه الله فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله .

وقام المقداد فقال :

— ما رأيت مثل ما أوذى به أهل هذا البيت بعد نبيهم .

فقال له عبد الرحمن بن عوف :

— وما أنت وذاك يا مقداد بن عمرو ؟

— إنى والله لأحبهم بحب رسول الله ﷺ ، وإن الحق معهم وفيهم ؛ يا عبد الرحمن أعجب من قريش وأنت تطولهم على الناس ، أهل هذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله ﷺ بعده من أيديهم ، أم وأيم الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصارًا لقاتلتهم كقتالى إياهم مع رسول الله ﷺ يوم بدر .

* * *

دخل أبو سفيان على عثمان ، فتذكر أمير المؤمنين أن عمر استعمل عتبة بن أبى سفيان على كنانة فقدم معه بمال فقال له عمر : ما هذا يا عتبة ؟، قال : مال خرجت به معى واتجرت فيه ، فقال له عمر مغضبًا : ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه ؟! فصيَّره فى بيت المال ، وشاء عثمان أن يصل أهله على عادته ، فقال لأبى سفيان :

— إن طلبت ما أخذ عمر من عتبة رددته عليه .

فقال شيخ الأمويين ناصحًا :

ـــ إنك إن خالفت صاحبك قبلك ساء رأى الناس فيك . إياك أن ترد على من كان قبلك فيرد عليك من بعدك .

كانت نصيحة خالصة ، لو أن عثمان اتبعها لوفر على نفسه كثيرًا من المعتبة، ولكن طبعه غلبه فقد كان رقيقًا ، به ضعف لبنى أميَّة فأعطى مروان بن الحكم خُمس خراج إفريقية ، والحرث بن العاص ثلثمائة ألف درهم ، وزيد بن ثابت مائة ألف درهم ، فتغيرت نفوس الناس وأخذوا يعيبون على عثمان .

وأسلم عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديًا من أهل صنعاء ، وكانت أمه سوداء ، فكان يُطلق عليه ابن السوداء ، وراح ابن السوداء منذ اللحظة الأولى يبذر بذور الشقاق بين المسلمين ، ويحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز وراح يوسوس فى صدور الناس ، يحاول أن يغيرهم على أميرهم عثمان ، ولكنه لم يجد النفوس مهيأة لدعوته فورد البصرة ، ونفث فيها بعض سمومه ، ثم عرج على الكوفة وبث آراءه ، وهبط إلى الشام وقابل أبا ذر الغفارى ، وأوغر صدره على معاوية ، فهب أبو ذر ليناوئه ، وبلغ معاوية أن ابن السوداء هو الذى غيَّر عليه أبا ذر فأخرجه من الشام . وأقلق أبو ذر معاوية فكتب لأمير المؤمنين : « إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ، وقد ضيَّق على وأُعضل بى ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله » . فرد عليه عثمان : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها و لم تبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ الجرح وجهز أبا ذر إلىّ وابعث به وكفكف الناس ونفسك ما استطعت فإنما تمسك ما استمسكت » .

وهبط ابن السوداء مصر ، وجعل يحدث الناس حديث دينهم فالتف الناس حوله ، وراح يحدث الناس :

ـــ لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمدًا يرجع ، وقد قال الله عز وجل ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ؟.

فنظر الناس إليه نظرة استفهام مشوبة بإعجاب ، فما كانوا يفقهون هذا قبل

الآن ، وما كانوا يدرون شيئًا عن الرجعة التى حدثهم عنها ابن سبأ ، ثم جعلوا يتكلمون فيها حتى قبلوا ذلك عنه فاطمأن إلى بذرة الشقاق الأولى التى بذرها بعناية ومهارة .

وتقابل ابن سبأ ومحمد بن أبى بكر فى مصر ، وكان ابن السوداء يعلم هوى محمد وميله إلى أهل البيت ، فاشترك معه فى الدعوة لعلىّ وأخذ يقول :

— إنه كان ألف نبى ولكل نبى وصى ، وكان علىّ وصى محمد ، ومحمد خاتم الأنبياء ، وعلىّ خاتم الأوصياء .

وتعاون محمد بن أبى بكر وعبد الله بن سبأ على دق أول مسمار فى نعش عثمان .

وظل أبو ذر فى ثورته فخشى عثمان أن يفتن الناس ، فدعا مروان وأمره أن يخرج به إلى الربذة ، ونهى الناس أن يصحبوه فى مسيره أو يشيعوه ، وجاء علىّ بن أبى طالب ومعه ابناه الحسن والحسين وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر ، وعمّار بن ياسر وعلموا أن عثمان أمر بإخراج أبى ذر من مدينة الرسول فأسرعوا خلفه حتى لحقوا به خارج المدينة ، وأقبل على ليُحادثه ، فحاول مروان أن يمنعه وقال :

— يا علىّ ، إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر فى مسيره أو يشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلنتك .

فلم يلتفت علىّ إليه وتقدم إلى أبى ذر ، فحاول مروان أن يحول بينهما فحمل علىّ عليه بالسوط بين أذنى راحلته وقال :

— تنح نحاك الله إلى النار .

فلوى مروان عنان راحلته ، وترك أبا ذر لهم وقفل عائدًا إلى أمير المؤمنين ليشكو له ما لقى من ابن أبى طالب .

ومضى علىّ ورفقاؤه مع أبى ذر حتى بلغوا الربذة ، فنزلوا عن رواحلهم وجعلوا يتحدثون ؛ وحان وقت الوداع ، فنهض علىّ ، وأحس أبو ذر غصة فى حلقه وضم عليًّا إلى صدره فانهمر الدمع من عينيه وغمغم :

— رحمكم الله أهل البيت ،إذا رأيتك يا أبا الحسن وولديك ذكرت بكم رسول

الله ﷺ .

وشكا مروان إلى عثمان ما فعله علىّ بن أبى طالب ، فنهض عثمان وقال :

ـ يا معشر المسلمين من يعذرنى من علىّ ، رد رسولى عما وجهته له وضربه ، والله لنعطينه حقه .

ورجع علىّ فاستقبله الناس وقالوا له :

ـ إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر .

ـ غضب الخيل على اللجم .

وفى الليل دخل على على عثمان ، فقال عثمان :

ـ ما حملك على ما صنعت بمروان ؟ واجترأت علىّ ورددت رسولى وأمرى ؟

ـ أما مروان ، فإنه استقبلنى يردنى ، فرددته على ردى ، وأما أمرك فلم أرده .

ـ أوَ لم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وتشييعه ؟

ـ أوَ كل ما أمرتنا به من شىء يرى طاعة الله والحق فى خلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ بالله لا نفعل .

ـ أقد مروان .

ـ وما أقيده ؟

ـ ضربت بين أذنى راحلته .

ـ أما راحلتى فهى تلك ، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل ، وأما أنا فوالله لئن شتمنى لأشتمك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقًا .

ـ ولِمَ لا يشتمك إذا شتمته ، فوالله ما أنت عندى بأفضل منه .

ـ إلىّ تقول هذا القول وبمروان تعدلنى ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وأمى أفضل من أمك .

فغضب عثمان وانصرف علىّ ، ثم دخل الناس بينهما وعادت الحال إلى ما كانت عليه قبل نفى أبى ذر ، وقال علىّ لعثمان :

ـ والله ما أردت تشييع أبى ذر إلا فى الله .

وعزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، واستعمل عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فغضب عمرو غضبًا شديدًا ، وحقد على عثمان وفارق أخته التى كانت عنده ، وانطلق إلى المدينة وقد عزم على أن يأتى عليًّا والزبير وطلحة فيؤلبهم عليه ، وأنه يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان ، بل لقد كان حقده عليه هائلا حتى إنه راح يحرض عليه الراعى فى غنمه فى رأس الجبل .

وكان محمد بن أبى حذيفة يتيما فى حجر عثمان ، وشب فى كنفه ، فلما بويع عثمان أميرًا للمؤمنين طمع محمد بن أبى حذيفة فى أن يولى عملا ، ولكن عثمان لم يستعمله فقد كان حدثًا ، فساء ذلك محمدًا ، وانتظر و لم يتغير ، ثم تقدم إلى عثمان يسأله العمل ، فقال له عثمان :

— يا بنى لو كنت رضى ثم سألتنى العمل لاستعملتك ، ولكن لست هناك .

فأطرق محمد بن أبى حذيفة وقد بان الكمد فى وجهه ، وساءه ألا يستعمله عثمان فقال فى صوت فيه أسى :

— فأذن لى فلأخرج فلأطلب ما يقوتنى .

— اذهب حيث شئت .

وجهزه عثمان وحمَّله وأعطاه ما يكفيه فانطلق إلى مصر .

وأخذت أخبار الأمصار تفد إلى المدينة همسًا ، فالناس قد ضجوا من أمرائهم ، وبلغ ذلك الهمس عليًّا وسعدًا وطلحة والزبير فاجتمعوا وجمعوا رأيهم على مفاتحة عثمان فى ذلك ، فدخلوا عليه فقالوا :

— يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذى يأتينا ؟

— لا والله .

— فإنا قد أتانا أن الناس فى الأمصار مستاءون من عمالهم ومتذمرون من سوء تصرفهم ، وأنهم يستعدون للثورة عليك .

فأطرق عثمان برهة ثم رفع رأسه وقال :

— فأنتم شركائى وشهود المؤمنين فأشيروا على .

— نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم .

وأرسل عثمان الرجال إلى الأمصار ، وبعث عمَّار بن ياسر إلى مصر ، وكان قد ضربه لكلام بينه وبين آخر ، فيا لعثمان ، لقد اجتمع فى مصر ابن سبأ ، ومحمد بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى حذيفة ، وعمَّار بن ياسر .

١٣

بعث عثمان إلى عمال الأمصار ليوافوه وليسمع منهم ما يسخط الناس ليعمل على إزالة أسباب شكواهم ، فوافاه عماله فقال لهم :

— ويحكم ! ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ، إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقًا عليكم وما يعصب هذا إلى بى .

— ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا و لم يشافههم أحد بشىء ؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا .

وخرج العمال وبقى معاوية ، فبعث عثمان إلى علىّ والزبير وطلحة وسعد ، فجاء رسول الخليفة إلى علىّ وهو جالس فى المسجد بعد صلاة العصر يدعوه ، فلما أن ولى الرسول أقبل علىّ على عبد الله بن عباس فقال :

— لِمَ تراه دعانى ؟

— دعاك ليكلمك .

— انطلق معى .

فانطلقا حتى دخلا على عثمان ، فإذا طلحة والزبير وسعد وأناس من المهاجرين ، فجلسا فسكت القوم ونظر بعضهم إلى بعض ، فحمد الله عثمان ثم قال :

— أما بعد ، فإن ابن عمى معاوية هذا قد كان غائبًا عنكم وعن ما نلتم منى

وعاتبتكم عليه وعاتبتمونى ، وقد سألنى أن يكلمكم وأن يكلمه من أراد .

فقال سعد بن أبى وقّاص فى استنكار :

— وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ما قلت وقيل لك ؟

فقال علىّ :

— ذلكم ، تكلم يا معاوية .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد ، يا معشر المهاجرين وبقية الشورى ، فإياكم أعنى فمن أجابنى بشىء فمنكم واحد ، فإنى لم أرد غيركم . توفى رسول الله ﷺ فبايع الناس أحد المهاجرين التسعة ، ثم دفنوا نبيهم فأصبحوا سالمًا أمرهم كأن نبيهم بين أظهرهم ، فلما أيس الرجل من نفسه بايع رجلا من بعده أحد المهاجرين ، فلما احتضر ذلك الرجل شك فى واحد أن يختاره فجعلها فى ستة نفر بقية المهاجرين ، فأخذوا رجلا منهم لا يألون عن الخير فيه فبايعوه وهم ينظرون إلى الذى هو كائن من بعده لا يشكون ولا يمترون . مهلا مهلا معشر المهاجرين فإن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم ، ومن إن فعلتم الذى أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جمعكم ، ثم استن عليكم بسنتكم ورأى أن الدم الباقى ليس بممتنع بعد دم الماضى ، فسددوا وارفقوا ، لا يغلبكم على أمركم من حذرتكم .

فقال علىّ بن أبى طالب :

— كأنك تريد نفسك يابن اللخناء لست هنالك .

— مهلا عن بنت عمك فإنها ليست بِشر نسائك . يا معشر المهاجرين وولاة هذا الأمر ولاكم الله إياه فأنتم أهله ، وهذان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق ومنتهاه ، وإنما ينظر التابعون إلى السابقين ، والبلداد إلى البلدين ، فإن استقاموا استقاموا ، وأيم الله الذى لا إلـٰه إلا هو لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ، ولا البلدان للبلدين ، وليسلبن أمركم ، ولينقلن الملك من بين أظهركم ، وما أنتم فى الناس إلا كالشامة السوداء فى الثور الأبيض ، فإنى رأيتكم

نشبتم فى الطعن على خليفتكم ، وبطرتم معيشتكم ، وسفهتم أحلامكم ، وما كل نصيحة مقبولة ، والصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله .

وخرج القوم ، وأمسك عثمان ابن عباس ، فقال له عثمان :

ـــ يابن عمى ويابن خالتى ، فإنه لم يبلغنى عنك فى أمرى شىء أحبه لا أكرهه على ولا لى ، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا ، وقد أحببت أن تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك فأعتذر .

ـــ يا أمير المؤمنين ، إنك قد ابتليتنى بعد العافية ، وأدخلتنى فى الضيق بعد السعة ، ووالله إن رأيى لك أن يجل سنك ويعرف قدرك وسابقتك ، ووالله لوددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك . فإن كان شيئًا تركاه لما رأيا أنه ليس لهما علمت أنه ليس لك كما لم يكن لهما ، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذى ينال منك تركته لما تركاه له ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك .

فقال عثمان معاتبًا :

ـــ فما منعك أن تشير على بهذا قبل أن أفعل ما فعلت ؟

ـــ وما علمى أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل ؟

ـــ فهب لى صمتًا حتى ترى رأيى .

وخرج ابن عباس فقال عثمان لمعاوية :

ـــ ما ترى ؟ فإن هؤلاء المهاجرين قد استعجلوا القدر ولا بد لهم مما فى أنفسهم :

ـــ الرأى أن تأذن لى فأضرب أعناق هؤلاء القوم .

فقال عثمان فى فزع :

ـــ من ؟

ـــ علىّ وطلحة والزبير .

ـــ سبحان الله ! أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا ذنب

ركبوه !؟

— فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلوك .

— لا أكون أول من خلف رسول الله فى أمته بإهراق الدماء .

— فاختر منى إحدى ثلاث خصال .

— وما هى ؟

— أرتب لك هٰهنا أربعة آلاف فارس من خيل أهل الشام يكونون لك ردءًا ، وبين يدك يدًا .

— أرزقهم من أين ؟

— من بيت المال .

— أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمى ، لا فعلت هذا .

— فثانية .

— وما هى ؟

— فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان فى مصر واحد ، واضرب عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته .

— سبحان الله ، شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم ، لا فعلت هذا .

— فثالثة .

— وما هى ؟

— اجعل لى الطلب بدمك إن قُتلت .

— نعم هذه لك ، إن قُتلت فلا يطل دمى .

* * *

استمر ابن سبأ ينفث سمومه فى مصر ، وطفق يحرض الناس على الطعن على أمرائهم ، وأمر أتباعه أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليستميلوا

الناس ، وجعل يكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه ، فاستمرت خيوط التآمر على عثمان تُحاك فى الظلام حتى إذا ما أخذت بخناقه بانت ووضحت وظهرت للعيان ، ومما عاون على اندلاع نار التذمر أن عبد الله بن أبى سرح قد ضرب بعض الذين أتوا إليه من المصريين ، فحنق أهل مصر عليه ، وانضموا إلى الساخطين وقد صمموا على الخروج إلى إمامهم فى المدينة .

وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد . فكلم الناس علىّ بن أبى طالب أن يدخل على عثمان . فدخل عليه فقال له :

— إن الناس ورائى وقد كلمونى فيك . ووالله ما أدرى ما أقول لك ، وما أعرف شيئًا تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك إلى شىء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشىء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمور عنك وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره ، وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطّاب بأولى بشىء من الخير منك ، وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحمًا ، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا ، ولا سبقاك إلى شىء ،فالله الله فى نفسك، فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بيِّن ، وإن أعلام الدين لقائمة ، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل ، هَدى وهُدى فأقام سُنة معلومة ، وأمات بدعة معلومة ، فوالله إن كلًّا لبيِّن ، وإن السُنن قائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وأضل به ، فأمات سُنة معلومة وأحيا بدعة متروكة ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس من نصير ولا عاذر فيُلقى فى جهنم ، فيدور فيها كما تدور الرحا ثم يرتطم فى غمرة جهنم ؛ وإنى أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقمته ، فإن عذابه أليم شديد ، وأحذر أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه كان يُقال : يُقتل فى هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ، ويترُكون شيعًا لا يبصرون الحق من الباطل يموجون فيها موجًا ، ويمرجون فيها مرجًا .

ـــ قد والله علمت لتقولن الذى قلت ، أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك ، ولا جئت منكرًا أن وصلت رحمًا ، وسددت خلة ، وآويت ضائعًا ، ووليت شبيهًا بمن كان عمر يولى . أنشدك الله يا علىّ هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟

ـــ نعم .

ـــ فتعلم أن عمر ولاه ؟

ـــ نعم .

ـــ فلِمَ تلومونني أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟

ـــ سأخبرك . إن عمر كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخيه ، وإنه إن بلغه حرف جاء به ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك .

ـــ هم أقرباؤك أيضًا .

ـــ لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم .

ـــ هل تعلم أن عمر ولَّى معاوية خلافته كلها ، فقد وليته .

ـــ هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟

ـــ نعم .

ـــ فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، ويقول للناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية .

وخرج علىّ من عنده . وخرج عثمان على إثره فصعد المنبر فقال :

ـــ ألا فقد والله عبتم علىّ بما أقررتم به لابن الخطّاب ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه . فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم ، فاجترأتم على . أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرًا وأكثر عددًا وأقمن إن قلت : هلم إلىّ إلىّ ، ولقد أعددت لكم أقرانكم ، وأفضلت عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابى . فأخرجتم منى

خُلقًا لم أكن أحسنه ، ومنطقًا لم أنطق به . فكفوا ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يليكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا . ألا فما تفقدون من حقكم ؟ فوالله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى .

قال مروان بن الحكم :

ـــ إن شئتم والله حكمنا بيننا وبينكم السيف . نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم　　　مغارسكم تبنون فى دمن الثرى

ـــ اسكت لا سكت ، دعنى وأصحابى ، ما منطقك فى هذا ، ألم أتقدم إليك أن لا تنطق ؟

فسكت مروان ونزل عثمان :

وخرج المصريون وقد أظهروا أنهم يريدون العمرة ، وخرج محمد بن أبى بكر معهم ، وشيعهم محمد بن أبى حذيفة إلى عجرود ثم قفل راجعًا ، فكان إذا سئل عمن خرج كان يقول : خرج القوم للعمرة ، ولكنه جعل يقول فى السر : خرج القوم إلى إمامهم فإن نزع وإلا قتلوه .

وأوفد عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان رسولا ينبئه نبأ القوم ، فأطرق عثمان ، ثم التفت إلى من عنده فقال :

ـــ هؤلاء قوم من أهل مصر يريدون بزعمهم العمرة ، والله ما أراهم يريدونها ، ولكن الناس قد دخل بهم وأسرعوا إلى الفتنة ، وطال عليهم عمرى ، أما والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة ، مما يرون من الدماء المسفوكة والإحن والأثرة الظاهرة والأحكام المغيرة .

ونزل المصريون ذا خشب ، وذاع فى المدينة أنهم ما جاءوا إلا لقتل أمير المؤمنين ، فلما رأى عثمان ما رأى جاء عليًّا فدخل عليه بيته فقال :

ـــ يابن عم ، إنه ليس لى مترك ، وإن قرابتى قريبة ولى حق عظيم عليك ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحى ، وأنا أعلم أن لك عند الناس قدرًا

وأنهم يسمعون منك ، فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عنى ! فإنى لا أحب أن يدخلوا على ، فإن ذلك جرأة منهم على ، وليسمع بذلك غيرهم .

— علام أردهم ؟

— على أن أصير إلى ما أشرت به على ورأيته لى ولست أخرج من يدك .

— إنى قد كنت كلمتك مرة بعد مرة فكل ذلك نخرج فنكلم ونقول وتقول وذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية ، أطعتهم وعصيتنى .

— فإنى أعصيهم وأطيعك .

وانطلق على إلى المصريين وقد ركب معه المهاجرون والأنصار . وأرسل عثمان إلى عمَّار بن ياسر يكلمه أن يركب مع على ، فأبى وأخذ على يكلم المصريين وما برح من ذى خشب حتى رحلوا راجعين إلى مصر .

وجاء على عثمان بعد انصراف المصريين فقال له :

— تكلم كلاما يسمعه الناس منك ويشهدون عليه ويشهد الله على ما فى قلبك من النزوع والإنابة ، فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركبا آخرين يقدمون من الكوفة فتقول : يا على اركب إليهم ، ولا أقدر أن أركب إليهم ، ولا أسمع عذرا ، ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول : يا على اركب إليهم ، فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك .

خرج عثمان فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

— أما بعد أيها الناس فوالله ما عاب من عاب منكم شيئًا أجهله . وما جئت شيئًا إلا وأنا أعرفه . ولكنى منتنى نفسى وكذبتنى وضل عنى رشدى . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : من زل فليتُب . ومن أخطأ فليتُب ولا يتماد فى الهلكة ، إن من تمادى فى الجور كان أبعد من الطريق . فأنا أول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . فمثلى نزع وتاب فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليرونى رأيهم . فوالله لئن ردنى الحق عبدًا لأستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ، ولأكونن

كالمرموق إن ملك صبر وإن عتق شكر وما عن الله مذهب إلا إليه . فلا يعجزن عنكم خيار كم أن يدلوا إلى ، لئن أبت يمينى لتتابعنى شمالى .

فرق الناس له ، وترقرق الدمع فى العيون .

وانصرف عثمان إلى منزله فوجد به مروان وسعيدًا ونفرًا من بنى أميَّة و لم يكونوا شهدوا الخطبة ، فلما جلس قال مروان :

— يا أمير المؤمنين ، أتكلم أم أصمت ؟

فقالت نائلة ابنة الفرافضة امرأة عثمان :

— لا . بل اصمت ، فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه ، إنه قد قال مقالة لا ينبغى له أن ينزع عنها .

فقال مروان :

— ما أنت وذاك ؟ فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ .

— مهلا يا مروان عن ذكر الآباء . تخبر عن أبى وهو غائب تكذب عليه ، وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عنه ، أما والله لولا أنه عمه ، وأنه يناله غمه ، أخبرتك عنه ما لن أكذب عليه .

فأعرض عنها مروان ثم قال :

— يا أمير المؤمنين ، أتكلم أم أصمت ؟

— بل تكلم .

— بأبى أنت وأمى ، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع ، فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل ، والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها ، وإنك إن شئت تقربت بالتوبة و لم تقرب بالخطيئة ، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس .

— فاخرج إليهم فكلمهم فإنى استحيى أن أكلمهم .

فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضًا فقال :

ـــ ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ، شاهت الوجوه ، كل إنسان آخذ بأذن صاحبه إلا من أريد ، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا . اخرجوا عنا ، أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم . ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا .

فرجع الناس مذهولين ، فإن هذا القول لا يتفق وتوبة عثمان ، وخرج بعض القوم حتى أتوا عليًّا فأخبروه الخبر ، فجاء عليّ مغضبًا حتى دخل على عثمان فقال :

ـــ أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به ؛ والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا نفسه ، وأيم الله إنى لأراه سيوردك ثم لا تصدر ، وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك ، أذهلت شرفك ، وغُلبت على أمرك .

وخرج عليّ فدخلت عليه نائلة امرأته فقالت :

ـــ أتكلم أو أسكت ؟

ـــ تكلمى .

ـــ قد سمعت قول عليّ لك ، وإنه ليس يعاودك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء .

ـــ فما أصنع ؟

ـــ تتقى الله وحده لا شريك له وتتبع سُنة صاحبيك من قبلك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة ، وإنما تركك الناس لمكان مروان ، فأرسل إلى عليّ فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصى .

وجلس عليّ غضبان والتفت إلى عبد الرحمن بن الأسود وقال :

ـــ أحضرت خطبة عثمان ؟

ـــ نعم .

— أحضرت مقالة مروان للناس ؟

— نعم .

— عياذ الله ، ياللمسلمين ، إنى إن قعدت فى بيتى قال لى تركتنى وقرابتى وحقى ، وإنى إن تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان ، فصار سيقة له يسوقه حيث شاء بعد كِبر السن وصحبة رسول الله ﷺ .

وجاء رسول عثمان يطلب عليًّا ، فقال علىّ بصوت مرتفع عال مغضب :

— قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد .

١٤

كاتب السبئيون فى مصر أشياعهم فى الكوفة والبصرة ، وتواعدوا على اللقاء فى المدينة ، فنزل المصريون بذى خشب ، ونزل الكوفيون بذى قار ، وسار الصحابة إلى الثوار فلم يرجعوا عنهم إلا بعد أن قفلوا عائدين إلى ديارهم وعاتب علىّ عثمان ولكن ما لبث مروان أن فتله .

وهدأت مدينة الرسول مدة ، وفى يوم ارتفعت أصوات التكبير فـارتجت المدينة ، وخرج الناس يسألون عن الخبر فعلموا أن الثوار قد قفلوا راجعين بعد مسيرهم ، وأنهم حاصروا عثمان وقالوا :

— من كف يده فهو آمن .

وجاء علىّ وهرع إلى الثوار وقال لأهل مصر :

— ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

— أخذنا مع بريد كتابا بقتلنا .

وأقبل على أهل الكوفة والبصرة فقال لهم :

— وأنتم ما جاء بكم ؟

— نحن ننصر إخواننا .

ـــ كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر ، وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ، هذا والله أمر أبرم بالمدينة .

ـــ ضعوه على ما شئتم ، لا حاجة لنا فى هذا الرجل ، ليعتزلنا .

واعتزل الناس فى دورهم ، واشتد حصار الثوار لعثمان ، وطالبوا بدمه فبعث الزبير ابنه عبد الله وبعث علىّ بابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته ، وأمرهم أن يمنعوه منهم ، ولبس ابن عمر سلاحه ، وما لبسه بعد موت الرسول ، وخرج ليذب عن خليفة المسلمين ، وانطلق محمد بن طلحة وأكثر أبناء الصحابة للذود عن عثمان .

ومنع الثوار عنه الماء ، فأرسل عثمان إلى عائشة ، وإلى علىّ والزبير وطلحة يقول لهم :

ـــ إنهم منعونا الماء ، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئا من الماء فافعلوا .

فجاء علىّ فى الغلس فقال :

ـــ يأيها الناس ، إن الذى تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى ، وما تعرض لكم هذا الرجل ، فبم تستحلون حصره وقتله ؟؟

فقال الثوار : لا والله ، ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب .

فرمى بعمامته فى الدار بأنى قد نهضت فيما أنهضتنى .

وبعث عثمان إلى الأشتر فدخل عليه فقال أمير المؤمنين :

ـــ يا أشتر ما يريد الناس منى ؟

ـــ ثلاثًا ليس من إحداهن بد .

ـــ ما هن ؟.

ـــ يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول هذا أمركم فاختاروا له من شئتم ، وبين أن تقص من نفسك ، فإن أبيت هاتين فإن القوم قاتلوك .

ـــ أما من إحداهن بد ؟.

— ما من إحداهن بد .

— والله لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أخلع قميصًا قمصنيه الله ، وأترك أمة محمد ﷺ يعدو بعضها على بعض ، وأما أن أقص من نفسى ، فوالله لقد علمت أن صاحبَىّ بين يدى قد كانا يعاقبان وما يقوم بدنى بالقصاص ، وأما أن تقتلونى فوالله لئن قتلتمونى لا تتحابون بعدى أبدًا ، ولا تصلون جميعا بعدى أبدًا ، ولا تقاتلون بعدى عدوًا جميعًا أبدًا .

وجاءت أم حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملة على إداوة ، فقيل :

— أم المؤمنين أم حبيبة .

فضربوا وجه بغلتها فقالت :

— إن وصايا بنى أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهدر أموال أيتام .

— كاذبة .

وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت راحلتها ، فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها .

وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة ، وقبل أن تنطلق بعثت إلى أخيها محمد ابن أبى بكر تستتبعه فأبى ، وقال له الرسول :

— يا محمد تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعها ، وتدعوك ذؤبان العرب إلى ما لا يحل فتتبعهم ؟

— ما أنت وذاك يابن التميمية ؟

— يابن الخثعمية إن هذا الأمر صار إلى التغالب غلبتك عليه بنو عبد مناف .

وجاء مروان عائشة فقال :

— يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل .

— أيريد أن يُصنع بى كما صنع بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعنى ، لا والله ولا أعير ولا أدرى إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وأشرف عثمان على من لزموا الباب فقال :

ـــ يا عبد الله بن عباس .

فدُعى له فقال :

ـــ اذهب فأنت على الموسم .

ـــ والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب إلىّ من الحج .

فأقسم عليه لينطلق ، فذهب ابن عباس لينطلق على الموسم .

وصاح ابن عديس زعيم الثوار فى أصحابه :

ـــ لا تتركوا أحدا يدخل على هذا الرجل ولا يخرج من عنده .

وفُتح باب دار عثمان وأراد ابن عباس أن يخرج فمنعوه ، ومر به محمد بن أبى بكر ، فقال للثوار :

ـــ دعوه .

وحاول الثوار اقتحام الباب ، فبرز لهم الحسن والحسين وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة ، واجتلد الفريقان ، ونادى عثمان من يذبون عنه :

ـــ الله الله أنتم فى حل من نصرتى .

فأبوا واستمروا فى القتال، ففتح عثمان الباب وخرج معه السيف لينهاهم ، فلما رأى الثوار عثمان ثبتوا مكانهم قليلا ثم أدبروا فزعين ، فأقسم عثمان على الصحابة ليدخلن ، فدخلوا فأغلق الباب دون الثوار .

جاء الثوار بنار وأحرقوا الباب والسقيفة ، فتأجج الباب والسقيفة ، وأخذ الخشب فى الاحتراق ، ووقف عبد الله بن سلام أمام الباب وراح يصيح فى الناس :

ـــ يا قوم ، لا تسلوا سيف الله عليكم ، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه . ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة ، فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف ، ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله ، والله لئن قتلتموه لتتركنها .

فارتفعت أصوات الثوار :

— يابن اليهودية وما أنت وهذا ؟

وأغفى عثمان بن عفان فاستيقظ فقال :

— لولا أن يقول الناس تمنى عثمان أمنية لحدثتكم .

— أصلحك الله ، حدثنا فلسنا نقول ما يقول الناس .

— إنى رأيت رسول الله فى منامى هذا فقال : « إنك شاهد معنا الجمعة » .

وأكلت النار الخشب . فخرت السقيفة على الباب ، فثار أهل الدار وخرجوا يبارزون الثوار ، وخرج الحسن وهو يقول :

لا دينهم دينى ولا أنـا منهم   حتى أسير إلى طمـار شمام

ووقف عثمان يصلى فى هدوء كأنما الأمر لا يعنيه ، وجعل يقرأ فى صلاته : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ ، واستمر فى قراءته هادئ النفس ما يخطئ وما يتتعتع ، وأتم صلاته ثم التفت إلى ابن الزبير وأمره أن يأتى أهل الدار فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم .

واستمر القتال ناشبا أمام الباب فجُرح الحسن ، وشُج قنبر مولى علىّ ، وجُرح محمد بن طلحة ، فخشى القوم أن يثور بنو هاشم للحسن ، فتسور محمد بن أبى بكر وبعض الثوار من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان ، ولا يعلم أحد ممن كانوا بالباب .

وتقدم محمد بن أبى بكر من عثمان ، فأخذ بلحيته فقال :

— ما أغنى عنك معاوية ، وما أغنى عنك ابن عامر ، وما أغنت عنك كُتبك ، على أى دين أنت يا نعثل ؟

— على دين الإسلام ، ولست بنعثل ولكنى أمير المؤمنين .

— غيرت كتاب الله .

— كتاب الله بينى وبينكم .

— إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول : ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ .

— يابن أخى ، ما كان أبوك ليأخذ بلحيتى .

فتذمم محمد من ذلك ، وأحس خزيا فغطى وجهه بيده ثم انسحب خافض الرأس ، وقابل بعض الثوار مقبلين نحو عثمان فحاول أن يدفعهم وجعل يحاجز دون عثمان ، ولكن لم تفد عثمان محاجزته ، فقد وصل إليه أسود بن حمران فضربه بحربة ، ثم وضع ذباب السيف فى بطنه واتكى عليه وتحامل حتى قتله ، وقامت نائلة دونه ، فقطع السيف أصابعها .

وصرخت نائلة :

— قد قُتل أمير المؤمنين .

وصل الصوت آذان المدافعين عن الباب فأسرعوا بالدخول ، فوجدوا عثمان مقتولا ، فبكوا ، وذاع النبأ : ألا إن أمير المؤمنين قد قُتل ، فأقبل علىّ ودخل الدار وهو كالواله الحزين ، والتفت إلى ولديه وقال فى غضب :

— كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتم على الباب ؟

وثار علىّ ، فلطم الحسن وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد الله بن الزبير ، فقال له ابن طلحة :

— لا تضرب يا أبا الحسن ، ولا تشتم ولا تلعن ، ولو دفع مروان ما قُتل .

واستمرت المدينة تموج بالثوار موجا ، وأصبحت لا أمير لها ، وفكر الناس فى مبايعة خليفة لهم فانطلق المصريون إلى علىّ ، ولكنه اختبأ منهم ، وظلوا يبحثون عنه حتى لقوه ، فباعدهم وظل يتبرأ منهم ومن مقالتهم ، وانطلق الكوفيون إلى الزبير ، وأرسلوا له رسلا لمحادثته فى أمر البيعة ، ولكنه باعدهم وتبرأ منهم ، والتمس البصريون طلحة فلقيهم و لم يقبل بيعتهم ، وانقضى اليوم الأول و لم يجد الثوار من يقبل الخلافة ، وبقى عثمان فى داره لا يجرؤ أحد على دفنه خشية بطش الثوار به .

وطلعت شمس اليوم الثانى ، فراح الثوار يفكرون فيمن يولونه الخلافة غير هؤلاء الذين رفضوها ، فلم يجدوا من أهل الشورى إلا سعدًا فجاءوه وقالوا له :

— إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع فاقدم نبايعك .

— إنى وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لى فيها على حال .

لا تخلعــن خبيثــات بطيبـــة   واخلع ثيابك منها وانج عريانا

وانقضى اليوم التالى و لم يهتد الثوار إلى خليفة وبقى عثمان فى داره لم يُقبر ، وأهل داره يخشون الخروج لدفنه رهبة من الثوار وبطشهم ، وتصرم الثالث كما تصرم سابقاه :

وجاء الزبير إلى بيت عثمان ، ولما هدأ الناس وأرخى الليل سدوله ، خرجوا بعثمان وهم يتلفتون وجلين خشية أن يفاجئهم الثوار فينكلوا بهم،حتى إذا بلغوا جدارًا دفنوه وقفلوا راجعين مسرعين لا يلوون على شىء، وهكذا دُفن عثمان خليفة المسلمين ، وصهر الرسول ، فى هجعة الليل ، وغفلة من الناس .

١٥

الفوضى تسود المدينة ، والثوار يغدون ويروحون بين صحابة الرسول ، فقد يمضى قتل عثمان فى الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ولا يسمعون أنه بويع لأحد بعده فيثور كل رجل فى ناحية فيكون فى ذلك الفساد . ورأى كبار الصحابة ورؤساء الثوار أن يأتوا عليًّا مرة أخرى يعرضون عليه الأمر ، فدخلوا عليه فى داره ومعه ابنه محمد بن الحنفية فقالوا :

— إن هذا الرجل قد قُتل ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحدًا أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله ﷺ .

— لا تفعلوا .

وخشى الناس أن يصر على الرفض ، فقال الأشتر :

— ابسط يدك نبايعك .

— لا حاجة لى فى أمركم ، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به فاختاروا .

— والله ما نختار غيرك .

— لا تفعلوا ، فإنى أكون وزيرا خير من أن أكون أميرًا .

فقال الأشتر :

— والله لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينيك عليها ثالثة :

وقال الناس :

— إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة ، وقد طال الأمر .

— إنكم قد اختلفتم إلى وأتيتم وإنى قائل لكم قولا إن قبلتموه قبلت أمركم وإلا فلا حاجة لى فيه .

— ما فعلت من شيء قبلناه إن شاء الله .

— ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفيا ولا تكون إلا عن رضا المسلمين .

وجاء علىّ المسجد فصعد المنبر فاجتمع الناس إليه فقال :

— إنى قد كنت كارها لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم ، ألا وإنه ليس لى أمر دونكم إلا أن مفاتيح مالكم معى ، ألا وإنه ليس لى أن آخذ منه درهما دونكم ، رضيتم ؟

— نعم .

— اللهم اشهد عليهم .

ونزل علىّ فتقدم إليه طلحة ومد له يده الشلاء التى شُلت يوم أحد ، يوم كان يذب عن رسول الله ، فتطير رجل فقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول من بدأ بالبيعة يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر .

وبايعه الناس .

ودخلت أم حبيبة زوجة الرسول على نائلة زوجة عثمان وأخذت منها قميص القتيل ، وأصابع نائلة التى أصيبت حين جاحفت عنه بيدها ، وبعثت بها إلى أخيها معاوية ، فخرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه ومعه أصابع نائلة ، فورد به على معاوية بالشام ، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس ، وعلق الأصابع فى كم القميص ، فتباكى الناس حول المنبر ، وكان القميص يُرفع تارة

ويُوضع أخرى ، فيحرك معاوية بذلك الأحقاد ويدعو الناس للأخذ بثأر عثمان .

وبويع لعلى فاجتمع الناس إليه بعد ما دخل طلحة والزبير فى عدة من الصحابة فقالوا له :

— يا علىّ ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم .

— يا إخوتاه ، إنى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانهم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون ؟

— لا .

— فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله ، إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة . وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدًا . إن الناس فى هذا الأمر إن حرك على أمور ، فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا .

وتفرق القوم وبعضهم يقول :

— والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار ، لترك هذا إلى ما قال علىّ أمثل .

وقال بعضهم :

— نقضى الذى علينا ولا نؤخره ، ووالله إن عليا لمستغن برأيه وأمره عنا ، ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره .

وبلغ عليًّا ذلك فقام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل قريش وحاجتِهِ إليهم ، ونظره لهم وقيامه دونهم ، وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك والأجر من الله عز وجل ، ثم قال :

— يا أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب ، يا معشر الأعراب الحقوا

بمياهكم .

فخشي السبائية أن يخلى بينهم وبين الناس إذا ما لحق الأعراب بمياههم ، فأبت السبائية وأطاعهم الأعراب وقالوا :

ــ لنا غدًا مثلها .

ودخل علىّ بيته ، ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبى ﷺ فقال :

ــ دونكم ثأركم فاقتلوه .

فقالوا فى يأس :

ــ عشوا عن ذلك .

ــ هم والله بعد اليوم أعشى وآبى .

لو أن قومى طاوعتنى سراتهم   أمرتهم أمرًا يــديخ الأعاديــا

وقال طلحة :

ــ دعنى آت البصرة فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل .

ــ حتى أنظر فى ذلك .

وقال الزبير :

ــ دعنى آت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل .

ــ حتى أنظر .

وبلغ المغيرة بن أبى شعبة نبأ ذلك المجلس فعزم على أن يدخل على الإمام ، فجاءه فقال :

ــ إن لك حق الطاعة والنصيحة ، وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد . وإن الضياع اليوم تضيع به ما فى غد ، أقرر معاوية على عمله وأقرر ابن عامر على عمله وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت .

وبان فى وجه علىّ عدم الاقتناع بما قال المغيرة ، فإنه ليذكر نصيحته لعمر أن يولى ابنه عبد الله عقب مقتله ، وإنه ليذكر قوله لعبد الرحمن بن عوف بعد مبايعته

لعثمان : « يا أبا محمد ، الحمد لله الذى وفقك . والله ما كان لها غير عثمان » وإنه ليعلم أن كل هم المغيرة أن يتقرب إلى من بيده السلطان . فقال له :

— لا .

وخرج المغيرة وقد أيقن أن عليًا لن يأخذ برأيه ، فرأى أن يكون له بعض الفضل فيما سينتهج أمير المؤمنين من سياسة ، فعزم على أن يدخل عليه فى الغد لينقض نصيحته التى لن يعمل الخليفة بها .

وعاد المغيرة من الغد ، ودخل على الإمام فقال :

— إنى أشرت عليك بالأمس برأى ، وإن الرأى أن تعاجلهم بالنزوع فيعرف السامع من غيره ويستقبل أمرك .

ثم خرج وتلقاه ابن عباس خارجا وهو داخل فأيقن أن أمره سينكشف .

دخل عبد الله بن عباس على الإمام بعد عودته من الحج ، فقال له :

— ماذا قال لك هذا ؟

— قال لى قبل مرته هذه أرسل إلى عبد الله بن عامر وإلى معاوية وإلى عمال عثمان بعهودهم تقرهم على أعمالهم ويبايعون لك الناس فإنهم يهدئون البلاد ويسكنون الناس ، فأبيت ذلك عليه يومئذ وقلت : والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيى ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يولى . ثم انصرف من عندى وأنا أعرف فيه أنه يرى أنى مخطئ ، ثم عاد إلى الآن ، فقال : إنى أشرت عليك أول مرة بالذى أشرت عليك وخالفتنى فيه ، ثم رأيت بعد ذلك رأيا ، وأنا أرى أن تصنع الذى رأيت فتنزعهم وتستعين بمن تثق به ، فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان .

— أما المرة الأولى فقد نصحك ، وأما المرة الآخرة فقد غشك .

— ولِم نصحنى ؟

— لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى تثبتهم لا يبالون بمن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا : أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا . ويؤلبون عليك أهل الشام وأهل العراق مع أنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا

عليك .

— أما ما ذكرت من إقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير فى عاجل الدنيا لإصلاحها،وأما الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولى منهم أحدا أبدا ، فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أدبروا بذلت لهم السيف .

— فأطعنى وادخل دارك والحق بمالك بينبع وأغلق بابك عليك ، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك ، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا .

فأبى علىّ فقال لابن العباس :

— سِر إلى الشام . فقد وليتكها .

— ما هذا برأى ، معاوية رجل من بنى أميَّة ، وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ، ولست آمن أن يضرب عنقى لعثمان أو أدنى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكم على .

— ولِمَ ؟

— لقرابة ما بينى وبينك . وإن كل ما حمل عليك حمل علىّ ، ولكن اكتب إلى معاوية فمنه فعده .

فقال الرجل الذى لا يعرف اللف ولا الدوران :

— والله لا كان هذا أبدا .

— ثبت معاوية ، فإن بايع لك فعلى أن أقلعه .

— لا والله لا أعطيه إلا السيف .

ما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

— يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع لست بأرب بالحرب ، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحرب خدعة ؟!

— بلى .

— أما والله لئن أطعتنى لأصدرن بهم بعد ورد ، لأتركنهم ينظرون فى دبر الأمور

لا يعرفون ما كان وجهها فى غير نقصان عليك ولا إثم لك .

— يابن عباس ، لست من هنيآتك ولا هنيآت معاوية فى شىء ، تشير على فأرى فإذا عصيتك فأطعنى .

— أفعل ، إن أيسر ما لك عندى الطاعة .

١٦

بعث أمير المؤمنين رسولا إلى معاوية ، فقدم عليه ، فلم يكتب معاوية بشىء ولم يجبه ورد رسوله ، ثم دعا برجل من بنى عبس ، فدفع إليه طومارًا مختومًا عنوانه : من معاوية إلى علىّ ، فقال له :

— إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار .

ثم أوصاه بما يقول ؛ وانطلق رسول معاوية حتى إذا ما دخل المدينة ، رفع الطومار كما أمره .

وخرج الناس ينظرون إليه فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ، ومضى الرسول حتى دخل على الإمام ، فدفع إليه الطومار ، ففض خاتمه فلم يجد فى جوفه كتابة ، فقال للرسول :

— ما وراءك ؟

— آمن أنا ؟

— نعم ، إن الرسل آمنة لا تقتل .

— ورائى ؛ أنى تركت قومًا لا يرضون إلا بالقود .

— ممن ؟

— من خيط نفسك ؛ وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق .

— منى يطلبون دم عثمان ؟ ألست موتورًا كترة عثمان . اللهم إنى أبرأ إليك من

دم عثمان ؛ نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ؛ فإنه إذا أراد أمرًا أصابه ، اخرج .

— وأنا آمن ؟

— وأنت آمن .

فخرج رسول معاوية وصاحت السبائية :

— هذا الكلب .. هذا وافد الكلاب .. اقتلوه .

فنادى :

— يا آل مضر .. يا آل قيس الخيل والنبل .. إنى أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصى ، فانظروا كم الفحولة والركاب .

وتعاووا عليه ومنعته مضر وجعلوا يقولون له :

— اسكت .

— لا والله لا يفلح هؤلاء أبدًا ، فلقد آتاهم ما يوعدون .

— اسكت .

— لقد حل بهم ما يحذرون ، انتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم .

وعلم الحسن برسالة معاوية فدخل على أبيه فقال :

— أما والله قد كنت أمرتك فعصيتنى .

— وما أمرتنى به فعصيتك فيه ؟

— أمرتك أن تركب رواحلك فتلحق بمكة المشرفة فلا تتهم به ولا تحل شيئًا من أمره فعصيتنى ، وأمرتك حين دعيت إلى البيعة أن لا تبسط يدك إلا على بيعة جماعة فعصيتنى ، وأمرتك حين خالف عليك طلحة والزبير لا تكرههما على البيعة ولا تخلى بينهما وبين وجههما وتدع الناس يتشاورون عامًا كاملا ، فوالله لو تشاوروا عامًا ما زويت عنك وما وجدوا منك بدًا ، وأنا آمرك اليوم أن تقيلهما بيعتهما ، وترد إلى الناس أمرهم ، فإن رفضوك رفضتهم وإن قبلوك قبلتهم ، فإنى والله قد رأيت الغدر فى رءوسهم ؛ وفى وجوههم النكث والكراهية .

— أنا إذن مثلك ، لا والله يا بنى ، ولكن أقاتل بمن أطاعنى من عصانى ، وأيم

الله يا بنى ما زلت مبغيًا علىّ منذ هَلك جدك .

ـــ وأيم الله يا أبت ليظهرن عليك معاوية ، لأنه من قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا .

ـــ يا بنى ، وما علينا من ظلمه والله ما ظلمناه ولا أمرنا ، ولا نصرنا عليه ، ولا كتبت فيه إلى أحد سوادًا فى بياض ؛ وإنك لتعلم أن أباك أبرأ الناس من دمه ومن أمره .

فقال الحسن الذى كان يمقت الالتجاء إلى العنف وإهراق الدماء :

ـــ دع عنك هذا والله إنى لا أظن ، بل لا أشك أن ما فى المدينة عاتق ولا عذراء ولا صبى إلا وعليه كفل من دمه .

ـــ يا بنى ، إنك لتعلم أن أباك قد رد الناس عنه مرارًا ، أهل الكوفة وغيرهم ، وقد أرسلتكما جميعًا بسيفيكما لتنصراه ، وتموتا دونه فنهاكما عن القتال ، ونهى أهل الدار أجمعين ، وأيم الله لو أمرنى بالقتال لقاتلت دونه أو أموت بين يديه .

وأحب الناس أن يعلموا ما رأى علىّ فى معاوية وانتقاضه ، ليعرفوا بذلك رأيه فى قتال أهل القبلة ، أيجسر عليه أو ينكل عنه ، فدسوا إليه زياد بن حنظلة وكان منقطعا إلى علىّ ، فدخل إليه فجلس ثم قال له علىّ :

ـــ يا زياد تيسر .

ـــ لأى شىء ؟

ـــ تغزو الشام .

ـــ الأناة والرفق أمثل .

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على كأنه لا يريده :

متى تجمع القلب الذكى وصارما   وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس والناس ينتظرونه فقالوا :

ـــ ما وراءك ؟

— السيف يا قوم .

ودخل المغيرة بن شعبة فقال له علىّ :

— هل لك يا مغيرة فى الله ؟

— فأين هو يا أمير المؤمنين ؟

— تأخذ سيفك فتدخل معنا فى هذا الأمر ، فتدرك من سبقك وتسبق من معك ، فإنى أرى أمورا لا بد للسيوف أن تُشحذ لها ، وتقطف الرءوس بها .

— إنى والله يا أمير المؤمنين ما رأيت عثمان مصيبا ولا قتله صوابا ، وإنها مظلمة تتلوها ظلمات ، فأريد يا أمير المؤمنين إن أذنت لى أن أضع سيفى وأنا فى بيتى حتى تنجلى الظلمة ويطلع قمرها فنسرى مبصرين ، نقفوا آثار المهتدين ، ونتقى سبيل الحائرين .

— قد أذنت لك ، فكن من أمرك على ما بدا لك .

فقام عمار فقال :

— معاذ الله يا مغيرة ، تقعد أعمى بعد أن كنت بصيرًا يغلبك من غلبته ؛ ويسبقك من سبقته ، انظر ما ترى وما تفعل ، فأما أنا فلا أكون إلا فى الرعيل الأول .

فقال له المغيرة :

— يا أبا اليقظان ، إياك أن تكون كقاطع السلسلة ، فر من الضحل فوقع فى الرمضاء .

فقال علىّ لعمار :

— دعه ، فإنه لن يأخذ من الآخرة إلا ما خالطته الدنيا ، أما والله يا مغيرة إنها المثوبة المؤدية تؤدى من قام فيها إلى الجنة ولما اختار بعدها ، فإذا غشيناك فنم فى بيتك .

— أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى ، ولئن لم أقاتل معك لا أعين عليك ، فإن يكن ما فعلت صوابا فإياه أردت ، وإن أخطأت فمنه نجوت ولى ذنوب كثيرة

لا قِبل لى بها إلا الاستغفار منها .

ودعا علىّ محمد بن الحنفية ابنه فدفع إليه اللواء ، وولى عبد الله بن عباس ميمنته وعمر بن أبى مسلمة ولاه ميسرته ودعا ابن أخى أبى عبيدة بن الجراح وجعله على مقدمته ، وكتب إلى عماله بالأمصار أن يندبوا الناس إلى الشام .

وبينا علىّ يتأهب للمسير إلى الشام جاءه أن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالئوا على سخط إمارته ودعوا الناس إلى الإصلاح وأنهم يريدون البصرة ، فهيأ جيوشه للخروج إليهم وقال فى أسف :

ـــ إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين ، وما كان عليهم فى المقام فينا مؤونه ولا إكراه .

فاشتد على أهل المدينة الأمر فتثاقلوا ، فبعث إلى عبد الله بن عمر رسولا فجاء به فقال علىّ :

ـــ انهض معى .

ـــ أنا مع أهل المدينة ، إنما أنا رجل منهم ، وقد دخلوا فى هذا الأمر فدخلت معهم لا أفارقهم ، فإن يخرجوا أخرج وإن يقعدوا أقعد .

ـــ فأعطنى زعيما بألا تخرج .

ـــ ولا أعطيك زعيما .

ـــ لولا ما أعرف من سوء خلقك صغيرًا وكبيرًا لأنكرتنى ، دعوه فأنا به زعيم .

وفى سكون الليل جاء عبد الله بن عمر أم كلثوم بنت علىّ فقال لها إنه يخرج معتمرًا مقيما على طاعة علىّ ما خلا النهوض . وأصبح علىّ فقيل له :

ـــ حدث البارحة حدث هو أشد عليك من طلحة والزبير وأم المؤمنين ومعاوية .

ـــ وما ذلك ؟

ـــ خرج ابن عمر إلى الشام .

فأتى علىّ السوق ودعا بالظهر فحمل الرجال ، وأعد لكل طريق طلابا ، وماج أهل المدينة ، وسمعت أم كلثوم بالذى هو فيه فدعت ببغلتها فركبتها فى رحل،ثم أتت عليًّا وهو واقف فى السوق يفرق الرجال فى طلبه فقالت :

ــ مالك ؟ لا تزند من هذا الرجل ، إن الأمر على خلاف ما بلغته وحدثته ، أنا ضامنة له .

فطابت نفس علىّ والتفت إلى الرجال فقال :

ــ انصرفوا ، والله ما كذبت ولا كذب وإنه عندى ثقة .

فيالعلىّ ، تألب عليه الطامعون والموتورون ، فقد خرج طلحة والزبير ولحقا بعائشة ، وفر مروان إلى مكة ، وفر عبيد الله بن عمر إلى الشام لينضم إلى معاوية لما طلبه علىّ ليقتص منه للهرمزان . لقد تجمعت المطامع والأحقاد لتخرج السلطان من بيت الرسول . ولكأنما حسد الجميع لبنى هاشم أن تجتمع فيهم النبوة والسلطان .

١٧

عائشة مقيمة بمكة تريد عمرة المُحرم ، فلما تساقط إليها الهراب استخبرت رجلا يُقال له أخضر فقالت :

ــ ما صنع الناس ؟

ــ قتل عثمان المصريين .

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون ، أيقتل قوما جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ؟ والله لا نرضى بهذا .

ووفد آخر فسألته :

ــ ما صنع الناس ؟

ــ قتل المصريون عثمان .

— العجب لأخضر زعم أن المقتول هو القاتل ، ومن أمير القوم ؟

— لم يجبهم إلى التأمير أحد .

— أكيس هذا غب ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح ؟

وتلقت عائشة نبأ مقتل عثمان فلم تثر ،ولم تطالب بدمه، بل بقيت فى مكة حتى إذا ما أتمت حجها ، وقفلت عائدة إلى المدينة لقيها عند سرف رجل من أخوالها من بنى ليث فقالت :

— ما وراءك ؟

فصمت و لم يحر جوابا .

— ويحك علينا أو لنا ؟

— لا أدرى ، قُتل عثمان وبقوا ثمانيا .

— ثم صنعوا ماذا ؟

— أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، اجتمعوا على علىّ بن أبى طالب .

فما إن صك اسم على أذن عائشة حتى اكفهر وجهها ، وتحركت عوامل الغيظ فى صدرها ، و لم تستطع كبح جماح نفسها بل قالت :

— والله ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ، ردونى ردونى . قتل والله عثمان مظلوما ، لأطلبن بدمه .

— ولِمَ ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلا فقد كفر .

— إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول .

وانصرفت عائشة إلى مكة وقد عزمت على تأليب القوم على أمير المؤمنين ولحق مروان بعائشة بمكة ، فقالت له عائشة :

— ما وراءك ؟

ـــ غلبنا على أنفسنا .

فقال له رجل من أهل مكة :

ـــ إياك وعليًّا فقد طلبك ، ففر من بين يديه .

ـــ لِمَ ؟ فوالله ما يجد إلى سبيلا ، أما هو فقد عامت أن لا يأخذنى بظن ولا ينصب على إلا اليقين ، وأيم الله لا أبالى إذا قصر على سيفه ما طال على من لسانه .

ـــ إذا أطال الله عليك لسانه طال سيفه .

ـــ كلا ؟ إن اللسان أدب والسيف حكم .

وبلغت عائشة المسجد وهى لا تقول شيئا ، ولا يخرج منها شىء ، ثم قصدت للحجر فاستمرت فيه ، وبلغ القوم عودة أم المؤمنين ، فأسرعوا إلى المسجد ليروا ما الخبر ، فلما التج المسجد قالت عائشة فى نبرات أخّاذة :

ـــ أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب . واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم ، وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرًا خلجوا ، وبادروا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام ، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم وبشرد من بعدهم ، وو الله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه،أو الثوب من درنه إذا ماصوه كما يُماص الثوب بالماء . إن عثمان قُتل مظلوما ، وإن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام .

وابتدأت الفتنة التى أيقظتها بنت ابن أبى قحافة تتحرك لتنطلق إلى أبعد مما قدرت بنت الصدِّيق ، تُرى لو كانت عائشة تعلم مدى انطلاق فتنتها أكانت تقدم على إيقاظها ؟!

وقام عبد الله بن عامر الحضرمى ، وكان عامل عثمان على مكة ليجيب أم المؤمنين فقال :

— هأنذا لها أول طالب .

وابتدأ الناس يتجمعون فى مكة حول عائشة ليناوئوا عليًّا وليطالبوا بدم عثمان ، وقدم عبد الله بن عامر من البصرة ، ويعلى بن أمية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، فأناخ بالأبطح معسكرًا .

* * *

دعا علىّ عبد الله بن عباس بعد أن خرج من عنده طلحة والزبير فقال له :

— بلغك قول هذين الرجلين ؟

— نعم بلغنى قولهما .

— فما ترى ؟

— أرى أنهما أحبا الولاية ، فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان .

فضحك علىّ ثم قال :

— ويحك ، إن العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ، ويضربا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملا أحدًا لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى .

وظل طلحة والزبير يفكران فى ترك المدينة فلقد ظهر أن عليًّا لن يستعملهما ، فجاءا إليه يوما وقالا :

— يا أمير المؤمنين ، ائذن لنا فى العُمرة . فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك ، وإن تسر نتبعك .

فنظر إليهما وقال :

— نعم والله ما العمرة تريدان ، تريدان أن تمضيا لشأنكما .

ومضيا حتى لقيا عائشة فقالت لهما :

— ما وراءكما ؟

— وراءنا أنا تحملنا بقليتنا هرابًا من المدينة من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قومًا حيارى لا يعرفون حقًا ولا ينكرون باطلا ، ولا يمنعون أنفسهم .

— فائتمروا أمرًا ، ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء .

ودخلت عائشة دارها واجتمع عندها الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن أبى بكر ومروان وعبد الله بن الزبير وبنو أمية ووجوه القوم ، وأخذوا يتشاورون فى الأمر ، فقال القوم فيما ائتمروا به :

— نلحق بالشام .

فقال عبد الله بن عامر :

— قد كفاكم الشام من يستمر فى حوزته .

— فأين ؟

— البصرة ، فإن لى فيها صنائع ، ولهم فى طلحة هوى .

— قبحك الله ، فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب ، فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكتفى بك ونأتى الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ؟

وقال بعض القوم :

— نسير إلى علىّ فنقاتله .

— ليس لكم طاقة بأهل المدينة .

واستمروا يديرون قداح الرأى بينهم حتى استقر رأيهم على الخروج إلى البصرة .

وقالوا لأم المؤمنين :

— يا أم المؤمنين ، دعى المدينة ، فإن من معنا لا يعترفون لتلك الغوغاء التى بها ، واشخصى معنا إلى البصرة ، فإنا نأتى بلدًا مضيعا ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة علىّ بن أبى طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين ، فإن أصلح الله

الأمر كان الذى تريدين ، وإلا احتبسنا ودفعنا هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد .

فوافقت عائشة ، وكانت أزواج النبى معها على قصد المدينة ، فلما تحول رأيها إلى البصرة تركن ذلك ، وانطلق القوم بعدها إلى حفصة يسألونها فقالت :

ــ رأيى تبع لرأى عائشة .

أما أم سلمة فقد ساءها اعتزام عائشة على الخروج فكتبت لها : أما بعد ، فإنك سدة بين رسول الله وبين أمته ، وحجابك مضروب على حرمته ، قد جمع القرآن الكريم ذيلك فلا تبذليه ، وسكن عقيرتك فلا تضيعيه ، الله من وراء هذه الأمة ، قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد إليك ، وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن انصدع ، خمرات النساء غض الأبصار وضم الذيول ، ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات على قعود من الإبل من منهل إلى منهل أن يعين الله مهواك ، وعلى رسول الله تردين وقد هتكت حجابه الذى ضرب الله عليك عهيداه ، ولو أتيت الذى تريدين ثم قيل لى ادخلى الجنة لاستحييت أن ألقى الله هاتكة حجابًا قد ضربه على ، فاجعلى حجابك الذى ضرب عليك حصنك فابغيه منزلا لك حتى تلقيه ، فإن أطوع ما تكونين إذا ما لزمته ، وأنصح ما تكونين إذا ما قعدت فيه ، ولو ذكرت كلامًا قاله رسول الله ﷺ لنهشتنى نهش الحية والسلام .

فكتبت عائشة إليها : « ما أقبلنى لوعظك ، وأعلمنى بنصحك ، ولسيس مسيرى على ما تظنين ، ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متناجزتين ، فإن أقدر ففى غير حرج ، وإن أحرج فلا غنى بى عن الازدياد والسلام » .

ورأت أم الفضل ما يُبيت لأمير المؤمنين ، فلم تستطع صبرًا ، بل كتبت له كتابًا ، واستأجرت رجلا من جهينة على أن يطوى ويأتى عليًا بكتابها ، فانطلق الرجل ينهب الأرض ليبلغ أمير المؤمنين نبأ المتآمرين .

وذهب القوم يبحثون عن جمل شديد ، يحملون عليه أم المؤمنين ، ورأى يعلى

جملا قويًا فاتجه إلى صاحبه وقال :

ــ يا صاحب الجمل ، تبيع جملك ؟

ــ نعم !

ــ بِكم ؟

ــ بألف درهم .

ــ مجنون أنت ، جمل يُباع بألف درهم ؟

ــ نعم ، جملى هذا :

ــ ومِم ذلك ؟

ــ ما طلبت عليه أحدًا قط إلا أدركته ، ولا طلبنى وأنا عليه أحد قط إلا فته .

ــ لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا .

ــ ولمن تريده ؟

ــ لأمك .

ــ لقد تركت أمى فى بيتنا قاعدة لا تريد براحًا .

ــ إنما أريده لأم المؤمنين عائشة .

ــ فهو لك . فخذه بغير ثمن .

ــ لا . ولكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهرية ونزيدك دراهم .

ورجع الرجل وصاحب الجمل إلى الرحل ليأخذ ناقة عائشة وستمائة درهم .

و لم يبق إلا الخروج فقالوا :

ــ كيف نستقل وليس معنا مال نجهز به الناس ؟

فقال يعلى بن أمية :

ــ معى ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها .

فنادى المنادى :

ــ إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ، و لم يكن عنده مركب و لم يكن له

جهاز ، فهذا جهاز وهذه نفقة .

وأرادت حفصة الخروج ، فأتاها عبد الله بن عمر ، فطلب إليها أن تقعد فقعدت ، وبعثت إلى عائشة :

— إن عبد الله حال بينى وبين الخروج .

فقالت عائشة :

— يغفر الله لعبد الله .

وابتدأ الرحيل ، فسحت العيون ، وجرت الدموع ، وارتفع النحيب والنشيج فما من خارج للقتال إلا وقد بكى ، وما من شاهد للخروج إلا ودمعه منهمر ، وحزنه ثقيل ، فإنه ليرى خروج المسلمين لقتال المسلمين ، فلم ير يوم كان أكثر باكيًا على الإسلام ، أو باكيًا له من ذلك اليوم ، يوم النحيب .

وانطلق القوم إلى الغيب المجهول ، وانطلقوا وكل منهم يمنى النفس ، وما دار بخلدهم أنهم سيخرجون منها جميعًا صفر اليدين ، وأنهم سيقتلون ويُقتلون لينالها غيرهم ، ولكن ذلك كان فى سجل القدر مكتوبًا .

١٨

خرج الركب من مكة واستمر فى السير حتى قابلهم سعيد بن العاص ، فخلا بطلحة والزبير وقال لهما :

ــ إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر ؟ أصدقانى .

ــ لأحدنا أينا اختاره الناس .

ــ بل اجعلوه لولد عثمان ، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه .

ــ ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم .

ــ فلا أرانى أسعى لأخرجها من بنى عبد مناف .

ورجع . فقال المغيرة بن شعبة وكان قد لحق بأم المؤمنين بعد أن قال لأمير المؤمنين إنه قاعد فى داره .

ــ الرأى ما رأى سعيد .. من كان هنا من ثقيف فليرجع .

واستأنف الركب سيره ، وحان أوان الصلاة ، فأذن مروان ، ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير وقال :

ــ أيكما أسلم بالأمر وأؤذن بالصلاة ؟

فقال عبد الله بن الزبير :

ــ على أبى عبد الله .

وقال محمد بن طلحة :

ــ بل على أبى طلحة .

وأطلت الفتنة بخطمها وكاد الشقاق يقع لولا أن تداركت عائشة الأمر فأرسلت إلى مروان :

ــ مالك ، أتريد أن تفرق أمرنا ! فليصل ابن أختى .

فصلى عبد الله بن الزبير بالناس ، ترى ما يكون الأمر ، أيخلى الزبير بين طلحة والأمر . أم يخلى طلحة بين الزبير والأمر ؟!

ورحل القوم ، وكانوا كلما مروا على ماء أو واد سألوا الدليل عنه حتى طرقوا ماء ، فأخذت الكلاب تنبح ، وسألوا الدليل :

ـــ أى ماء هذا ؟

ـــ ماء الحوأب .

فعادت الذكرى بعائشة القهقرى ، فتذكرت يوم قال النبى لنسائه : « ليت شعرى أيتكن التى تنبحها كلاب الحوأب » ، ففزعت وصرخت بأعلى صوتها :

ـــ أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقًا ، ردونى ، أنا صاحبة كلاب الحوأب ردونى ردونى .

وضربت عضد بعيرها وأناخته ، فأناخ الناس حولها ، وانقضى يوم وعائشة لا تبرح مكانها ، ولا تثنى عن عزمها . بل تطلب منهم أن يردوها ، وانقضى الليل وقبل أن تشرق الشمس كان عبد الله بن الزبير قد فكر ودبر . فجاء أم المؤمنين وهو يصيح :

ـــ النجاة .. النجاة ، فقد أدرككم والله علىّ بن أبى طالب .

* * *

جاء عليًا خبر عائشة وطلحة والزبير ، فخرج وهو يرجو أن يأخذهم بالطريق ، فيحول بينهم وبين الخروج ، فلقيه عبد الله بن سلام ، فأشفق على خروجه فأخذ بعنانه وقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، بالله لا تخرج منها ، فوالله لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدًا .

فسبه الناس ، فقال الإمام :

ـــ دعوا الرجل ، فنعم الرجل من أصحاب محمد ﷺ .

وخرج علىّ من مدينة الرسول قاصدًا الربذة ليرد الخارجين ، ولكن بلغه أنهم

فاقوه ، فعزم على أن يخرج فى آثارهم ، وقابل بعض حجاج الكوفة أمير المؤمنين فى الربذة وعلموا بما عزم عليه ، فبان فى وجوههم الحيرة ، فما كانوا يدرون أينضمون إلى علىّ ويقاتلون طلحة والزبير وأم المؤمنين أم يخالسونه ؟ إن هذا لشديد .

وعلم الحسن داعية السلام ما عزم عليه أبوه فأتاه وقال له :

ـــ قد أمرتك فعصيتنى فتقتل غدًا بمضيعة لا ناصر لك .

ـــ إنك لا تزال تحن حنين الجارية ، وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟

ـــ أمرتك يوم أُحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيُقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قُتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر ، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يد غيرك ، فعصيتنى فى ذلك كله .

ـــ أى بُنى ، أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار ، فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان وهنًا على أهل الإسلام ووالله ما زلت مقهورًا قد وليت ، منقوصًا لا أصل إلى شىء مما ينبغى ، وأما قولك اجلسْ فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى أو من تريدنى ، أتريد أن أكون مثل الضبع التى يُحاط بها ويُقال دباب دباب ليست ههنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج . وإذا لم أنظر فيما لزمنى من هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر فيها ؟ فكف عنك أى بنى .

وأقام الإمام بالربذة أيامًا ، وأتاه عن القوم أنهم يريدون البصرة فسرى بذلك عنه وقال :

ـــ إن أهل الكوفة أشد إلىّ حبًا وفيهم رءوس العرب وأعلامهم .

وأتته جماعة من طيئ قد أتتك منهم من يريد الخروج معك . ومنهم من يريد التسليم عليك .

ـــ جزى الله كلا خيرا ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا .

ثم دخلوا عليه فقال :

— ما شهدتمونا به ؟

— شهدناك بكل ما تحب .

— جزاكم الله خيرا ، فقد أسلمتم طائعين وقاتلتم المرتدين ووافيتم بصدقاتكم المسلمين ، فنهض سعيد بن عبيد الطائى فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن من الناس من يعبر لسانه عما فى قلبه ، وإنى والله ما كل ما أجد فى قلبى يعبر عنه لسانى وسأجهد وبالله التوفيق ، وأما أنا فسأنصح لك فى السر والعلانية وأقاتل عدوك فى كل موطن ، وأرى لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك .

— رحمك الله ، قد أدى لسانك عما يجن ضميرك .

وقام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال :

— يا أمير المؤمنين ، أى شىء تريد ، وإلى أين تذهب بنا ؟

— أما الذى نريد وننوى فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه .

— فإن لم يجيبونا إليه ؟

— ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر .

— فإن لم يرضوا ؟

— ندعهم ما تركونا .

— فإن لم يتركونا ؟

— امتنعنا منهم .

— فنعم إذًا .

وخرج أمير المؤمنين بعد أن بعث محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر برسالة إلى الكوفة وكان على مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية ، وعلى الميمنة عبد الله بن عباس وعلى الميسرة عمر بن أبى سلمة .

— بلغ عثمان بن حنيف عامل البصرة لعلى بن أبى طالب أن طلحة والزبير وأم

المؤمنين قد بلغوا فناء البصرة ، فقام فقال :

— يأيها الناس ، إنما بايعكم الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا ، والله لو علم علىّ أن أحدًا أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع من بايعوا وأطاع من ولوا ، وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة وما بأحد عنه غنى ، ولقد شاركهم فى محاسنهم وما شاركوه فى محاسنه ، ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريد الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ، وطلبا ثواب الله من العباد . وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين ، فإن كانا استكرها قبل بيعتهما وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولا ولا يأمرا ،ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة ، والعامة على بيعة علىّ ، فما ترون أيها الناس ؟

فقام حكم بن جبل العبدى فقال :

— نرى إن دخلا علينا قاتلناهما ، وإن وقفا تلقيناهما ، والله لا أبالى أن أقاتلهما وحدى وإن كنت أحب الحياة ، وما أخشى فى طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشًا ولا سوء منقلب إلى بعث ، وإنها لدعوة قتيلها شهيد ، وحيها فائز ، والتعجيل إلى الله قبل الأجر خير من التأخير فى الدنيا ، وهذه ربيعة معك .

ورأى عثمان بن حنيف أن يبعث إلى القادمين عمران بن حصين ، وكان رجل عامة ، وأبا الأسود الدؤلى وكان رجل خاصة ، ليعلما له علمهم . فانطلقا حتى إذا جاءا طلحة ناديا :

— يا طلحة .

فأجابهما ، فتكلم أبو الأسود الدؤلى فقال :

— يا أبا محمد ، إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا فى قتله ، وبايعتم عليًّا غير مؤامرين لنا فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان إذ قتل و لم نغضب لعلىّ إذ بويع ، ثم بدا لكم فأردتم خلع علىّ ونحن على الأمر الأول ، فعليكم المخرج مما دخلتم فيه .

ثم تكلم عمران فقال :

ــ يا طلحة ، إنكم قتلتم عثمان ولم نغضب له إذ لم تغضبوا ، ثم بايعتم عليًّا وبايعنا من بايعتم ، فإن كان قتل عثمان ثوابًا فمسيركم لماذا ؟ وإن كان خطأ فحظكم منه الأوفر ، ونصيبكم منه الأوفى .

فقال طلحة :

ــ يا هذان ، إن صاحبكما لا يرى أن معه فى هذا الأمر غيره وليس على هذا بايعناه ، وأيم الله ليسفكن دمه .

فقال أبو الأسود :

ــ يا عمران ، أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك .

ثم أتيا الزبير فقالا :

ــ يا أبا عبد الله ، إنا أتينا طلحة .

ــ إن طلحة وإياى كروح فى جسدين ، وإنه والله يا هذا ، قد كانت منا فى عثمان فلتات احتجنا فيها إلى المعاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه .

وانطلقا حتى انتهيا إلى أم المؤمنين ، وكانت بالحفير والناس عندها ، فاستأذنا فأذنت لهما فسلما فقالا :

ــ إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟

ــ والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر ، إن الغوغاء من أهل الأمصار ، ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المؤمنين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض ، وأقاموا فى دار كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين ، غير نافعين ولا متقين ، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون ، فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا .

والتفتت إلى أبى الأسود فقالت :

ــ يا أبا الأسود ، إياك أن يقودك الهوى إلى النار ، ﴿ كونوا قوّامين شُهداء بالقِسط ﴾ وخرج الرجلان وقد تبلبلت أفكارهما ، فما يفعلان أينضمان إلى عائشة فيقاتلان أمير المؤمنين وابن عم الرسول ، أم ينضمان إلى علىّ فيقاتلان زوجة الرسول وحوارىّ الرسول ، ومن ذب عن الرسول يوم أُحد حتى أصيبت يده ! والله إنها لحيرة كبرى ، وفكر عمران أن يعتزل ، وكان هوى أبى الأسود مع علىّ ، فلما دخل على عثمان بن حنيف قال أبو الأسود :

يابن حنيف قد أتيت فانفر   وطاعن القوم وجالد واصبر

وابـرز لهم مستلئمـا وشمر

فقال عثمان بن حنيف :

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون ، دارت رحى الإسلام ورب الكعبة ، فانظروا بأى زيفان نزيف .

فقال عمران فى أسى :

ــ إى والله لتعركنكم عركًا طويلا ثم لا يساوى ما بقى منكم شىء .

ــ فأشر على يا عمران .

ــ إنى قاعد فاقعد .

ــ بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين علىّ .

ــ بل يحكم الله ما يريد .

فانصرف عمران إلى بيته يعتزل وأتى عثمان هشم بن عامر فقال :

ــ يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شىء مما تكره ، إن هذا فتق لا يُرتق ، وصدع لا يجبر ، فسامحهم حتى يأتى أمر علىّ ، ولا تحادهم .

فأبى ونادى عثمان فى الناس وأمرهم بالتهيؤ ، ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى المسجد الجامع ، وأقبل عثمان على الكيد فكاد لينظر ما عندهم ، وأمرهم بالتهيؤ وأمر رجلا ودسه إلى الناس فقام وقال :

ــ يأيها الناس ، أنا قيس بن العقدية الحميسى ، إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم

خائفين فقد جاءوا من المكان الذى يأمن فيه الطير ، وإن كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان رضى الله عنه ، فما نحن بقتلة عثمان ، أطيعونى فى هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاءوا .

فقام الأسود بن سريع السعدى فقال :

— أوَزعموا أنَّا قتلة عثمان رضى الله عنه ، فإنما فزعوا إلينا يستعينوا بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا ، فإن كان القوم أُخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم من إخراجهم الرجال أو البلدان .

فحصبه الناس ، فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصرًا بمن يقوم معهم ، فكره ذلك . وأقبلت عائشة رضى الله عنها فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد ودخلوا من أعلاه أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه ، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها ويكون معها ، فاجتمعوا بالمربد ، وجعلوا يثوبون حتى غص بالناس ، فتكلم طلحة ثم الزبير وكان أنصار عائشة فى ميمنة المربد وأنصار علىّ فى ميسرته فما انتهى الزبير من كلمته حتى قال مَن فى ميمنة المربد :

— صدقا وبرًّا وقالا الحق ، وأمرا بالحق .

وقال من ميسرته :

— فجرا وغدرا وقالا الباطل وأمرا به . قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان .

وتجافى الناس وتحاصبوا وأرهجوا ؛ فتكلمت عائشة وكانت جهورية ساحرة الإلقاء ؛ فأعارها الجميع السمع ، فحمدت الله جل وعز وأثنت عليه وقالت :

— كان الناس يتجنون على عثمان رضى الله عنه ، ويزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ، ونجدهم فجرة كذبة يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر ، ألا إن مما ينبغى لا ينبغى لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه وإقامة كتاب الله عز وجل ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾

فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين فقالت فرقة :

— صدقت والله وبرت وجاءت والله بالمعروف .

وقال الآخرون :

— كذبتم والله ما نعرف ما تقولون .

وقال جارية بن قدامة السعدى :

— يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك ، إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك . إن كنت أتيتنا طائعة فارجعى إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس .

فخرج غلام شاب من بنى سعد إلى طلحة والزبير :

— أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ﷺ ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ﷺ بيدك ، وأرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكما ؟

— لا . .

— فما أنا منكما فى شىء .

واعتزل وقال :

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم   هذا لعمرك قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها فى بيتها   فهوت تشق البيد بالإيجاف
غرضًا يقاتل دونها أبناؤها   بالنبل والخطى والأسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها   هذا المخبر عنهم والكافى

واستعد أصحاب عثمان للقتال ، وبزغت الشمس فدار القتال وكثر القتلى فى أصحاب ابن حنيف وفشت الجراحة فى الفريقين ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا أصحاب عائشة إلى الصلح فأجابوهم وتواعدوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير بالأمر أمرهما وإن شاء عثمان خرج حتى

يلحق بطيبة ، وإن شاء دخل معهما ، وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان ، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة علىّ ، وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما ، والمؤمنون أعوان الفالح منهما .

وخرج الرسول حتى قدم المدينة فاجتمع الناس لقدومه ، فقام فقال :

ـــ يا أهل المدينة ، إنى رسول أهل البصرة إليكم ، أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة على أم أتياها طائعين ؟

فلم يجبه أحد من القوم ، إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قام فقال :

ـــ اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان .

وثار أنصار علىّ فالتفوا به ، وثار عدة من أصحاب رسول الله حين خافوا أن يقتل أسامة فانفرجوا عنه . وأخذ صهيب بيده فأدخله منزله وقال :

ـــ قد علمت أن أم عامر حامقة ، أما وسعك ما وسعنا من السكوت .

ـــ لا والله ما كنت أرى أن الأمر يترامى إلى ما رأيت وقد أبسلنا العظيم .

وبلغ عليًّا الخبر الذى كان بالمدينة من ذلك ، فبادر بالكتاب إلى عثمان ، وقدم الكتاب على عثمان بن حنيف وقدم رسول القوم إلى المدينة ، فأرسلوا إلى عثمان أن اخرج عنا فاحتج عثمان بالكتاب وقال :

ـــ هذا أمر آخر غير ما كنا فيه .

ودخلوا على عثمان فى قصره فضربوه ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه .

وتكلم طلحة . ثم قام الزبير ليتكلم فأظهر عيب علىّ ، فقام إليه رجل من عبد القيس فقال :

ـــ أيها الرجل أنصت حتى نتكلم .

فقال عبد الله بن الزبير :

ـــ ومالك وللكلام ؟

ـــ يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ ، فكان لكم بذلك

فضل ، ثم دخل الناس فى الإسلام كما دخلتم ، فلما توفى رسول الله ﷺ بايعتم رجلا منكم ، والله ما استأمرتمونا فى شيء من ذلك فرضينا واتبعناكم ، فجعل الله عز وجل للمسلمين فى إمارته بركة ، ثم مات رضى الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم فلم تشاورونا فى ذلك فرضينا وسمعنا ، فلما توفى الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه على غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليًّا من غير مشورة ، فما الذى نقمتم عليه فتقاتله ؟ هل استأثر بفىء أو عمل بغير الحق أو عمل شيئًا تنكرونه فنكون معكم عليه ، وإلا فما هذا ؟

فضاق صدر القوم فإن ما يقوله الرجل حق ، فقد كانت البيعة بيعة الأنصار والمهاجرين بالمدينة فما كانوا يشاورون الأنصار قبل أن يبرموا أمرهم ، فما بالهم يأتونهم اليوم يطلبون منهم قتال أمير المؤمنين ؟ فهموا بقتل الرجل ولكن قام من دونه عشيرته ، فصبر القوم وقد عزموا على أمر ، وانقضى اليوم فلم يستطيعوا أن ينسوا ذلك الرجل الذى أفحمهم ، وبزغت شمس اليوم الثانى فخرجوا لقتله ، ولكنهم وجدوا أناسًا معه ، فهجموا على الرجل فقتلوه وقتلوا معه سبعين رجلا .

١٩

خرج محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن جعفر من الربذة ، وانطلقا برسالة علىّ إلى الكوفة ، وأغذا فى السير حتى دخلا على الناس ، فقام محمد بن أبى بكر يقرأ كتاب أمير المؤمنين :

ـــ إنى اخترتكم على الأمصار ، وفزعت إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعوانًا وأنصارا وأيدونا وانهضوا إلينا ، فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة إخوانا ، ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره ، ومن بغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه .

وراح محمد يحادث وجوه القوم ، وجعل محمد بن جعفر يزين للناس الخروج

ويطلب منهم أن ينفروا لعلىّ ، ولكن الناس لم يجيبوهما إلى شىء ، فلما جاء المساء دخل الناس على أبى موسى الأشعرى عامل الكوفة وقالوا له :

— ما ترى فى الخروج ؟

— كان الرأى بالأمس ليس باليوم ، إن الذى تهاونتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ما ترون ، وما بقى إنما هما أمران ، القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا فاختاروا .

وبلغ محمد بن أبى بكر أن أبا موسى يثبط الناس عنهم ، فثار ودخل ومحمد بن جعفر عليه ، وأغلظا له فى القول ، فقال :

— والله إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما ، فإن لم يكن بد من قتال ، لا نقاتل أحدًا حتى يفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

وفشلا فى سفارتهما فلم ينفر أحد لنصرة علىّ ، فعادا ليبلغا أمير المؤمنين ما فعل أبو موسى .

وسار علىّ من الربذة ، والقبائل تنضم إليه فى سيره حتى انتهى إلى ذى قار ، فقدم عليه عثمان بن حنيف وليس فى وجهه شعر ، فلما رآه علىّ نظر إلى أصحابه ، فقال :

— انطلق هذا من عندنا وهو شيخ فرجع إلينا وهو شاب .

* * *

انطلق محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر إلى علىّ فوافياه بذى قار وأخبراه الخبر وكان الأشتر عنده ، فقال علىّ :

— يا أشتر أنت صاحبنا فى أبى موسى والمعترض فى كل شىء ، اذهب أنت وعبد الله بن عباس فأصلح ما أفسدت .

فخرج عبد الله بن عباس ومعه الأشتر ، فقدما الكوفة ، وكلما أبا موسى ، واستعانا عليه بأناس من الكوفة فقال أبو موسى للكوفيين :

— أنا صاحبكم يوم الجرعة وأنا صاحبكم اليوم .

فجمع الناس فخطبهم وقال :

ـــ يأيها الناس ، إن أصحاب النبى ﷺ الذين صحبوه فى المواطن أعلم بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا حقًا ، فأنا مؤديه إليكم ، كان الرأى أن لا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترئوا على الله عز وجل ، وكان الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ولا تكلفوا الدخول فى هذا ؛ فأما إذا كان ما كان فإنها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من الراكب ، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف ، وانصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة .

وفشل الأشتر وابن عباس فى سفارتهما ، فرجع ابن عباس إلى علىّ بالخبر ، فدعا الحسن فأرسل معه عمار بن ياسر فقال له :

ـــ انطلق فأصلح ما أفسدت .

فانطلق الحسن بن علىّ وعمار بن ياسر إلى أهل الكوفة ، فقام الأشتر إلى علىّ فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، إنى بعثت إلى أهل الكوفة رجلا قبل هذين فلم أره أحكم شيئًا ولا قدر عليه ، وهذان أخلق من بعثت أن ينشب بهم الأمر على ما تحب ، ولست أدرى ما يكون ، فإنى رأيت أكرمك الله يا أمير المؤمنين أن تبعثنى فى أثرهم فإن أهل المصر أحسن شىء لى طاعة ، وإن قدمت عليهم رجوت ألا يخالفنى منهم أحد .

ـــ الحق بهم .

أقبل الحسن وعمار حتى دخلا المسجد ، وبلغ أبا موسى وصول الحسن فخرج لاستقباله ، فلما لقيه ضمه ، وأقبل أبو موسى على عمار فقال :

ـــ يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين ، فأحللت نفسك مع

الفجار ؟.

— لم أفعل ، ولِمَ تسوؤنى ؟.

وكاد الحديث بينهما يشتد ، ولكن الحسن قطعه عليهما ، فأقبل على أبى موسى وقال :

— يا أبا موسى ، لم تثبط الناس عنّا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء .

— صدقت بأبى أنت وأمى . ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب . وقد جعلنا الله إخوانا وحرم علينا أموالنا ودماءنا وقال : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنَوا لا تأكُلوا أمْوالكُم بينَكم بالباطِلِ ﴾ ، ﴿ ولا تَقْتلوا أنْفسكُم إنَّ الله كانَ بكُم رحيِمًا ﴾ وقال جل وعز ﴿ ومَنْ يقْتُل مؤمنًا متُعمدًا فجزَاؤه جَهنَّم ﴾ .

فغضب عمار وساءه وقام وقال :

— يأيها الناس إنما قال له خاصة أنت فيها قاعدًا خير منك قائمًا .

فقام رجل من بنى تميم فقال لعمار :

— اسكت أيها العبد ، أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسافه أميرنا .

وثار الناس ، وجعل أبو موسى يكفكف الناس ، ثم انطلق حتى أتى المنبر ، فقام رجل فقال :

— يا أبا موسى ، هل كان هذان الرجلان ممن بايع عليًا ؟.

— نعم .

— هل أحدث حدثًا يحل نقض بيعته ؟

— لا أدرى .

— لا دريت ، فإنّا تاركوك حتى تدرى ، يا أبا موسى هل تعلم أحدًا خارجًا من هذه الفتنة التى تزعم أنها هى فتنة ، إنما بقى أربعة قرون ، علىّ بظهر الكوفة

وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة أخرى بالحجاز لا يجبى بها فئ ، ولا يقاتل بها عدو .

— أولئك خير الناس .

— يا أبا موسى غلب عليك غشك .

ودخل الأشتر الكوفة وقد اجتمع الناس فى المسجد الأعظم ، فجعل لا يمر بقبيلة يرى فيها جماعة فى مجلس أو مسجد إلا دعاهم ويقول :

— اتبعونى إلى القصر .

وأقبل زيد بن عبد القيس رسول عائشة إلى أهل الكوفة ، فوقف بباب المسجد ، وترجل وربط حماره ، ثم صعد المنبر يقرأ على الناس كتاب أم المؤمنين :

— أما بعد فثبطوا أيها الناس واجلسوا فى بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

فلما فرغ من الكتاب قال :

— أمرت بأمر وأمرنا بأمر : أمرت أن تقر فى بيتها فأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به وركبت ما أمرنا به .

فعجب الناس لرسول عائشة ، فقام إليه شبث بن ربعى فقال :

— يا عمانى ، سرقت بجلواء فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله ، ما أمرت إلا بما أمرنا الله عز وجل بالإصلاح بين الناس .

وتهاوى الناس وقام أبو موسى فقال :

— أيها الناس ، أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، يأوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف . إنا أصحاب محمد ﷺ أعلم بما سمعنا ، إن الفتنة إذا أقبلت شبهت ، وإذا أدبرت بينت ، وإن هذه الفتنة باقرة كداء البطن ، تجرى بها الشمال والجنوب ، والصبا والدبور ، فتسكن أحيانا فلا يدرى من أين تؤتى ، تذر الحليم كابن أمس . شيموا سيوفكم ، فصدوا رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزموا بيوتكم ، خلوا قريشا إذا أبوا إلا الخروج من دار الهجرة

وفراق أهل العلم بالإمرة ترتق فتقها ، وتشعب صدعها ، فإن فعلت فلأنفسها سعت ، وإن أبت فعلى أنفسها جنت ، سمنها تهريق فى أديمها ، استنصحونى ولا تستغشونى ، وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها .

فصاح الحسن به :

ـــ اعتزل عملنا لا أم لك ، وتنح عن منبرنا .

فقال له عمار :

ـــ أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟

ـــ هذه يدى بما قلت .

ـــ إنما قال لك رسول الله ﷺ هذا خاصة ، فقال : أنت فيها قاعدا خير منك قائمًا . غلب الله من غالبه وجاحده .

وقام زيد رسول عائشة فشال يده المقطوعة فقال :

ـــ يا عبد الله بن قيس ، رد الفرات عن دراجه ، اردده من حيث يجئ حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ، فدع عنك ما لست مدركه ، سيروا إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق .

وخرج على الناس غلمان لأبى موسى يشتدون ينادون :

ـــ يا أبا موسى ، هذا الأشتر قد دخل القصر فضربنا وأخرجنا .

فهرع أبو موسى إلى القصر ، وقام القعقاع بن عمرو فقال :

ـــ إنى لكم ناصح وعليكم شفيق ، أحب أن ترشدوا ولأقولن لكم قولا هو الحق ، أما ما قال الأمير فهو الأمر لو أن إليه سبيلا ، وأما ما قال زيد فزيد فى هذا الأمر فلا تستنصحوه ، فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها وجرى إليها ، والقول هو القول إنه لا بد من إمارة تنظم الناس وتزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا علىّ يلى بما ولى وقد أنصف فى الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا

الأمر برأى ومسمع .

وقال سيحان :

ـــ أيها الناس ، إنه لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ويجمع الناس . وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه ، وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين ، فمن نهض إليه فإنا سائرون معه .

وتذكر الحسن أنه نصح أباه مراراً أن يعتزل الأمر ، ولكن هاهى حجج تمحق حجته ، فلمن كان يدع الإمام الظالم والمظلوم لو عمل بنصيحة الحسن واعتزل الناس ، وأطرق الحسن قليلا فقام عمار فقال :

ـــ هذا ابن عم رسول الله ﷺ يستنفركم إلى زوجة رسول الله ﷺ وإلى طلحة والزبير ، وإنى أشهد أنها زوجته فى الدنيا والآخرة ، فانظروا ثم انظروا فى الحق فقاتلوا معه .

فقال رجل :

ـــ يا أبا اليقظان ، لهو مع من شهدت له بالجنة على من لم تشهد له .

فقال الحسن :

ـــ اكفف عنا يا عمار فإن للإصلاح أهلا .

وقام الحسن بن على فقال :

ـــ يأيها الناس ، أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يليه أولو النهى أمثل فى العاجلة ، وخير فى العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم .

وقام هند بن عمرو فقال :

ـــ إن أمير المؤمنين قد دعانا وأرسل إلينا رسله حتى جاءنا ابنه ، فاسمعوا إلى قوله ، وانتهوا إلى أمره ، وانفروا إلى أميركم فانظروا معه فى هذا الأمر وأعينوه برأيكم .

وقام حجر بن عدى فقال :

ـــ أيها الناس ، أجيبوا أمير المؤمنين وانفروا خفافا وثقالا ، مروا أن أمر لكم .

وقال الحسن :

ـــ أيها الناس ، إنى غاد فمن شاء منكم أن يخرج معى على الظهر ومن شاء فليخرج فى الماء .

١٠

قدم أهل الكوفة على الإمام فى ذى القار ، فدعا القعقاع بن عمرو فأرسله إلى أهل البصرة وقال له :

ـــ الق هذين الرجلين يابن الحنظلية ، فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة . كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه منى وصاة .

ـــ نلقاهم بالذى أمرت به ، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى اجتهدنا الرأى ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى .

ـــ أنت لها .

فخرج القعقاع حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة رضى الله عنها فسلم عليها وقال :

ـــ أى أمه ، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟

ـــ أى بنى ، إصلاح بين الناس .

ـــ فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما .

فبعثت إليهما فجاءا فقال :

ـــ إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت إصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ، أمتابعان أم مخالفان ؟

ـــ متابعان .

ـــ فأخبرانى ما وجه هذا الإصلاح ، فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح .

ـــ قتلة عثمان رضى الله عنه ، فإن هذا إن تُرك كان تركًا للقرآن ، وإن عُمل به

كان إحياءً للقرآن .

— قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، فأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذى أفلت فمنعه ستة آلاف وهم على رجل ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليهم ، فالذى حذرتم وقريتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير .

فقالت أم المؤمنين :

— فتقول أنت ماذا ؟

— أقول هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر وبعثة الله فى هذه الأمة هزاهزها ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له ، فيصرعنا وإياكم ، وأيم الله إنى لأقول وأدعوكم إليه وإنى خائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التى قل متاعها ، ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذى حدث ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل .

— نعم ، إذًا قد أحسنت وأصبت المقالة ، فارجع فإن قدم علىّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر .

وانطلق القعقاع مسرورًا ، فقد حسب أنه قد وفق لحقن دماء المسلمين ، وقفل عائدًا إلى أمير المؤمنين وقص عليه ما جرى فأعجبه ذلك ، وذاع فى معسكر علىّ نبأ اتفاق القوم على الصلح ، فأظهر الناس سرورهم ، وقام علىّ وخطبهم وقال :

— ألا وإنى راحل غدا فارتحلوا ، ألا ولا يرتحلن غدًا أحد أعان على عثمان رضى

الله عنه ، بشيء فى شيء من أمور الناس ، وليغن السفهاء عن أنفسهم .

وكان ابن سبأ الذى قلب الأمصار على عثمان يستمع إلى خطبة علىّ فساءه أن يكون صلحا ، إنه يريد الفرقة للمسلمين ، وإنه ليعمل على توسيع شقة الخلاف بينهم منذ أسلم إلى اليوم ، فما بال القوم يفكرون فى الاتفاق ، إن هذا لن يكون .

وانطلق ابن سبأ يفكر ، فوسوس له شيطانه أن يجمع من اشترك فى قتل عثمان ليوغر صدورهم على هذا الصلح فيعملوا على تعكيره وعدم وقوعه .

واجتمع بنفر ممن مشوا إلى عثمان ، وراحوا يديرون قداح الرأى بينهم ، فقالوا :

ـــ ما الرأى وهذا والله علىّ وهو أبصر الناس بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك وهو يقول ما يقول ، ولم ينفر إليه سوانا والقليل من غيرنا ، فكيف به إذا شام القوم وشاموه ، وإذا رأوا قلتنا فى كثرتهم ؟

فقال أحدهم :

ـــ رأى الناس فينا والله واحد ، وإن يصطلحوا وعلىّ فعلى دمائنا ، فهلموا فلنتواثب على علىّ فنلحقه بعثمان فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون .

فقال ابن سبأ :

ـــ بئس الرأى رأيت .

واستمر القوم فى حوار ، وكاد عقدهم ينفرط دون أن يتخذوا قرارا ، فقال أحدهم :

ـــ أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ، ولا تؤخروا أمرا ينبغى لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمرًا ينبغى لكم تأخيره ، فإنا عند الناس بشر المنازل ، فما أدرى ما الناس صانعون غدا إذا ما هم التقوا .

فقال ابن السوداء ما كان قد بيت عليه العزم :

ـــ إن عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم ، وإذا التقى الناس غدا فأنشبوا القتال ، ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجدون بدا من أن يمتنع ، ويشغل الله عليًّا

وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون .

فأعجبهم الرأى ، وعزموا عليه ، وانصرفوا جميعًا يبيتون الغدر ، وانصرف ابن سبأ كما ينصرف الشيطان بعد أن تتم غوايته .

* * *

وقدم علىّ البصرة فدخل مما يلى الطف ، فورد موكب نحو ألف فارس يتقدمهم أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله ، على فرس أشهب ، عليه قلنسوة وثياب بيض ، متقلدا سيفا ، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة مدججين فى الحديد والسلاح ، ثم تلاهم خزيمة بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين ، عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفا ، متنكب قوسا معه راية على فرس أشقر ، فى نحو ألف فارس ، ثم أقبل أبو قتادة بن ربعى على فرس كميت معتم بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض مصقول ، متقلد سيفا ، متنكب قوسا فى نحو ألف فارس من الناس ومعه راية ، ثم أقبل عمار بن ياسر فى عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، وعمار على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء ، قد سدلها بين يديه ومن خلفه ، شديد الأدمة ، عليه سكينة ووقار ، رافع صوته بقراءة القرآن متقلدا سيفا متنكب قوسا ، معه راية بيضاء ، فى ألف من الناس مختلفى التيجان ، حوله مشيخة وكهول وشباب ، كأن قد أوقفوا للحساب ، أثر السجود قد أثر فى جباههم ، ثم أقبل قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى على فرس أشقر عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء متنكب قوسا ، متقلد سيفا تخط رجلاه فى الأرض فى ألف من الأنصار وغيرهم من قحطان ، الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض ، معه راية صفراء ، ثم أقبل عبد الله بن عباس وما رأى الناس أحسن منه ، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه بلواء ، فى عدة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضًا واشتبكت الرماح ، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس كأن على رءوسهم الطير فقد كان يقدمهم علىّ بن أبى طالب ابن عم الرسول

وخليفة المسلمين ، والإمام العظيم وعن يمينه وشماله الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وريحانتا الرسول ومحمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى ، وخلفه عبد الله بن جعفر ، ابن أخيه وزوج ابنته زينب ، وولد عقيل وغيرهم من فتيان بنى هاشم ومشايخ أهل بدر من المهاجرين والأنصار .

وانطلقوا حتى نزلوا الزاوية ، فصلى علىّ أربع ركعات ، وعفر خديه على التربة وقد خالط ذلك دموعه ،ثم رفع يديه يدعو :

ــ اللهم رب السموات وما أظلت ، والأرضين وما أقلت ، ورب العرش العظيم ؛ هذه البصرة أسألك من خيرها ، وأعوذ بك من شرها ، اللهم أنزلنا فيها خير نزل ، وأنت خير المنزلين ، اللهم هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتى ، وبغوا على ، ونكثوا بيعتى ، اللهم احقن دماء المسلمين .

ونزل علىّ بحيال جيوش عائشة وطلحة والزبير ، فنزلت القبائل إلى قبائلهم ؛ مضر إلى مضر ، وربيعة إلى ربيعة ، واليمن إلى اليمن ، وكانت تباشير الصلح تلوح فى الأفق ، فقد كان بعضهم يخرج إلى بعض ولا يتحادثون إلا فى الصلح ، ومشت السفارات بين المعسكرين وأصبح الصلح أمرًا مؤكدًا ، لا شية فيه ، وأقبل الليل ونام الناس ، وراح عبد الله بن سبأ يعمل على إنفاذ ما بيت بليل ، فوضع رجلًا قريبًا من علىّ ، وقبل أن يتنفس الصبح ، خرج أتباع ابن سبأ فغدوا مع الغلس ، وانسلوا إلى المعسكر الآخر انسلالا ، وأخذ المضريون يضعون سيوفهم فى المضريين ، واليمانيون فى اليمانيين وأهل ربيعة فى أهل ربيعة فثار المعسكر وانتشرت الجلبة فخرج علىّ يسأل عن الخبر ؟ فقال له الرجل الذى وضعه ابن سبأ :

ــ ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا ، فوجدنا القومَ على رجل فى كبونا وثار الناس .

فدعا علىّ صاحب ميمنته وميسرته وقال :

ــ لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لا يطاوعانا . واستمر السبائية ينشبون القتال وعلىّ يصيح :

— أيها الناس كفوا .

وأسرع رجل إلى عائشة فلما دخل عليها صاح :

— أدركى فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله يصلح بك .

وحمل الناس هودجها وشدوه إلى الجمل ، وكان من دفوف الخشب قد ألبسوه المسوح وجلود البقر وجعلوا دونه اللبود ، قد غشى على ذلك بالدروع وأقبلت عائشة على هودجها فلما برزت من البيوت وكانت بحيث تسمع الغوغاء وقفت ، فلم تلبث أن سمعت غوغاء شديدة فقالت :

— ما هذا ؟

— ضجة العسكر .

— بخير أو بشر ؟

— بشر .

وقالت للآخذ بخطام ناقتها :

— خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه .

فانطلق كعب يحمل المصحف ويدعوهم إلى كتاب الله فخشى أصحاب ابن سبأ الصلح ، فرشقوه رشقًا واحدًا فقتلوه ، وراحوا يرمون عائشة فى هودجها ، فجعلت تنادى :

— يا بنية ، البقية البقية ، الله الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب .

ولكن أنصار ابن سبأ صموا آذانهم ، فقالت عائشة للناس :

— أيها الناس ، العنوا قتلة عثمان وأشياعهم .

وأخذت تدعو وضج أهل البصرة بالدعاء ، وسمع علىّ بن أبى طالب جلبة ، فقال :

— ما هذه الضجة ؟

— عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم .

فدعا علىّ :

ـــ اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم .

وخرج عمار بن ياسر على فرسه بين الصفين فقال :

ـــ أيها الناس ، ما أنصفتم نبيكم حيث كففتم عتقاء تلك الخدور وأبرزتم عقيلته للسيوف .

فرشقوه بالنبل ، وتواتر عليه الرمى واتصل ، فحرك فرسه وزال عن موضعه فقال :

ـــ ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين ، وليس لك عند القوم إلا الحرب .

فقام الإمام وقال :

ـــ أيها الناس ، إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيرا ، ولا تتبعوا موليًا ، ولا تطلبوا مدبرًا ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، ولا تهتكوا سترًا ، ولا تقربوا من أموالهم إلا ما تجدونه فى عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله .

وخرج علىّ بنفسه حاسرًا على بغلة رسول الله ﷺ ، لا سلاح عليه ، فنادى .

ـــ يا زبير . اخرج إلىّ .

فخرج شاكيًا فى سلاحه .

فقيل لعائشة فأحست رعبًا فقد كانت تعلم أن مصير من يخرج لابن أبى طالب تجرع كأس المنون ، وأشفقت على زوج أختها فقالت :

ـــ واحرباه بأسماء .

ـــ إن عليًا حاسر .

فاطمأنت وسكن روعها ، واعتنق كل واحد منهما صاحبه ، فقال له علىّ فى عتاب :

ـــ ويحك يا زبير ما الذى أخرجك ؟

ـــ دم عثمان .

— قتل والله أولانا بدم عثمان ، أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ فى بنى بياضة وهو راكب حماره ، فضحك إلىّ رسول الله ، وضحكت أنت معه ، فقلت أنت : يا رسول الله ، ما يدع علىّ زهوه ، فقال لك ليس به زهو ، أتحبه يا زبير ؟، فقلت : إنى والله لأحبه ، فقال لك : إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم .

— أستغفر الله ، لو ذكرتها ما خرجت .

— يا زبير ارجع .

— وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان ؟ هذا والله العار الذى لا يُغسل .

— يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع بالعار والنار .

فرجع الزبير وقد طأطأ رأسه ، وسار ليترك الميدان فهرع إليه ابنه فقال :

— أين تدعنا ؟

— يا بنى ، أذكرنى أبو الحسن بأمر كنت قد أنسيته .

— لا والله لكنك فررت من سيوف بنى عبد المطلب ، فإنها طوال حداد تحملها فتية أنجاد .

— لا والله ، ولكنى ذكرت ما أنسانيه الدهر فاخترت العار على النار ، أبالجُبن تعيرنى لا أبالى .

وثارت ثائرة الزبير فأمال سنانه وشد فى الميمنة ، وفطن علىّ إلى ما يكابده الزبير فقال لرجاله :

— أفرجوا له فقد هاجوه .

ثم رجع الزبير فشد فى الميسرة ، ثم رجع فشد فى القلب ، ثم عاد إلى ابنه فقال :

— أيفعل هذا جبان ؟

ثم مضى منصرفاً . واشتدت المعركة فزحف الإمام نحو الجمل بنفسه فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار وحوله بنوه حسن وحسين ومحمد ، ودفع الراية إلى محمد وقال :

— تزول الجبال ولا تزول ، عض على ناجذك ، أعز الله جمجمتك ، تد فى الأرض قدميك ، ارم ببصرك أقصى القوم ، وغض بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه وتعالى .

وتقدم محمد فرشقته السهام ، فقال لأصحابه :

— رويدًا حتى تنفد سهامهم ، فلم يبق لهم إلا رشقة أو رشقتان .

وتريث محمد قليلا فبعث إليه علىّ :

— احمل .

وانتظر الإمام أن يبدأ ابنه المناجزة ، ولكن محمدًا أبطأ عليه فجاءه بنفسه من خلفه فوضع يده اليسرى على منكبه الأيمن . وقال له :

— أقدم لا أم لك .

فقال محمد :

— يا أمير المؤمنين ، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر ؟

فدفع فى صدره وقال :

— أدركك عرق من أمك .

ثم أدركت عليًّا رقة على ولده ، فتناول الراية منه بيده اليسرى . وذو الفقار مشهور فى يمنى يديه ثم قال :

اطعن بها طعن أبيك تحمد   لا خير فى الحدب إذا لم توقد
بالمشرفى والقنـــــا المسدد

وحمل علىّ فغاص فى عسكر الجمل ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار :

— نحن نكفيك يا أمير المؤمنين .

فلم يجب أحدًا منهم ، ولا رد إليهم بصره ، وظل ينحط ويزأر زئير الأسد حتى فرق من حوله ، وتبادروه وإنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر من حوله ولا يرد حوارًا . ثم رفع الراية إلى محمد وقال :

ـــ امح الأولى بالأخرى وهذه الأنصار معك .

فحمل محمد فى جمع من الأنصار كثير منهم من أهل بدر ، فحمل حملات كثيرة أزال بها القوم عن مواقفهم ، فاقترب خزيمة بن ثابت من الإمام فقال :

ـــ أما إنه لو كان غير محمد اليوم لافتضح .

وقالت الأنصار :

ـــ يا أمير المؤمنين ، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدمنا على محمد أحدًا من العرب .

فقال علىّ عليه السلام :

ـــ أين النجم من الشمس والقمر ، أما إنه قد أغنى وأبلى وله فضله ، ولا ينقص فضل صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه .

ـــ يا أمير المؤمنين ، إنا والله لا نجعله كالحسن والحسين ولا نظلمهما له . ولا نظلمه لفضلهما عليه حقه .

ـــ أين يقع ابنى من ابنىْ بنت رسول الله ﷺ ؟

ودارت رحى المعركة الرهيبة ، فحمل الإمام حملة ثانية وحده ، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قدمًا قدمًا ، والرجال تفر من بين يديه ، وتنحاز عنه يمنة ويسرة حتى خضب الأرض بدماء القتلى ، ثم رجع وقد انحنى سيفه ، فأقامه بركبته ، فاعصوصب به أصحابه ، وناشدوه الله فى نفسه وفى الإسلام ، وقالوا :

ـــ إنك إن تصب يذهب الدين ، فأمسك ونحن نكفيك .

ـــ والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله .

واستمرت المعركة واشتدت وبدت الهزيمة تدب فى صفوف عائشة فالتف الناس حول الهودج ، وأقبل علىّ وعمار والأشتر والأنصار يريدون الجمل فاقتتل الناس حوله حتى حال بينهم الليل .

ونشب القتال وكان الهودج هدف الإمام ورجاله ، ورأى طلحة انهزام جيشه وأنصاره فرفع يديه إلى السماء وقال :

— اللهم إن كنا قد داهنا فى أمر عثمان وظلمناه فخذ له اليوم منا حتى ترضى .

ورأى مروان تضعضع روح طلحة ، فخشى أن تدور عليهم الدوائر لو انسحب كما انسحب الزبير ، فغمغم :

— لا أبالى رميت ههنا أم ههنا .

فرماه فى أكحله ، فوقع صريعًا يجود بأنفاسه ، فمر به القعقاع فقال له :

— يا أبا محمد ، إنك لجريح ، فادخل الأبيات .

فالتفت طلحة إلى غلامه وقال :

— يا غلام أدخلنى وابغنى مكانًا .

ورأى عليّ ثبات الناس حول الجمل ، فهتف :

— اعقروا الجمل .

وحمل الناس على الجمل ، وضربه رجل فسقط ، فتفار الناس حوله ، فأسرع القعقاع ونفر معه بإنزال الهودج عن ظهر البعير ، وتركوه بين القتلى وكأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل ، وأمر عليّ ابن أبى بكر أن ينطلق إلى أخته ليحملها بعيدًا عن القتلى وقال له :

— انظر هل وصل إليها شيء ؟

فانطلق محمد وعمار بن ياسر حتى أتيا الهودج فأدخل رأسه فيه فقالت عائشة :

— من أنت ؟ ويلك ؟

— أبغض أهلك إليك .

— من ؟

— أخوك البر .

— عقوق .

وقال عمار بن ياسر :

— كيف رأيت بنيك اليوم يا أمه ؟

— من أنت ؟

— أنا ابنك عمار .

— لست لك بأم .

— بلى وإن كرهت .

وهدأت نفس عائشة ونظرت إلى محمد وغمغمت :

— الحمد لله الذى عافاك .

وحمل الهودج من بين القتلى ووضعوه بعيدًا ينتظرون أوامر علىّ فيه ، وأقبل الليل ونشر لواءه الأسود على ميدان القتال ، فحجب القتلى ، فجاء علىّ ومعه قنبر وفى يده مشعلة من نار يتصفح القتلى حتى وقف على طلحة ، فظهر الحزن فى وجهه وقال :

— أعزز على أبا محمد أن أراك معفرًا تحت نجوم السماء وفى بطون الأودية .

واستمر يتصفح القتلى ، ويستغفر لهم ، ثم أمر أن يجمعوا ليصلى عليهم أجمعين ، وانتهى إلى عائشة فقال لها :

— أى أمه يغفر الله لنا ولكم .

— غفر الله لنا ولكم .

٢١

انطلق محمد بن أبى بكر بعائشة أخته فى سكون الليل إلى البصرة ، فأنزلها دار عبد الله بن خلف ، وتسلل الجرحى فى جوف الليل إلى البصرة ، ولاذ بعضهم بعائشة ، ونُعى لها الزبير ، فاشتد حزنها عليه ، فقد خرجت وطلحة والزبير لمناوأة أمير المؤمنين ، فقُتل طلحة وانسحب الزبير من المعركة فقُتل غدرًا ، وها هى فى دار ابن خلف بعد أن حاقت الهزيمة بجيوشها ، وانتصر ابن أبى طالب نصرًا مؤزرًا .

والتف الناس بمحمد بن الحنفية وجعلوا يحدثونه فقد كان يزحف نحو الجمل زحف الأسود ، وقال له أحدهم :

— لم يغرر بك أبوك فى الحرب ، ولا يغرر بالحسن والحسين ؟

— إنهما عيناه وأنا يمينه ، فهو يدفع عن عينيه بيمينه .

ومر يومان ولم يدخل على البصرة ، وشاء أنصار الإمام أن يوزع عليهم أموال أنصار طلحة والزبير ، فمشوا إليه وسألوه أن يقسم فيهم أموال المهزومين ، فأبى عليهم ، فانصرفوا ولم ترض نفوس أصحاب ابن سبأ ، وجعلوا يهمسون ويطعنون فى علىّ فى الخفاء ، وبلغ عليًّا أن أنصاره يقولون :

— كيف يحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم ؟.

فجمع القوم وقال لهم :

— أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين فى سهمه ؟

فسكت القوم وطأطأوا رءوسهم فقد صفعهم ابن أبى طالب فلم تتحرك شفاههم ، ووئدت فى نفوسهم فكرة تقسيم أموال المهزومين فيهم .

ونادى الإمام عبد الله بن عباس ، وبعثه إلى عائشة يأمرها بالخروج إلى المدينة ، فانطلق ابن عباس إلى دار ابن خلف ، ولم يستأذن بل دخل إلى عائشة بغير إذنها ، ولم يستأذن فى الجلوس إليها ، بل جذب وسادة فجلس عليها ، فنظرت إليه عائشة فى غضب فقالت :

— ياابن عباس ، أخطأت السنة المأمور بها ، دخلت علينا بغير إذننا ، وجلست على رحلنا بغير أمرنا .

فقال ابن عباس فى هدوء :

— لو كنت فى البيت الذى خلفك فيه رسول الله ﷺ ما دخلنا إلا بإذن ، وما جلسنا على رحلك إلا بإذنك . إن أمير المؤمنين يأمرك بسرعة العودة ، والتأهب للخروج إلى المدينة .

— أبيت ما قلت ، وخالفت ما وصفت .

وأعرضت عنه ، فقام إلى أمير المؤمنين وأخبره بامتناعها ، فرده إليها فدخل إليها فقال :

— إن أمير المؤمنين يعزم عليك أن ترحلى .

فوافقت وأجابت إلى الخروج .

وفى صبيحة اليوم الثالث لانتهاء المعركة دخل الإمام البصرة ، واتجه إلى عائشة ، ومعه الحسن والحسين وباق أولاده وأولاد إخوته ، وفتيان أهله من بنى هاشم ، وانطلق على بغلته فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف ألفى صفية بنت الحارث تبكى على عبد الله وعثمان بن خلف ، فلما رأته رفعت رأسها إليه وقالت :

— يا علىّ ، يا قاتل الأحبة ، يا مفرق الجمع ، أيتم الله بنيك منك ، كما أيتمت ولد عبد الله منه .

فلم يرد عليها شيئا ، ولم يزل علىّ حتى دخل على عائشة ، فسلم وقعد عندها وقال لها :

— جبهتنا صفية . أما إنى لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم .

وتحادث علىّ وعائشة ، ورأت أم المؤمنين صفاء نفسه فشاءت أن تطمئن على ابن الزبير ابن أختها ، فسألته أن يؤمن عبد الله فأمنه ، وتكلم الحسن والحسين فى مروان فأمنه . ولكن بنى أمية لم يذكروا لهما ذلك ولم يحفظوه ، وما ضر الحسن والحسين فقد عبرا عن سجيتهما الخيِّرة الطيبة . وكشفت بنو أمية لما جد الجد عن الحقد الدفين الذى توارثه الأبناء عن الآباء .

وخرج الإمام من عندها بعد أن أمن الناس جميعا . وقابلته صفية بمثل ما استقبلته به فقال رجل من أنصار علىّ :

— والله لا تفلتنا هذه المرأة .

فغضب علىّ والتفت إليه وقال :

— صه ، لا تهتكن سترا ، ولا تدخلن دارا ، ولا تهيجن امرأة بأذى . وإن شتمن أعراضكم ، وسفهن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف ، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . إن الرجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده ، فلا يبلغنى عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس .

ومضى عليّ فلحق به رجل فقال :

— يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمضى لك شتيمة من صفية .

— ويحك لعلها عائشة .

— نعم . قام رجلان منهم على باب الدار فقال أحدهما : جزيت عنا أمنا عقوقا .

وقال الآخر : يا أمنا توبى فقد خطئت .

فظهر الغضب فى وجه عليّ ، وأمر القعقاع أن ينطلق ويقبل بمن كان على الباب ، فلما مثلوا بين يدى عليّ ، وعلموا غضبه أحالوا على رجلين ، فقال للقعقاع :

— اضرب أعنقاهما .

فظهر الفزع فى وجه الرجلين ، وسأله من حوله الرأفة فيهما ، فقال :

— لأنهكنهما عقوبة .

فضربهما مائة مائة ، وأخرجهما من ثيابهما ، وانصرف عليّ بعد أن نال ممن نال من أم المؤمنين .

وتجهزت عائشة للخروج إلى المدينة ، وأمدها الإمام بكل شيء ينبغى لها من مركب أو زاد أو متاع ، وأمر لها باثنى عشر ألفا من المال ، وحانت ساعة الرحيل فأقبل الناس لوداعها . وأقبل الإمام والحسن والحسين ، وقبل أن تنطلق من البصرة التفتت إلى الناس وقالت :

— يابنى تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدين أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك ، إنه والله ما كان بينى وبين عليّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندى على معتبتى من الأخيار .

فقال عليّ :

— صدقت والله وبرت ، ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ

فى الدنيا والآخرة؟ .

وتحرك الركب ، وخرج علىّ ليُشيع عائشة أميالا ، وسرح بنيه معها يومًا .

واستعمل الإمام عبد الله بن عباس على البصرة وقال له :

ـــ أوصيك بتقوى الله عز وجل ، والعدل على من ولاك الله أمره ، اتسع للناس بوجهك وعلمك وحكمك ، وإياك والإحن فإنها تميت القلب والحق . واعلم أن ما قربك من الله بعدك من النار ، وما قربك من النار بعدك من الله ، اذكر الله كثيرًا ولا تكن من الغافلين .

واستمر ركب عائشة فى سيره ، وكان كل من فيه مشغولا بفكره ، فراحت عائشة تفكر فى خروجها ، فتمنت أنها لم تخرج ، وتمنت أنها ماتت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، وجعل الرجال الذين بعثهم أمير المؤمنين معها يخدمونها فى الطريق فكانت تحس ضيقًا وحرجًا كلما خدموها أو حملوها . وبلغ الركب مكة فى أوان الحج ، فحج القوم ، ثم انطلقوا إلى المدينة ، فلما بلغتها أم المؤمنين خف الناس لاستقبالها ، وقيل لها :

ـــ كيف رأيت مسيرك ؟

ـــ كنت بخير الله ، لقد أعطى علىّ بن أبى طالب فأكثر ، ولكنه بعث معى رجالا .

واقترب منها الرجال الذين بعثهم معها ، وخلعوا عمائمهم ، فتهدل الشعر الطويل فقد كن نسوة من ذوات الدين من عبد قيس وهمدان وغيرهما ، ألبسن العمائم وتقلدن السيوف ، فلما انكشف لعائشة أمرهن قالت :

ـــ ما ازددت يابن أبى طالب إلا كرما ، وددت أنى لم أخرج ، إنما قيل لى : تخرجين فتصلحين بين الناس .

٢٢

خرج الإمام من البصرة قاصدًا الكوفة ، فقدمها ومعه أشراف الناس وأهل البصرة ، فاستقبله أهل الكوفة وقالوا له :

ــ أى القصرين تنزل .

فلم يشأ أن ينزل القصر الذى نزل فيه أمراء الجور وعمال أهل النفاق والشقاق فقال :

ــ قصر الخبال لا تنزلونيه .

فنزل على جعدة بن هبيرة المخزومى ، فقد كان جعدة ابن أخت أم هانى بنت أبى طالب . دخل عليه سليمان بن صرد الخزاعى ، فقال له الإمام :

ــ ارتبت وتربصت وراوغت ؛ وقد كنت من أوثق الناس فى نفسى وأسرعهم ــ فيما أظن ــ إلى نصرتى ، فما قعد بك عن أهل بيت نبيك ، وما زهدك فى نصرهم ؟

ــ يا أمير المؤمنين ، لا تردن الأمور على أعقابها ، ولا تؤنبنى بما مضى منها ، واستبق مودتى تخلص لك نصيحتى . وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من عدوك .

فسكت عنه ، وجلس سليمان قليلا ، ثم نهض وخرج وقد أثر فيه عتاب الإمام وعزله . وانطلق إلى المسجد . فألفى الحسن بن علىّ جالسًا ، فاتجه إليه وقال له :

ــ ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التبكيت والتوبيخ ؟

ــ إنما يعاتب من تُرجى مودته ونصيحته .

ــ إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا ، وينتضى فيها السيوف ، ويحتاج فيها إلى

أشباهى ، فلا تستغشوا عتبى ، ولا تتهموا نصيحتى .

ـــ رحمك الله . ما أنت عندنا بالظنين .

وقدم عقيل بن أبى طالب ، وكان قد كف بصره على أمير المؤمنين فوجده جالسًا فى صحن المسجد فقال :

ـــ السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

ـــ والسلام عليك يا أبا يزيد .

ثم التفت إلى ابنه الحسن وقال :

ـــ قم فأنزل عمك .

فقام فأنزله إليه ثم عاد فقال : ـــ اذهب فاشتر لعمك قميصًا جديدا ورداء جديدا ، وإزارا جديدا ، ونعلا جديدا .

فذهب واشترى له ، فغدا عقيل على علىّ فى الثياب الجديدة فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ما أراك أصبت من الدنيا شيئًا ، وإنى لا ترضى نفسى من خلافتك بما رضيت به لنفسك .

ـــ يا أبا يزيد يخرج عطائى فأدفعه إليك .

ـــ إنما أريد من بيت المال .

ـــ تقيم إلى يوم الجمعة .

وجاء يوم الجمعة فصعد الإمام المنبر فخطب :

ـــ إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأستهديه ، وأعوذ بالله من الضلالة ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله . انتجبه لأمره . واختصه بالنبوة . أكرم خلقه وأحبهم إليه ، فبلغ رسالة ربه . ونصح لأمته ، وأدى الذى عليه ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله ، وأقربه لرضوان الله ، وخيره فى عواقب الأمور عند الله . وبتقوى الله أمرتم . وللإحسان والطاعة خلقتم ، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه ، فإنه حذر بأسًا شديدًا . واخشوا

الله خشية ليست بتعذير . واعملوا فى غير رياء ولا سمعة ، فإن من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل له ، ومن عمل لله مخلصا تولى الله أجره ، وأشفقوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثًا ، ولم يترك شيئا من آثاركم سدى . قد سمى آثاركم ، وعلم أعمالكم ، وكتب آجالكم ، فلا تغروا بالدنيا فإنها غرارة بأهلها ، مغرور من اغتر بها ، وإلى فناء ما هى ، وإن الآخرة هى دار الحيوان لو كانوا يعلمون . أسأل الله منازل الشهداء ، ومرافقة الأنبياء ، ومعيشة السعداء . فإنما نحن له وبه .

وصلى بالناس ثم أقبل على أخيه فقال له :

— ما تقول فيمن خان هؤلاء أجمعين ؟

— بئس الرجل .

— فإنك أمرتنى أن أخونهم وأعطيك .

فأطرق عقيل ولكن دينه كان يهمه ، فعزم على أن يشخص إلى معاوية .

وأخذ الإمام يبعث الأمراء إلى الأمصار ، ويكتب إلى العمال فى الآفاق . فبعث الأشتر على الموصل ، وسعد بن قيس بن عبادة على مصر ، وكتب إلى جرير بن عبد الله البجلى ، وكان جرير عاملا لعثمان على همذان ، فكتب إليه :

« أما بعد ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال . وإنى أخبرك عن نبأ من سرنا إليه من جموع طلحة والزبير ، عند نكثهم بيعتهم ، وما صنعوا بعاملى عثمان بن حنيف . إنى هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار ، حتى إذا كنت بالعذيب بعثت إلى الكوفة بالحسن بن على وعبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد بن عبادة ، فاستنفروهم فأجابوا ، فسرت بهم حتى نزلت بظهر بصرة فأعذرت فى الدعاء ، وأقلت العثرة ، وناشدتهم عقد بيعتهم ، فأبوا إلا قتالى ، فاستعنت بالله عليهم ، فقتل من قتل وولوا مدبرين إلى مصرهم ، فسألونى ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقبلت العافية ، ورفعت السيف واستعملت عليهم عبد الله بن عباس ، وسرت إلى الكوفة ، وقد بعثت إليكم زمر بن قيس فاسأله عنا وعنهم » . فانطلق

الرسول حتى إذا ما بلغ همذان دفع بالكتاب إلى جرير فلما قرأه قام فقال :

— أيها الناس ؟ هذا كتاب من أمير المؤمنين ، علىّ بن أبى طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما نحمد الله عليه ، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها ، ألا وإن البقاء فى الجماعة والفناء فى الفرقة .

فقال الناس :

— رضينا رضينا .

فأجاب جرير وكتب جواب كتابه بالطاعة ، ثم أقبل جرير سائرًا من ثغر همذان حتى ورد علَى علِىّ ، فبايعه ودخل فيما دخل فيه الناس ، من طاعة علىّ واللزوم لأمره .

* * *

انطلق عقيل إلى الشام ثم دخل على معاوية فرحب به ، وسُر بوروده ، لاختياره إياه على أخيه ، فقد كان فى وروده دعاية لمعاوية ، فسيقول معاوية لأهل الشام إنه عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلال فأناب إلى أهل الدعاء إلى الحق ، وأقبل معاوية على عقيل فقال له :

— يا أبا يزيد ، كيف تركت عليًا ؟

— تركته على ما يحب الله ورسوله ، وألفيتك على ما يكره الله ورسوله .

فقال معاوية متصنعا الحلم :

— لولا أنك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك أبا يزيد جوابا تألم منه .

وخشى معاوية أن يمتد الجدل بينهما فيأتى عقيل بشىء يخفضه ، فوثب معاوية عن مجلسه ، وأمر له أن ينزل ، وحمل إليه مالا عظيما .

ولما كان من غد جلس وأرسل إليه فقد حسب معاوية أن ما أعطاه كفيل بأن يطلق لسانه بالحمد والثناء ، فأتاه فقال له :

— يا أبا يزيد ، كيف تركت عليًا أخاك ؟

ـــ تركته خيرا لنفسه منك ، وأنت خير لى منه .

ـــ أنت والله كما قال الشاعر :

وإذا عددت فخـــار آل محرق فالمجد منهم فى بنـــى عتـــاب

فمحل المجد من بنى هاشم منوط فيك يا أبا يزيد ما تغيرك الأيام والليالى .

اصبر لحرب أنت جانيها لا بد أن تصلى بحاميهـــا

وأنت والله يابن أبى سفيان كما قال الآخر :

وإذا هوازن أقبلت بفخارها يومـــا فخـــرتهم بآل مجاشع

بالحاملين على الموالى عزمهـم والضاربين الهام يوم القـــارع

ولكن أنت يا معاوية إذا افتخرت بنو أمية فمن تفخر ؟

ـــ عزمت عليك أبا يزيد لما أمسكت ، فإنى لم أجلس لهذا ، وإنما أردت أن أسألك عن أصحاب علىّ ، وابدأ بآل صوحان ، فإنهم مخاريق الكلام .

ـــ أما صعصعة فعظيم الشأن ، عضب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ، يرتق ما فتق ، ويفتق ما رتق ، قليل النظير . وأما زيد وعبد الله فإنهما نهران جاريان ، يصب فيهما الخلجان ، ويُغاث بهما البلدان ، رجلا جد لا لعب معه ، وأما بنو صوحان فكما قال الشاعر :

إذا نزل العـــدو فإن عنـــدى أسودًا يجلس الأسد النفـــوسا

٢٣

جاء جرير بن عبد الله حتى نزل الكوفة ، فأراد الإمام أن يبعث إلى معاوية رسولا فقال له جرير :

ـــ ابعثنى إلى معاوية ، فإنه لم يزل لى مستنصحا ودودًا ، آتيه فأدعوه على أن يسلم لك هذا الأمر ، ويجامعك على الحق ، على أن يكون أميرًا من أمرائك ، وعاملا من عمالك ، ما عمل بطاعة الله ، واتبع ما فى كتاب الله ، وأدعو أهل

الشام إلى طاعتك وولايتك ، وجلهم قومى وأهل بلادى ، وقد رجوت ألا يعصونى .

فقال له الأشتر :

ــ لا تبعثه ودعه ، ولا تصدقه ، فوالله إنى لأظن هواه هواهم ، ونيته نيتهم .

فقال له علىّ :

ــ دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا .

وقال الإمام لجرير :

ــ إن حولى من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الدين والرأى من قد رأيت ، وقد اخترتك عليهم ، لقول رسول الله ﷺ فيك : « إنك من خير ذى يمن » . إيت معاوية بكتابى ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانبذ إليه وأعلمه أنى لا أرضى به أميرًا وأن العامة لا ترضى به خليفة .

فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية ، فدخل عليه فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ــ أما بعد يا معاوية ، فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصرين ، وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل مصر ، وأهل العروض وعمان وأهل البحرين واليمامة ، فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التى أنت فيها ، لو سال عليها سيل من أوديته أغرقها ، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل .

ودفع إليه كتاب علىّ بن أبى طالب ، ففضه وقرأ :

ــ « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ؛ لأنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما، كان ذلك لله رضا،فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المسلمين . وولاه الله ما تولى

ويصليه جهنم،وساءت مصيرا، وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتى . وكان نقضهما كردهما . فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى فيك العافية ، إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك . وقد أكثرت فى قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله ، فأما تلك التى تريدها فخدعت الصبى عن اللبن . ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة . ولا تعرض فيهم الشورى . وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله . وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوة إلا بالله » .

فلما انتهى معاوية من قراءة الكتاب ، قام جرير فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

— أيها الناس ، إن أمر عثمان قد أعيا من شهده ، فما ظنكم بمن غاب عنه ، وإن الناس بايعوا عليًّا غير واتر ولا موتور ، وكان طلحة والزبير مما بايعه ثم نكثا بيعته على غير حدث . ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن ، ألا وإن العرب لا تحتمل السيف . وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس ، وقد بايعت العامة عليًّا ، ولو ملكنا الله أمورنا لم نختر لها غيره ، ومن خالف هذا استعتب ، فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس ، فإن قلت : استعملنى عثمان ثم لم يعزلنى ، فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين ، وكان لكل امرئ ما فى يديه ، ولكن الله لم يجعل للآخرة من الولاة حق الأول .

فقال معاوية :

— انظر وننظر ونستطلع رأى أهل الشام .

ومرت أيام ولم يبايع معاوية فاستحثه جرير بالبيعة ، فقال :

— يا جرير ، إنها ليست بخلسة ، وإنه أمر له ما بعده فأبلعنى ريقى حتى أنظر .

ودعا معاوية ثقاته ، فقال له عتبة بن أبى سفيان :

— اجتمعن على هذا الأمر بعمرو بن العاص ، وأثمن له بدينه فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل أمر عثمان فى حياته وهو لأمرك أشد اعتزالا إن ير فرصة .

فكتب معاوية إلى عمرو :

« أما بعد ، فإنه كان من أمر علىّ وطلحة والزبير ما قد بلغك ، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم فى رافضة أهل البصرة ، وقدم علينا جرير بن عبد الله فى بيعة علىّ ، وقد حبست نفسى عليك حتى تأتينى . أقبل أذاكرك أمرًا » .

فلما بلغ الكتاب عمرًا جمع ابنيه عبد الله ومحمدًا ، فقال :

— ابنىّ ما تريان ؟

فقال عبد الله :

— أرى أن نبى الله ﷺ قُبض وهو عنك راض ، والخليفتان من بعده ، وقُتل عثمان وأنت عنه غائب ، فقر فى منزلك فلست مجعولا خليفة ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة ، أوشك أن تهلك فتشقى فيها .

وقال محمد :

— أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها ، وإن تصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك ، فالحق بجماعة أهل الشام فكن يدًا من أياديها . واطلب بدم عثمان ، فإنك قد استنمت فيه إلى بنى أمية .

— أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى ، وأنا ناظر فيه .

وجنه الليل ، فسقط فريسة لأفكاره ، إن معاوية يطلبه ويعرض عليه الدنيا ، وإنه ليخشى الخروج ، ففى الخروج مناوأة للحق : وإيغال فى النفاق والخداع ، وظل يفكر طول الليل حتى إذا ما أصبح الصباح دعا غلامه وردان فقال :

— ارحل يا وردان .

وتأهب وردان للخروج فعاد عمرو وقال له :

— حط يا وردان .

وسقط فريسة لأفكاره مرة أخرى ثم قال :

— ارحل يا وردان ، احطط يا وردان .

فقال له وردان :

— خلط أبا عبد الله ، أما إنك إن شئت أنبأتك بما فى نفسك .

— هات ويحك .

— اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : علىّ معه الآخرة فى غير دنيا ، وفى الآخرة عوض الدنيا ، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة ، وليس فى الدنيا عوض من الآخرة ، فأنت واقف بينهما .

— فإنك والله ما أخطأت ، فما ترى يا وردان ؟

— أرى أن تقيم فى بيتك . فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك .

— الآن لما شهدت العرب مسيرى إلى معاوية ؟

فسار حتى قدم إلى معاوية فقال معاوية :

— يا أبا عبد الله ، إنى أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذى عصى ربه وقتل الخليفة ، وأظهر الفتنة ، وفرق الجماعة وقطع الرحم .

فقال عمرو متغابيا :

— إلى من ؟

— إلى جهاد علىّ .

— والله يا معاوية ما أنت وعلى بعكمى بعير . ما لك هجرته ولا سابقته ، ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه وعلمه . والله إن له مع ذلك حدًا وجدا ، وحظًا وحظوة ، وبلاء من الله حسنًا ، فما بحقك إن شايعتك على حربه ، وأنت تعلم ما فيه من الغدر والخطر ؟

— حكمك .

— مصر طعمة .

— يا أبا عبد الله ، إنى أكره أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا .

— دعنى عنك .

— إنى لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت .

— لا لعمرو الله ، ما مثلى يخدع ، لأنا أكيس من ذلك .

— ادن منى برأسك أسارك .

فدنا منه عمرو يساره ، فعض معاوية أذنه وقال :

— هذه خدعة . هل ترى فى بيتك أحدًا غيرى وغيرك ؟

ولم يوافق معاوية على أن يعطى عمرًا مصر طعمة . فدخل عليه عتبة بن أبى سفيان فقال :

— أما ترضى أن نشترى عمرًا بمصر إن هى صفت لك ! فليتك لا تغلب على الشام .

وبات عمرو عند معاوية وأصبح فأعطاه مصر طعمة له . وكتب له بها كتابا وقال :

— ما ترى فى علىّ ؟

— أرى فيه خيرا ، أتاك فى هذه البيعة خير أهل العراق ، ومن عند خير الناس فى أنفس الناس ، ودعواك أهل الشام فى رد هذه البيعة خطر شديد ، ورأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندى ، وهو عدو لجرير المرسل إليك . فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا فى الناس أن عليًّا قتل عثمان ، وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب ، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشىء أبدا .

وبعث معاوية إلى شرحبيل فلما دخل عليه قال :

— يا شرحبيل ، إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة علىّ ، وعلىّ خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان ، وقد حبست نفسى عليك ، وإنما أنا رجل من أهل

الشام ، أرضى بما رضوا وأكره ما كرهوا .

— أخرج فأنظر .

فخرج شرحبيل ، فقابل الرجال الذين دسهم له معاوية ، فكلهم يخبر أن عليًّا قتل عثمان بن عفان فغضب وثارت نفسه ، وتيقن أن الإمام قتل عثمان ، فرجع إلى معاوية وقد ضاق صدره حنقًا ، فقال فى انفعال :

— يا معاوية ، أبى الناس إلا أن عليًّا قتل عثمان . ووالله لئن بايعت له لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك .

— ما كنت لأخالف عليكم ، وما أنا إلا رجل من أهل الشام ، فرد هذا الرجل إلى صاحبه إذًا .

وهدأت نفس معاوية فقد نال أربه . وعرف أن شرحبيل قد نفذت بصيرته فى حرب أهل العراق .

وراح شرحبيل يسير فى مدائن الشام وينادى فيهم بأن عليًّا قتل عثمان وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه ، وكان يقوم خطيبًا فيقول :

— يا أيها الناس ، إن عليًّا قتل عثمان بن عفان ، وقد غضب له قوم فقتلهم ، وهزم الجميع وغلب على الأرض فلم يبق إلا الشام ، وهو واضع سيفه على عاتقه ثم خائض به غمار الموت حتى يأتيكم ، أو يحدث الله أمرًا ، ولا نجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية ، فجدوا وانهضوا .

كان هم معاوية أن يثبت ملكه فى الشام ، وكان يرى أن عليًّا سيقوض أركانه فلو أنه ضمن أن يدعه الإمام فى شامه لما خرج لحربه ولما قلب عليه الناس .

وأتى جريرًا فى منزله فقال :

— يا جرير ، إنى قد رأيت رأيًا .

— هاته .

— اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جباية ، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة فى عنقى ، وأسلم له هذا الأمر ، وأكتب إليه بالخلافة .

— اكتب بما أردت ، وأكتب معك .

فكتب معاوية بذلك إلى علىّ ، وترقب ما يكتبه الإمام فى قلق فقد كان يعلم أن عليًّا رجل المبادئ لا يحيد عن هدفه ، ولا يداهن فى دينه ، وجاء كتاب علىّ إلى جرير .

« أما بعد فإنما أراد معاوية ألا يكون لى فى عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب ، وأراد أن يرثيك حتى يذوق أهل الشام ، وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار على أن أستعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة ، فأبيت ذلك عليه ، ولم يكن الله ليرانى أتخذ المضلين عضدا . فإن بايعك الرجل ، وإلا فأقبل .

٢٤

أراد الحسن أن يتزوج فى الكوفة ، فقال الإمام :

— لا تزوجوه فإنه مطلاق .

— والله يا أمير المؤمنين لو خطب إلينا كل يوم لزوجناه منا ابتغاء فى صهر رسول الله ﷺ .

وأبطأ جرير عند معاوية حتى اتهمه الناس ، وقال علىّ :

— وقت لرسولى وقتا لا يقيم بعده إلا مخدوعا أو عاصيا .

وطالت غيبة جرير حتى أيس أمير المؤمنين ، ثم رجع إلى الإمام فكثر قول الناس فى التهمة لجرير فى أمر معاوية ، فاجتمع جرير والأشتر عند علىّ فقال الأشتر .

— أما والله يا أمير المؤمنين لو كنت أرسلتنى إلى معاوية لكنت خيرًا لك من هذا الذى أرخى من خناقه وأقام عنده ، حتى لم يدع بابا يرجو روحه إلا فتحه ، أو يخاف غمه إلا سده .

— والله لو أتيتهم لقتلوك ، وقد زعموا أنك من قتلة عثمان .

— لو أتيته يا جرير لم يعينى جوابها ، ولم يثقل علَىّ محملها ، ولحملت معاوية

على خطة أعجله فيها عن الفكر .

ـــ فائتهم إذًا .

ـــ الآن وقد أفسدتهم ووقع بينهم الشر !

فلما سمع جرير ذلك لحق بقرقيسيا . ولحق به أناس من قومه ، وأراد الإمام المسير مع أهل الشام فدعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ أما بعد ، فإنكم ميامين الرأى ، مراجيح الحلم ، مقاويل بالحق ، مباركو الفعل والأمر ، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأى .

فقام هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وقال :

ـــ أما بعد يا أمير المؤمنين ، فأنا بالقوم جد خبير ، هم لك ولأشياعك أعداء ، وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء ، وهم مقاتلوك ومجاهدوك،لا يبقون جهدًا ، مشاحة على الدنيا ، وضنًا بما فى أيديهم منها ، وليس لهم إربة غيرها إلا ما يخدعون به الجهال من الطلب بدم عثمان بن عفان ، كذبوا ليسوا بدمه يثأرون ، ولكن الدنيا يطلبون . فسر بنا إليهم . فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال . وإن أبوا إلا الشقاق فذلك الظن بهم . والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممن يطاع إذا نهى ولا يسمع إذا أمر .

وقام عمار بن ياسر فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، إن استطعت ألا تقيم يوما واحدا فافعل . اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادعهم إلى رشدهم وحظهم ، فإن قبلوا سعدوا ، وإن أبوا إلا حربنا فوالله إن سفك دمائهم والجد فى جهادهم هو القربة عند الله ، وهو كرامة منه .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرد (تفر) ، فوالله لجهادهم أحب إلىّ من جهاد الترك والروم ، لإدهانهم فى دين الله ، واستذلالهم أولياء الله من

أصحاب محمد ﷺ وآله ، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه وفيئنا لهم فى أنفسهم حلال ، ونحن لهم فيما يزعمون قطين .

فقال شيخ الأنصار :

ـــ لم تقدمت أشياخ قومك ، وبدأتهم يا قيس بالكلام ؟.

ـــ أما إنى عارف بفضلكم ، معظم لشأنكم ، ولكنى وجدت فى نفسى الضغن الذى جاش فى صدوركم حين ذكرت الأحزاب .

فقال بعضهم لبعض :

ـــ ليقم رجل منكم فليجب أمير المؤمنين عن جماعتكم ، قم يا سهل بن حنيف .

فقام سهل فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، نحن سلم لمن سالمت،وحرب لمن حاربت ، ورأينا رأيك ونحن كفء يمينك . وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر فى أهل الكوفة ، فتأمرهم بالشخوص ، وتخبرهم بما صنع الله لهم فى ذلك من الفضل ، فإنهم هم أهل البلد وهم الناس ، فإن استقاموا لك استقام لك الذى تريد وتطلب ، وأما نحن فليس عليك منا خلاف . متى دعوتنا أجبناك ، ومتى أمرتنا أطعناك .

واجتمع أهل الكوفة فى المسجد ، فقام الإمام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء السنن والقرآن ، سيروا إلى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار .

فقام رجل فقال :

ـــ أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل البصرة فنقتلهم . كلا ، هاالله إذًا لا نفعل ذلك .

فقال الأشتر :

ـــ من لهذا أيها الناس ؟

وهرب الرجل واشتد الناس على أثره ، فلحق بمكان من السوق فوطئوه بأرجلهم وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قتل . وقال الأشتر :

ـــ يا أمير المؤمنين ، لا يهدنك ما رأيت ، ولا يؤيسنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقى الحائر ، إن جميع من ترى من الناس شيعتك ، وليسوا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ، ولا يحبون بقاء بعدك ، فإن شئت فسر بنا إلى عدوك ، والله ما ينجو من الموت من خافه ، ولا يعطى البقاء من أحبه ، وما يعيش بالآمال إلا شقى ، وإنا لعلى بينة من ربنا أن نفسا لن تموت حتى يأتى أجلها ، فكيف لا نقاتل قومًا هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس فأسخطوا الله ، وأظلمت بأعمالهم الأرض وباعوا خلاقهم بعرض من الدنيا يسير .

فقال الإمام :

ـــ الطريق مشترك ، والناس فى الحق سواك ، ومن اجتهد رأيه فى نصيحة العامة فله ما نوى وقد قضى ما عليه .

ثم نزل ودخل منزله فدخل عليه ناس كثير ، فقام حنظلة بن الربيع التيمى فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا ، ورأينا لك رأيا فلا ترده علينا ، فإنا نظرنا لك ولمن معك . أقم وكاتب هذا الرجل ، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام ، فإنى والله ما أدرى ولا تدرى لمن تكون إذا التقيتم الغلبة ، وعلى من تكون الدبرة .

وقال ابن المعتم العبسى :

ـــ أما بعد ، فإن الله وارث العباد والبلاد ، ورب السموات السبع والأرضين السبع ، وإليه ترجعون ، يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، أما الدبرة فإنها على الضالين العاصين ظفروا أو ظفر بهم . وأيم الله إنى لأسمع كلام قوم ما أراهم يريدون أن يعرفوا معروفا ، ولا ينكروا منكرًا .

فقال رجال :

— يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء والله ما أتوك بنصح ولا دخلوا عليك إلا بغش ، فاحذرهم فإنهم أدنى العدو .

واستمر القوم فى جذب وشد فقام رجل فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن القوم لو كانوا الله يريدون أو لله يعملون ، ما خالفونا ولكن القوم إنما يقاتلون فرارًا من الأسوة ، وحبا للأثرة ، وضنا بسلطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التى فى أيديهم ، وعلى إحن فى أنفسهم ، وعداوة يجدونها فى صدورهم ، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم وإخوانهم .

ثم التفت إلى الناس فقال :

— فكيف يبايع معاوية عليًّا وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده عتبة فى موقف واحد . والله ما أظن أن يفعلوا ، ولن يستقيموا لكم دون أن نقصد (نكسر) فيهم المران (الرماح اللينة الصلبة) ونقطع على هامهم السيوف ، وننثر حواجبهم بعمد الحديد ، وتكون أمور جمة بين الفريقين .

وخرج حجر بن عدى وعمرو بن الحمق يظهران البراءة واللعن من أهل الشام ، فأرسل إليهما علىّ : أن كفا عما يبلغنى عنكما ، فأتياه فقالا :

— يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقين ؟

— بلى .

— أوَليسوا مبطلين ؟

— بلى .

— فلِمَ منعتنا من شتمهم ؟

— كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين تشتمون وتتبرءون . ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم : من سيرتهم كذا وكذا ، كان أصوب فى القول ، وأبلغ فى العذر ، لو قلتم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءنا

ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق منهم من جهله ، ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به ، كان هذا أحب إلىّ وخيرًا لكم .

— يا أمير المؤمنين ، نقبل عظتك ، ونتأدب بأدبك .

ساء الإمام الرجل السمح الكريم أن يكون رجاله لعانين شتامين فنصحهم أن يترفعوا عن سب أهل الشام فى الأسواق . ولكن معاوية أوغل فى العداوة فجعل يسب الإمام حيا وميتا من فوق منابر المسلمين .

وقال عمرو بن الحمق :

— إنّى والله يا أمير المؤمنين ما أجبتك ولا بايعتك على قرابة بينى وبينك ، ولا إرادة مال تؤتينه ، ولا التماس سلطان يرفع ذكرى به ، ولكن أحببتك لخصال خمس : أنك ابن عم رسول الله ﷺ وآله ، وأول من آمن به ، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد ﷺ وآله ، وأبو الذرية التى بقيت فينا من رسول الله ﷺ وآله ، وأعظم رجل من المهاجرين سهما فى الجهاد ، فلو أنى كلفت نقل الجبال الرواسى ، ونزح البحور الطوامى حتى يأتى على يومى فى أمر أقوى به وليك وأوهن به عدوك ، ما رأيت أنى قد أديت فيه كل الذى يحق على من حقك .

فقال أمير المؤمنين :

— اللهم نور قلبه بالتقى ، واهده إلى صراط مستقيم ، ليت أن فى جندى مائة مثلك !.

فقال حجر :

— إذًا والله يا أمير المؤمنين صح خبرك وقل فيهم من يغشك .

وتبادلت الكتب بين الإمام ومعاوية وعمرو بن العاص ، وأطلت الحرب بوجهها ، فصعد الإمام المنبر فخطب الناس ودعاهم إلى الجهاد فقال :

— « إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته ، فانصبوا أنفسكم فى أداء حقه ، وتنجزوا موعوده ، واعلموا أن الله جعل أمراس الإسلام متينة ، وعراه

وثيقة ، ثم جعل الطاعة حظ الأنفس برضا الرب ، وغنيمة الأكياس عند تفريط الفجرة . وقد حملت أمر أسْوَدِها وأحمرِها ، ولا قوة إلا بالله ، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه ، وتناول ما ليس له وما لا يدركه معاوية وجنده ، الفئة الباغية الطاغية ، يقودهم إبليس ، ويبرق لهم ببارق تسويفه ، ويدليهم بغروره ، وأنتم أعلم الناس بحلاله وحرامه ، فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما أنالكم من الأجر والكرامة ، واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته ، والمغرور من آثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفن أحدًا منكم قال : فى غيرى كفاية ، فإن الذود إلى الذود إبل ، ومن لا يذد عن حوضه يتهدم ، ثم إنى آمركم بالشدة فى الأمر ، والجهاد فى سبيل الله ، وألا تغتابوا مسلما ، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله » .

ثم قام الحسن بن على خطيبًا فقال :

— « إن مما عظم الله عليكم من حقه . وأسبغ عليكم من نعمه ، ما لا يحصى ذكره ولا يؤدى شكره ، ولا يبلغه صفة ولا قول ، ونحن إنما غضبنا لله ولكم ، فإنه من علينا بما هو أهله أن نشكر فيه آلاءه وبلاءه ونعماءه قولا يصعد إلى الله فيه الرضا ، وتنتشر فيه عارفة الصدق ، يصدق الله قولنا ، ونستوجب فيه المزيد من ربنا ، قولا يزيد ولا يبيد ، فإنه لم يجمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم ، فاحتشدوا فى قتال عدوكم ؛ معاوية وجنوده ، فإنه قد حضر ، ولا تخاذلوا ، فإن الخذلان يقطع نياط القلوب ، وإن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة ، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة .

ثم قام الحسين خطيبًا فقال :

— يا أهل الكوفة ، أنتم الأحبة الكرماء ، والشعار دون الدثار ، جدوا فى إحياء ما دثر بينكم ، وإسهال ما توعر عليكم ، وألفة ما ذاع منكم ؛ ألا إن الحرب شرها ذريع ، وطعمها فظيع ، وهى جرع متحساة ، فمن أخذ لها أهبتها واستعد لها

عدتها ، ولم يألم كلومها عند حلولها ؛ فذاك صاحبها . ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها ، فذاك قمن ألا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه . نسأل الله بعونه أن يدعمكم بألفته .

وخرج أهل الكوفة إلى النخيلة ، وجاء ابن عباس فى وجوه أهل البصرة ، وانطلق الجيش إلى صفين لقتال أهل الشام .

٢٥

جاءت الأنباء إلى معاوية أن عليًّا نزل بالنخيلة وعسكر بها ، فدلف إلى المسجد وكان قد ألبسه قميص عثمان وهو مخضب بالدم ، فألفى حول المنبر الشيوخ يبكون لا تجف دموعهم على عثمان ، فصعد المنبر فقال :

— يا أهل الشام ، قد كنتم تكذبونى فى علىّ ، وقد استبان لكم أمره ، والله ما قتل خليفتكم غيره ، وهو أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآوى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه . وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتكم . يا أهل الشام ، الله الله فى عثمان . فأنا ولى عثمان وأحق من طلب بدمه ، وقد جعل الله لولى المظلوم سلطانا ، فانصروا خليفتكم المظلوم ، فقد صنع به القوم ما تعلمون ، قتلوه ظلمًا وبغيًا ، وقد أمر الله بقتال الفئة الباغية حتى تفئ إلى أمر الله .

وقام عمرو بن العاص فى الناس فقال :

— إن صناديد أهل الكوفة والبصرة تفانوا يوم الجمل ؛ ولم يبق مع علىّ إلا شرذمة قليلة من الناس ، وقد قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فالله الله فى حقكم أن تضيعوه ، وفى دمكم أن تطلوه .

وكتب معاوية إلى أجناد الشام ، وتأهب ليخرج بنفسه كما خرج الإمام بنفسه ، يقود جيشه لحربهم .

انطلقت جيوش الإمام حتى بلغت الفرات . وأراد الإمام أن يعبر النهر فقال

لأهل الرقة :

ـــ أجسروا لى جسرًا لكى أعبر من هذا المكان إلى الشام .

فأبوا وقد كانوا ضموا السفن عندهم ، فنهض من عندهم ليعبر على جسر منبج ، وخلف عليه الأشتر ، فناداهم فقال :

ـــ يا أهل هذا الحصن ، إنى أقسم بالله لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها لأجردن فيكم السيف ، ولأقتلن مقاتلتكم ولأخربن أرضكم ، ولآخذن أموالكم .

فلقى بعضهم بعضا فقالوا :

ـــ إن الأشتر يفى بما يقول ، وإن عليًا خلفه علينا ليأتينا منه الشر .

فبعثوا إليه :

ـــ إنا ناصبون لكم جسرا فأقبلوا . .

فأرسل الأشتر إلى علىّ فجاء ونصبوا له الجسر ، فعبر عليه بالأثقال والرحال ثم أمر الأشتر فوقف فى ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق أحد من الناس إلا عبر ، ثم إنه عبر آخر الناس راجلا .

عبر الإمام الفرات ، واستعمل على مقدمته الأشتر ، وسار الإمام فى خمسين ومائة ألف من أهل العراق ، وسار معاوية فى نحو من ذلك من أهل الشام ، وسبق معاوية عليًا إلى صفين ، فنزل أهل الشام منزلا اختاروه ، مستويًا بساطًا واسعًا ، وأخذوا الشريعة فهى فى أيديهم ، وقد أجمعوا أن يمنعوا أهل العراق الماء ، وبلغ الإمام صفين ونزل بالقرب من جيوش الشام ، وأراد رجاله أن يشربوا فمنعهم أهل الشام ، ففزعو إلى أمير المؤمنين وأخبروه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال :

ـــ إيت معاوية فقل : إنا سرنا مسيرنا هذا ، وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم ، وإنك قد قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالقتال ، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها حتى حلتم بين الناس وبين الماء فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدمنا له

وقدمتم . وإن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا .

فجمع معاوية أصحابه وقال لهم :

ــ ما ترون ؟

قال الوليد بن عقبة :

ــ امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان ، حصروه أربعين يوما يمنعونه بر الماء ولين الطعام . اقتلهم عطشا قتلهم الله .

وقال عمرو :

ــ خل بين القوم وبين الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم .

فأعاد الوليد مقالته ، وقال عبد الله بن سعد بن أبى سرح :

ــ امنعهم الماء إلى الليل ، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم . امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة .

فقال صعصعة بن صوحان :

ــ إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شربة الخمر ، ضربك وضرب هذا الفاسق .

وأشار إلى الوليد بن عقبة ، فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهددونه . فقال معاوية :

ــ كفوا عن الرجل ، فإنه رسول .

فالتفت صعصعة إليه وقال :

ــ ما ترد على ؟

ــ سيأتيكم رأيى .

وقام معاوية فى جيشه فقال :

ــ يا أهل الشام ، هذا والله أول الظفر ، لا سقانى الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه أبدًا حتى يقتلوا بأجمعهم عليه .

وتباشر أهل الشام ، ولم يرق قول معاوية لرجل كان صديقا لعمر فقام فقال :

— يا معاوية ، سبحان الله ، الآن سبقتم القوم إلى الفرات فغلبتموهم عليه تمنعوهم عنه! أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه، أليس أعظم ما تنالون من القوم أن تمنعوهم الفرات فينزلوا على فرضة أخرى فيجازوكم بما صنعتم ؟ أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ هذا والله أول الجور . لقد شجعت الجبان ، وبصرت المرتاب ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك .

فأغلظ له معاوية . وما راع رجال الإمام إلا تسوية الرجال والخيل والصفوف فقد أرسل معاوية إلى قائد مقدمته : — امنعهم الماء.

وأتى الأشعث عليا فقال له :

— يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف ؟ خل عنا وعن القوم ، فوالله لا ترجع حتى نرده أو نموت . ومر الأشتر فليعل بخيله فيقف حيث تأمره .

— ذاك إليكم .

فرجع الأشعث فنادى فى الناس :

— من كان يريد الماء أو الموت فميعاده الصبح ، فإنى ناهض إلى الماء .

فأتاه اثنا عشر ألف رجل ، واضعى سيوفهم على عواتقهم ، فلما أصبح دب فى الناس وسيوفهم على عواتقهم ، وجعل يلقى رمحه ويقول :

— بأبى أنتم وأمى ، تقدموا قاب رمحى هذا .

فلم يزل ذلك دأبه حتى خالط القوم ، وحسر عن رأسه ونادى :

— أنا الأشعث بن قيس ، خلوا عن الماء .

فنادى قائد مقدمة جيش معاوية :

— أما والله لا ، حتى تأخذنا وإياكم السيوف .

— ويحك يابن العاص ، خل بيننا وبين الماء .

والله لا نخلى عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم ، فيعلم ربنا أينا اليوم أصبر .

— ويحك يا عمرو ، والله إن كنت لأظن لك رأيا فإذا أنت لا عقل لك ، أترانا نخليك والماء ، تربت يداك وفمك ، أما علمت أنا معشر عرب ، ثكلتك أمك وهبلتك ، لقد رمت أمرًا عظيما .

وترجل الأشعث والأشتر وذوو البصائر من أصحاب علىّ ، وترجل معهما اثنا عشر ألفًا ، فحملوا على عمرو ومن معه من أهل الشام ، فأزالوهم عن الماء حتى غمست خيل علىّ سنابكها فى الماء .

فانطلق عمرو بن العاص إلى معاوية وقال له :

— يا معاوية ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء كما منعتهم بالأمس ، أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه . وما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة .

— ظنى أنه لا يستحل منك ما استحللت منه ، وأن الذى جاء له غير الماء .

أصبح الماء فى أيدى أهل العراق فقالوا :

— والله لا نسقيهم .

وبلغ ذلك الإمام فأرسل إلى رجاله :

— خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى عسكركم ، وخلوا بينهم وبين الماء ، فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم .

كان ابن أبى طالب كريما على عادته فقد خلى بين أعدائه وبين الماء ، ولكن الأمويين لم يتصفوا بذلك النبل الفياض ، ولم ينفع فيهم ذلك الدرس الذى لقنهم إياه الإمام ، فما انقضت سنوات حتى منعوا الماء عن ابنه الحبيب شهيد كربلاء .

ومكث علىّ يومين لا يرسل إلى معاوية ولا يأتيه من قبل معاوية أحد ، وجاء عبيد الله بن عمر فدخل على الإمام فى عسكره فقال له :

— أنت قاتل الهرمزان ، وقد كان أبوك فرض له فى الديوان وأدخله فى الإسلام ؟

— الحمد لله الذى جعلك تطلبنى بدم الهرمزان ، وأطلبك بدم عثمان بن عفان .

— لا عليك سيجمعنى وإياك الحرب غدًا .

ودعا علىّ بشير بن عمرو بن محصن الأنصارى ، وسعيد بن قيس الهمدانى ، وشبث بن ربعى التميمى فقال :

ـــ ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عز وجل وإلى الطاعة والجماعة ، وإلى اتباع أمر الله تعالى .

فقال شبث :

ـــ ألا نطمعه فى سلطان توليه إياه ومنزلة تكون به له أثرة عندك إن هو بايعك ؟

ـــ ائتوه الآن ، فالقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه .

فأتوه فدخلوا عليه ، فقال بشير :

ـــ يا معاوية ، إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك لراجع إلى الآخرة ، وإن الله عز وجل مجازيك بعملك ، ومحاسبك بما قدمت يداك ، وإنى أنشدك بالله أن تفرق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها .

فقال معاوية :

ـــ هلا أوصيت صاحبك ؟

ـــ سبحان الله ، إن صاحبى ليس مثلك . إن صاحبى أحق البرية فى هذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة والإسلام . والقرابة من رسول الله ﷺ .

ـــ فتقول ماذا ؟

ـــ أدعوك إلى تقوى ربك وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك فى دينك ، وخير لك فى عاقبة أمرك .

ـــ ويطل دم عثمان ؟ لا والرحمن لا أفعل ذلك أبدًا .

فقال شبث :

ـــ يا معاوية ، قد فهمت ما رددت على ابن محصن ، إنه لا يخفى علينا ما تقرب وما تطلب ، إنك لا تجد شيئًا تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم قتل إمامكم مظلوما فهلموا نطلب بدمه ، فاستجاب لك سفهاء طغام رذال ، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل بهذه

المنزلة التى تطلب . ورب مبتغ أمرًا وطالبه يحول الله دونه . وربما أوتى المتمنى أمنيته ، وربما لم يؤتها . والله ما لك فى واحدة منها خير . والله لئن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالا ، ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق صلى النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله .

فقال معاوية فى غضب :

— أما بعد ؛ فإن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك قطعك علىّ هذا الحسيب الشريف سيد قوم منطقه ، ثم عتبت بعد فيما لا علم لك به ، ولقد كذبت ولويت أيها الأعرابى الجلف الجافى فى كل ما وصفت وذكرت . انصرفوا من عندى فليس بينى وبينكم إلا السيف .

فخرج القوم وشبث يقول :

— أفعلينا تهول بالسيوف ، أما والله لنعجلنه إليك .

٢٦

أشفق الجميع من الحرب ، وخرج قراء أهل العراق وقراء أهل الشام فعسكروا ناحية صفين فى ثلاثين ألفًا ، وعسكر علىّ على الماء وعسكر معاوية فوق ذلك ، ومشت القراء فيما بين معاوية وعلىّ واستمرت السفارات ثلاثة أشهر فكان قراء معاوية يتهمون عليًّا ، والإمام يدحض التهمة بعد التهمة . دخل القراء على معاوية فقالوا :

— يا معاوية ما الذى تطلب ؟

— أطلب بدم عثمان .

— ممن تطلب بدم عثمان ؟

— من علىّ .

— وعلىّ عليه السلام قتله ؟

— نعم هو قتله وآوى قاتليه .

فانصرفوا من عنده فدخلوا على علىّ فقالوا :

— إن معاوية يزعم أنك قتلت عثمان .

— اللهم كذب فيما قال . لم أقتله .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه فقال لهم معاوية :

— إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالأ .

فرجعوا إلى علىّ عليه السلام فقالوا :

— إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلت بيدك فقد أمرت ومالأت على قتل عثمان .

— اللهم كذب فيما قال .

فرجعوا إلى معاوية فقالوا له :

— إن عليًّا عليه السلام يزعم أنه لم يفعل .

— إن كان صادقًا فليمكنا من قتلة عثمان ، فإنهم فى عسكره وجنده وأصحابه وعضده .

فرجعوا إلى علىّ عليه السلام فقالوا :

— إن معاوية يقول لك : إن كنت صادقًا فادفع إلينا قتلة عثمان أو مكنا منهم .

— تأول القوم عليه القرآن ووقعت الفرقة ، وقتلوه فى سلطانه وليس على ضربهم قود .

فقال معاوية :

— إن كان الأمر كما يزعمون فما له ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ولا ممن ها هنا معنا ؟

فقال علىّ عليه السلام :

— إنما الناس تبع المهاجرين والأنصار ، وهم شهود المسلمين فى البلاد على ولايتهم وأمر دينهم ، فرضوا بى وبايعونى ، ولست أستحل أن أدع ضرب معاوية

يحكم على الأمة ويركبهم ويشق عصاهم .

فقال معاوية :

ــ ليس كما يقول ، فما بال من ها هنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا فى هذا الأمر فيؤامروه ؟

فقال الإمام للقراء :

ــ ويحكم ، هذا للبدريين دون الصحابة ، ليس فى الأرض بدرىّ إلا قد بايعنى وهو معى ، أو قد أقام ورضى .

واستمرت السفارات ثلاثة أشهر ، ربيع الآخر وجماديين ، فكان رجال الحرب يضيقون بهذه الحالة ذرعًا ، فيفزعون الفزعة فيزحف بعضهم إلى بعض ويحجز القراء بينهم .

وأراد معاوية أن يزيل أهل العراق عن مكانهم فكتب فى سهم : « من عبد الله الناصح ، فإنى أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فيغرقكم ، فخذوا حذركم » ثم رمى معاوية بالسهم فى معسكر الإمام ، فوقع السهم فى يدى رجل من أهل الكوفة ،فقرأه ثم أقرأه، فلما ا قرأه وأقرأه الناس قالوا :

ــ هذا أخ ناصح كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية .

فلم يزل السهم يقرأ ويرتفع حتى رفع إلى أمير المؤمنين ، وقد بعث معاوية مائتى رجل من الفعلة إلى منحنى النهر ، بأيديهم المرور والزبل يحفرون فيها بحيال عسكر علىّ بن أبى طالب ، فقال علىّ :

ــ ويحكم ، إن الذى يعالج معاوية لا يستقيم له ولا يقوم عليه ، وإنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم ، فالهوا عن ذلك ودعوه .

ــ لا ندعهم والله يحفرون الساعة .

ــ يا أهل العراق لا تكونوا خلفى ، ويحكم لا تغلبونى على رأيى .

ــ والله لنرحلن ، فإن شئت فارتحل ، وإن شئت فأقم .

وغضب الإمام لمخالفة الجيش له ، وجعل يرقب جيشه وهو يصعد بعسكره

بعيدًا وقد بان فى وجهه الكدر ، وارتحل فى أخريات الناس وهو يقول :

ولو أنى أطعت عصيت قومى   إلى ركـــن اليمامـــة أو شمام
ولكنـــى إذا أبـــرمت أمـــرًا   منيت بخلـــف آراء الطغـــام

وما إن زال أهل الكوفة عن مكانهم حتى ارتحل معاوية حتى نزل على معسكر علىّ الذى كان فيه ، وبانت الخدعة ، وندم أهل العراق لعصيانهم الإمام المجرب ، ولكنهم لم يتعظوا فسرعان ما عصوه المرة تلو المرة ، فكانوا يتبرمون بعد فوات الفرص التى كان يهتبلها أهل المكر والدهاء .

ودعا علىّ الأشتر والأشعث فقال :

ــ ألم تغلبنى على رأيى أنت والأشعث ؟ فدونكما .

فقال الأشعث :

ــ أنا أكفيك يا أمير المؤمنين ، سأداوى ما أفسدت اليوم من ذلك .

وخرج الأشعث وهو يحس فداحة ما فعل ، فعزم على أن يقاتل أهل الشام ليزيلهم عن مكانهم ، فجمع بنى كندة وقال :

ــ يا معشر كندة ، لا تفضحونى اليوم ولا تخزونى ، إنما أقارع بكم أهل الشام .

فخرجوا معه رجالا يمشون ، وبيد الأشعث رمح له يلقيه على الأرض ويقول :

ــ امشوا قيس رمحى هذا .

وجمع الأشتر خيل أهل العراق وخرج للقتال ، وظل الأشعث يقيس لقومه الأرض برمحه ذلك ، ويمشون معه رجالا قد كسروا جفون سيوفهم حتى لقوا معاوية وسط بنى سليم واقفًا على الماء . وقد جاءه أدانى عسكره ، فاقتتلوا قتالا شديدا على الماء وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا ، وأقبل الأشتر وحمل على أهل الشام حملة ، واستمر القتال حتى انسحب أهل الشام وعاد عسكر الإمام إلى منزله وجعل الأشعث يهدد ويقول :

ــ أرضيت يا أمير المؤمنين ؟

وغلب عليّ على الماء فطرد عنه أهل الشام فبعث إلى معاوية :

ــ إنّا لا نكافيك بصنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء .

واقتتل الجيشان ذا الحجة كله ، فلما مضى ذو الحجة تداعى الناس أن يكف بعضهم عن بعض إلى أن ينقضى المحرم ، لعل الله أن يجزى صلحًا واجتماعًا ، فكف الناس بعضهم عن بعض ، وتوادع عليّ عليه السلام ومعاوية ، فاختلفت الرسل فيما بينهما رجاء الصلح ، فأرسل عليّ إلى معاوية عدى بن حاتم ، وشبث بن ربعى ، ويزيد بن قيس ، وزياد بن حصفة ، فدخلوا على معاوية ، فحمد الله عدى ابن حاتم وأثنى عليه ثم قال :

ــ أما بعد ، فإنا أتيناك لندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ، ويحقن الله به دماء المسلمين ، ويأمن به السبل ويصلح به البين ، وندعو إلى أفضلها سابقة وأحسنها فى الإسلام آثارًا ، وقد اجتمع له الناس ، وقد أرشدهم الله بالذى رأوا فأتوا ، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

فالتفت إليه معاوية وقال :

ــ كأنما إنما جئت متهددًا ولم تأت مصلحًا . هيهات يا عدى . كلا والله إنى لابن حرب ، ما يقعقع لى بالشنان . أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان ، وإنك لمن قتلته ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتله الله . هيهات يا عدى قد حلبت بالساعد الأشد .

وقال له شبث :

ــ أتيناك فيما يصلحنا وإياك.. فأقبلت تضرب الأمثال لنا ، دع ما لا ينفع من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه .

وتكلم يزيد فقال :

ــ إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ، ولنؤدى عنك ما سمعنا منك ، لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا به عليك حجة أو أنه راجع بك إلى

الألفة والجماعة . إن صاحبنا لمن قد عرفت وعرف المسلمون فضله ، ولا أظنه يخفى عليك . وإن أهل الفضل والدين لن يعدلوك بعلىّ عليه السلام ، ولن يميلوا بينك وبينه . فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف عليًّا ، فإنا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه .

فقال معاوية :

ـــ أما بعد ، فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التى دعوتم إليها فنعما هى . وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها . إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه ، أرأيتم قتلة صاحبنا ؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شبث :

ـــ أيسرك الله يا معاوية أن أمكنت من عمار بن ياسر فقتلته ؟

ـــ وما يمنعنى من ذلك ؟ والله لو أمكننى صاحبكم من ابن سمية ما قتلته بعثمان ، ولكن كنت أقتله بنائل مولى عثمان بن عفان .

ـــ وإله السماء ما عدلت معدلا ، لا والله الذى لا إله إلا هو لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تنحدر الهام عن كواهل الرجال . وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها .

ـــ إنه لو كان ذلك كانت عليك أضيق .

ورجع القوم عن معاوية ، فلما رجعوا من عنده بعث إلى زياد بن حفصة التيمى ، فدخل عليه وكان عمرو بن العاص عنده . فقال معاوية :

ـــ يا أخا ربيعة ، فإن عليًّا قطع أرحامنا وقتل إمامنا وآوى قتلة صاحبنا ، وإنى أسألك النصرة عليه بأسرتك وعشيرتك : ولك على عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليك أى المصرين أحببت .

ـــ إنى لعلى بينة من ربى ، وبما أنعم على فلن أكون ظهيرًا للمجرمين .

وقام زياد ، فقال معاوية لعمرو :

ـــ ليس يكلم رجل منا رجلا منهم بكلمة فيجيب بخير ، ما لهم غضبهم الله ، ما قلوبهم إلا قلب رجل واحد .

ووفد رسل معاوية على الإمام ، فدخل عليه حبيب بن مسلمة الفهرى وشرحبيل بن السمط ، ومعن بن يزيد ، فقال حبيب :

ـــ إن عثمان بن عفان كان خليفة مهديًا ، يعمل بكتاب الله ، وينيب إلى أمر الله ، فاستبقيتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه ، فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به ، فإن قلت إنك لم تقتله فاعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم هذا شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم .

فقال له علىّ عليه السلام :

ـــ وما أنت لا أم لك والولاية والعزل والدخول فى هذا الأمر . اسكت فإنك لست هناك ، ولا بأهل لذاك .

ـــ أما والله لترينى حيث تكره .

ـــ وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك ؟! اذهب فصوب وصعد ما بدا لك فلا أبقى الله عليك من أبقيت .

رأى شرحبيل رد الإمام الشديد فقال فى تخاذل :

ـــ إن كلمتك فلعمرى ما كلامى إياك إلا كنحو من كلام صاحبى قبلى ، فهل لى عندك جواب غير الجواب الذى أجبته به ؟

ـــ عندى جواب غير الذى أجبته به ، لك ولصاحبك .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ أما بعد ، فإن الله بعث النبى ﷺ فأنقذ به من الضلالة ، ونعش به من الهلكة ، وجمع به بعد الفرقة ، ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه ، ثم استخلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، وأحسنا السيرة ، وعدلا فى الأمة ، وقد وجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحق بالأمر ، فغفرنا

ذلك لهما ، ثم ولى أمر الناس عثمان فعمل بأشياء عابها الناس عليه فسار إليه ناس فقتلوه ، ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمرهم فقالوا لى : بايع . فأبيت عليهم ! فقالوا لى : بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك . وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس ، فبايعتهم ، فلم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايعانى ، وخلاف معاوية إياى ، الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سلف صدق فى الإسلام ، طليق بن طليق ، وحزب من الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدوًا هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهين مكرهين ، فعجبنا لكم ولإجلابكم معه وانقيادكم له ، وتدعون أهل بيت نبيكم ﷺ ، الذى لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا تعدلوا بهم أحدًا من الناس . إنى أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيكم ﷺ ، وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لنا ولكل مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة .

فقال له شرحبيل :

ــ أتشهد أن عثمان قتل مظلومًا ؟

ــ إنى لا أقول ذلك .

ــ فمن لم يشهد أن عثمان قتل مظلوما فنحن برآء منه .

وانصرف رسل معاوية فقال علىّ :

ــ ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ .

وفشلت السفارات ، وصمت رسل الصلح لترتفع صيحات الحرب وقعقعة السيوف .

٢٧

تأهب الجيشان ، وقعد الإمام على دابته وقال :

ـ الحمد لله رب العالمين على نعمه علينا وفضله العظيم . ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ .

ثم وجه دابته إلى القبلة ، ثم رفع يديه إلى السماء ثم قال :

ـ اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورفعت الأيدى ، وشخصت الأبصار . نشكو إليك غيبة نبينا ، وكثرة عدونا ، وتشتت أهوائنا . ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ .

وزحف علىّ بالناس إلى الشام ، ورفع معاوية قبة له عظيمة ، قد ألقى عليها الكرابيس وجلس تحتها ، وقام عبد الله بن بديل فى أصحابه فقال :

ـ إن معاوية ادعى ما ليس له ، ونازع الأمر أهله ومن ليس مثله ، وجادل بالباطل ليدحض به الحق ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، وزين لهم الضلالة ، وزرع فى قلوبهم حب الفتنة ، ولبس عليهم الأمر ، وزادهم رجسا إلى رجسهم ، وأنتم والله على نور من ربكم وبرهان مبين . قاتلوا الطغام الجفاة ولا تخشوهم .وكيف تخشونهم وفى أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبرور ؟! ﴿ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ وقد قاتلتهم مع النبى ﷺ ، والله ما هم فى هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبر . قوموا إلى عدو الله وعدوكم .

وتقدم عبد الله بن بديل ، فجعل يضرب الناس بسيفه قدمًا ، فلم يزل يحمل كليث فى أجمة كشر عن نابه ، وانطلق يهدف إلى معاوية فقد عزم على أن يقتله أو يموت دونه ، وتساقط أصحابه حوله كما تتساقط الأوراق عن الشجر فى الخريف

فلم يثنه ذلك عما وطن العزم عليه ، وانتهى إلى معاوية والذين بايعوه على الموت ، فدب الذعر فى نفس معاوية فأمر رجاله أن يصمدوا لذلك الليث الذى يتقدم بجنان ثابت وقد أطل من سيفه المنون ، وبعث إلى حبيب بن مسلمة وهو فى الميسرة أن يحمل عليه بجميع من معه ، واختلط الناس واضطرم ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشام ، وظل ابن بديل يشق الجموع قدما فزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، واستولى الفزع على معاوية ، فتراجع عن مكانه وأشفق على نفسه ، وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية وثالثة يستنجده ويستصرخه ، وحمل حبيب حملة شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق فكشفها ، حتى لم يبق مع ابن بديل إلا نحو مائة إنسان من القراء ، فاستند بعضهم إلى بعض يحمون أنفسهم ، ولجج ابن بديل فى الناس وصمم على قتل معاوية ، وجعل يطلب موقفه ويصمد نحوه حتى انتهى إليه فنادى معاوية بالناس :

ـــ ويلكم ؟ الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح .

فأقبل أصحاب معاوية على عبد الله بن بديل يرضخونه بالصخر حتى أثخنوه وقتل الرجل ، وأقبل إليه معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه . فأما عبد الله بن عامر فألقى عمامته على وجهه وترحم عليه ، وكان له من قبل أخا وصديقًا ، فقال معاوية :

ـــ اكشف عن وجهه .

ـــ لا والله ، لا يمثل به وفىّ روح .

ـــ اكشف عن وجهه ، فإنا لا نمثل به ، فقد وهبته لك .

فكشف ابن عامر عن وجهه فقال معاوية :

ـــ هذا كبش القوم ورب الكعبة ، اللهم أظفرنى بالأشتر النخعى والأشعث الكندى .

رأى الإمام ما حل بابن بديل فأمر سهل بن حنيف أن يتقدم فيمن كان مع الإمام من أهل المدينة ، فاستقبلهم جموع أهل الشام فى خيل عظيمة ، فحملوا عليهم

وألحقوهم بالميمنة ، وكانت الميمنة متصلة إلى موقف علىّ فى القلب فى أهل اليمن ، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى علىّ ، فانصرف علىّ يمشى نحو الميسرة ومعه بنوه ، والنبل يتطاير بين عاتقيه ومنكبيه ، وما من بنيه أحد إلا يتقيه بنفسه ، فكره علىّ ذلك ، وخشى أن يصاب الحسن والحسين بمكروه ، فقال لمن حوله :

ـــ املكوا عنى هذين الفتيين أخاف أن ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ .

وتقدم أحمر مولى أبى سفيان وخالط عليًّا ليضربه بالسيف ، فانتهزه علىّ ، فجذبه ثم حمله على عاتقه ثم ضرب به الأرض فكسر منكبه وعضده ، وشد الحسين ومحمد بن الحنفية فضرباه بأسيافهما حتى إذا أتيا عليه أقبلا إلى أبيهما والحسن معه قائم ، فالتفت إليه فقال :

ـــ يا بنى ، ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك ؟

ـــ كفيانى يا أمير المؤمنين .

ودنا أهله منه فقال له الحسن :

ـــ ما ضرك لو سعيت حتى تنتهى إلى هؤلاء الذين صبروا لعدوك من أصحابك ؟

ـــ يا بنى ، إن لأبيك يوما لن يعدوه ، ولا يبطئ به عن السعى ، ولا يعجل به إليه المشى . إن أباك والله ما يبالى وقع على الموت أو وقع الموت عليه .

وظلت رحى الحرب دائرة تطحن الفريقين ، وكان فارس معاوية الذى يعده لكل مبارزة ولكل عظيم حريث مولاه وكان يلبس سلاح معاوية متشبها به فإذا قاتل قال الناس : ذاك معاوية ، وإن معاوية دعاه فقال :

ـــ يا حريث ، اتق عليًّا وضع رمحك حيث شئت .

فأتاه عمرو بن العاص فقال :

ـــ يا حريث ، إنك والله لو كنت قرشيا لأحب معاوية أن تقتل عليًّا لكن كره أن يكون لك حظها ، فإن رأيت فرصة فاقحم .

وامتلأ العبد غرورا ، وصدق ما قاله له ابن العاص ، وحسب أنه كفء للإمام

فخرج وقال :

ـــ يا علىّ هل لك فى المبارزة ؟ فأقدم أبا حسن إذا شئت .

فأقبل عليه وهو يقول :

أنا علىّ وابن عبد المطلب نحن لعمرو الله أولى بالكتب
منا النبى المصطفى غير كذب أهل اللواء والمقام والحجب
نحن نصرناه على كل العرب يأيها العبد الغرير المنتدب
اثبت لنا يأيها الكلب الكَلب

ثم خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة واحدة فقطعه نصفين ، ورأى معاوية ما حل بفارسه فجزع جزعا شديدا ، وخرج رجل إلى علىّ فجدله الإمام ، ثم قام علىّ بين الصفين ثم نادى :

ـــ يا معاوية ! يا معاوية !

فقال معاوية :

ـــ اسألوه ، ما شأنه ؟

ـــ أحب أن يظهر لى فأكلمه كلمة واحدة .

فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص ، فلما قاربه لم يلتفت إلى عمرو ، وقال لمعاوية :

ـــ ويحك ، علام يقتتل الناس بينى وبينك ، ويضرب بعضهم بعضًا ؟! ابرز إلىّ فأينا قتل صاحبه فالأمر له .

فالتفت معاوية إلى عمرو فقال فى صوت خفيض :

ـــ ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا ، أبارزه ؟

فقال عمرو فى خبث :

ـــ لقد أنصفك الرجل ، واعلم أنه إن نكلت لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقى عربى .

ـــ يا عمرو بن العاص ، ليس مثلى يخدع عن نفسه ، والله ما بارز ابن أبى طالب

رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه .

وانصرف معاوية راجعا دون أن ينبس بكلمة ، ولما اقترب من صفوف جيشه التفت إلى عمرو وقال :

— ما أحمقك ، أتراني أبرز إليه ودوني عك والأشعرون وجذام ؟!

وحقدها معاوية على عمرو في نفسه ، وقال له متوددا :

— ما أظنك قلت ما قلته يا عمرو إلا مازحا .

وظل معاوية يخترق جيشه حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه ، فلما رأى عليّ عليه السلام ذلك ضحك وعاد إلى موقفه .

ونادى منادى أهل الشام :

— ألا إن معنا الطيب بن الطيب ، عبيد الله بن عمر .

فقال عمار بن ياسر :

— بل هو الخبيث ابن الطيب .

ونادى منادى أهل العراق :

— ألا إن معنا الطيب ابن الطيب ، محمد بن أبي بكر .

فنادى منادى أهل الشام :

— بل هو الخبيث ابن الطيب .

وسالت الدماء أنهارا ، وعظم القتال ، وبعث عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن على فقال :

— إن لى إليك حاجة فالقنى .

فلقيه الحسن فقال له عبيد الله :

— إن أباك قد وتر قريشا أولا وآخرا ، وقد شنئوه ، فهل لك أن تخلفه ونوليك هذا الأمر ؟

— كلا والله لا يكون ذلك .

وحدجة قليلا ثم قال :

ـــ لكأنى أنظر إليك مقتولا فى يومك أو غدك . أما إن الشيطان قد زين لك وخدعك حتى خرجك مخلقا بالخلوق ترى نساء أهل الشام موقفك ، وسيصرعك الله ويبطحك قتيلا .

٢٨

كان القتال رهيبًا حتى إن الناس كانوا يصلون تكبيرا ، وكان اليوم شديدًا فقد دفع الإمام بالراية إلى عمار بن ياسر ، فمضى ومضى معه أصحابه ، فلما دنا من عمرو بن العاص قال :

ـــ يا عمرو ، بعت دينك بمصر ؟ تبا لك ، ولطالما بغيت الإسلام عوجا .

ثم حمل عمار حملة منكرة ، ثم نادى عبيد الله بن عمر فقال :

ـــ يابن عمر ، صرعك الله ؟ بعت دينك بالدنيا من عدو الله وعدو الإسلام .

ـــ كلا ، ولكن أطلب بدم عثمان الشهيد المظلوم .

ـــ كلا ، أشهد على علمى فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله ، وأنك إن لم تقتل اليوم فستموت غدًا ، فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما نيتك ؟ اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلت . اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبة سيفى فى بطنى ثم أنحنى عليها حتى يخرج من ظهرى لفعلت . اللهم وإنى أعلم مما أعلمتنى أنى لا أعمل اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا أرضى لك منه لفعلته .

وارتفعت الشمس ، واستظل عمار ومن حوله ببرد أحمر ، وأقبل رجل يستقرى الصف فقال :

ـــ أيكم عمار بن ياسر ؟

ـــ هذا عمار .

ــ أبو اليقظان ؟

ــ نعم .

ــ إن لى حاجة إليك فأنطق بها علانية أو سرا ؟

ــ اختر لنفسك أى ذلك شئت .

ــ لا ، بل علانية .

ــ فانطق .

ــ إنى خرجت من أهلى مستبصرا فى الحق الذى نحن عليه لا أشك فى ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل ، فلم أزل على ذلك مستبصرا حتى كان ليلتى هذه صباح يومنا هذا ، فتقدم منادينا فشهد ألا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ونادى بالصلاة . فنادى مناديهم بمثل ذلك ، ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة ، ودعونا دعوة واحدة ، وتلونا كتابا واحدا ، ورسولنا واحد فأدركنى الشك فى ليلتى هذه ، فبت بليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت ، فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال : هل لقيت عمار بن ياسر ؟ قلت : لا . قال : فالقه فانظر ما يقول لك فاتبعه . فجئتك لذلك .

فقال له عمار :

ــ هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلتى ؟ فإنها راية عمرو بن العاص قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، وهذه الرابعة ما هى بخيرهن ولا أبرهن ، بل هى شرهن وأفجرهن . أشهدت بدرًا وأُحدًا وحنينًا أو شهدها لك أب فيخبرك عنها ؟

ــ لا .

ــ فإن مراكزنا على مراكز رايات الرسول ﷺ يوم بدر ، ويوم حنين ، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب ، هل ترى هذا العسكر ومن فيه ؟ فوالله لوددت أن جميع من أقبل مع معاوية ممن يريد قتالنا مفارقا للذى نحن عليه كانوا خلقا واحدا فقطعته وذبحته . والله لدماؤهم جميعًا أحل من دم عصفور . أفترى دم عصفور حراما ؟

ـــ لا . بل حلال .

ـــ فإنهم كذلك حلال دماؤهم . أترانى بينت، لك ؟

ـــ قد بينت لى .

ـــ فاختر أى ذلك أحببت .

فانصرف الرجل ثم دعاه عمار بن ياسر فقال :

ـــ أما إنهم سيضربوننا بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولون : لو لم يكونوا على حق ما ظهروا علينا ، والله ما هم من الحق على ما يقذى عين ذباب . والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعرفت أنا على حق وهم على باطل . وأيم الله لا يكون سلما سالما أبدًا حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين ، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق ، وأن قتلاهم فى الجنة وموتاهم ، ولا تنصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم فى الجنة وأن موتى أعدائهم وقتلاهم فى النار ، وكان أحياؤهم على الباطل .

وبعث عمرو بن العاص إلى عمار بن ياسر ، فقال عمار لأصحابه :

ـــ اركبوا .

فركبوا وساروا ، وبعثوا إلى عمرو رجلا من عبد القيس ، فذهب حتى كان قريبًا من القوم ، ثم نادى :

ـــ أين عمرو بن العاص ؟

ـــ ها هنا .

فدخل الرجل على عمرو وأخبره بما كان من عمار ، فقال له عمرو :

ـــ قل له فليسر إلينا .

ـــ إنه يخاف غدراتك .

ـــ ما جرأك على وأنت على هذه الحال ؟

ـــ جرأنى عليك بصيرتى فيك وفى أصحابك . فإن شئت نابذتك الآن على سواء .

وسار عمرو فى عشرة ، وسار عمار فى اثنى عشر فارسا حتى اختلفت أعناق خيل عمرو وخيل عمار ، ونزل عمار والذين معه فاحتبوا بحمائل سيوفهم ، فتشهد عمرو بن العاص ، فقال له عمار :

— اسكت فقد تركتها فى حياة محمد ﷺ وبعد موته ، ونحن أحق بها منك ، فإن شئت كانت خصومة ، فيدفع حقها باطلك ، وإن شئت كانت خطبة فنحن أعلم بفصل الخطاب منك ، وإن شئت أخبرتك بكلمة تفصل بينى وبينك وتكفرك قبل القيام ، وتشهد بها على نفسك ، ولا تستطيع أن تكذبنى فيها .

— يا أبا اليقظان ، ليس لهذا جئت ، إنما جئت لأنى رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم : أذكرك الله إلا كففت سلاحهم وحقنت دماءهم ، وحرضت على ذلك فعلام تقاتلنا ؟ أوَ لسنا نعبد إلٰها واحدًا ، ونصلى إلى قبلتكم ، وندعو دعوتكم ، ونقرأ كتابكم ، ونؤمن برسولكم ؟

— الحمد لله الذى أخرجها من فيك ، إنها لى ولأصحابى : القبلة ، والدين ، وعبادة الرحمن ، والنبى ﷺ ، والكتاب من دونك ودون أصحابك . الحمد لله الذى قدرك لنا بذلك ، دونك ودون أصحابك ، وجعلك ضالا مضلا ، لا تعلم هاد أنت أم ضال ، وجعلك أعمى . وسأخبرك علام قاتلتك عليه أنت وأصحابك . أمرنى رسول الله ﷺ أن أقاتل الناكثين ، وقد فعلت ، وأمرنى أن أقاتل القاسطين ، فأنتم هم ، وأما المارقون فما أدرى أدركهم أم لا . أيها الأبتر ، ألست تعلم أن رسول الله ﷺ قال لعلىّ : « من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » . وأنا مولى لله ورسوله وعلىّ بعده ، وليس لك مولى .

— لم تشتمنى يا أبا اليقظان ولست أشتمك ؟

— وبم تشتمنى ؟ أتستطيع أن تقول : إنى عصيت الله ورسوله يوما قط ؟

— إنك فيك لمسبات سوى ذلك .

— إن الكريم من أكرمه الله ، كنت وضيعًا فرفعنى الله ، ومملوكا فأعتقنى الله ،

وضعيفًا فقوانى الله ، وفقيرا فأغنانى الله .

وخرج الناس إلى القتال ، وصفت الخيول بعضها لبعض ، واقتتل الناس قتالا شديدًا لم يسمع الناس بمثله ، وكثرت القتلى حتى إن الرجل ليشد طنب فسطاطه بيد الرجل أو برجله ، وفى الليل اجتمع معاوية وعمرو وقد أقلق معاوية كثرة ما قتل من أصحابه ، فبات يخشى أن تدور به الدوائر ، فجعل يفكر فى أن يفرق أصحاب علىّ عنه ، وخطر له أن يستميل ابن عباس ، فقال لعمرو :

ـــ إن رأس الناس بعد علىّ هو عبد الله بن عباس ، فلو ألقيت إليك كتابا لعلك ترتقه به ، فإنه إن قال شيئًا لم يخرج علىّ منه ، وقد أكلتنا الحرب ، ولا أرانا نصل إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام .

ـــ إن ابن عباس لا يخدع ولو طمعت فيه لطمعت فى علىّ .

ـــ على ذلك ، فاكتب إليه .

فكتب إليه عمرو : « أما بعد فإن الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وساقته العافية ، وأنت رأس هذا الجمع بعد علىّ ، فانظر فيما بقى ودع ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرًا . واعلموا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق وأن العراق لا تملك إلا بهلاك الشام ، وما خيرنا بعد هلاك أعدائنا منكم ، وما خيركم بعد هلاك أعدائكم منا ، ولسنا نقول ليت الحرب غارت ولكنا نقول ليتها لم تكن ، وإن فينا من يكره القتال كما أن فيكم من يكرهه ، وإنما هو أمير مطاع . أو مأمور مطيع ، أو مؤتمن مشاور فهو أنت ، وأما الأشتر الغليظ الطبع ، القاسى القلب ، فليس بأهل أن يدعى فى الشورى ولا فى خواص أهل النجوى ، وكتب فى أسفل الكتاب :

طال البلاء وما يرجى له آس ... بعد الإله سوى رفق ابن عباس
قولا له قول من يرضى بحظوته ... لا تنس حظك إن الخاسر الناسى
ياابن الذى زمزم عقيا الحجيج له ... أعظم بذلك من فخر على الناس
كل لصاحبـــه قرن يساوره ... أسد العرين أسود بين أخياس
لو قيس بينهم فى العرب لاعتدلوا ... العجز بالعجز ثم الرأس بالراس

انظر فدى لك نفسي قبل قاصمة   للظهر ليس لها راق ولا آسي

فلما قرأ ابن عباس الكتاب أتى به عليًّا فأقرأه شعره فضحك وقال :

— قاتل الله ابن العاص ، ما أغراه بك ياابن عباس ، أجبه وليرد عليه شعره الفضل بن عباس فإنه شاعر .

فكتب ابن عباس إلى عمرو : « أما بعد فإنى لا أعلم رجلا من العرب أقل حياء منك . إنه مال بك معاوية إلى الهوى ، وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت الناس فى عشوة طمعا فى الملك ، فلما لم تر شيئًا أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ، فإن كنت ترضى الله بذلك فدع مصر وارجع إلى بيتك . وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلىّ . ابتدأها علىّ بالحق ، وانتهى فيها إلى الغدر ، وبدأها معاوية بالبغى وانتهى فيها إلى السرف . وليس أهل العراق فيها كأهل الشام ، بايع أهل العراق عليًّا وهو خير منهم ، وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه . ولست أنا وأنت فيها بسواء ، أردت الله وأردت أنت مصر . وقد عرفت السبب الذى باعدك منى . ولا أرى الشىء الذى قربك من معاوية . فإن ترد شرًا لا نسبقك به ، وإن ترد خيرًا لا تسبقنا إليه والسلام » .

ثم دعا الفضل بن العباس فقال له :

— ياابن أم ، أجب عمرا .

فقال الفضل :

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس   فاذهب فليس لداء الجهل من آسى

إلا تواتر طعن فى نحوركم   يشجى النفوس ويشفى نخوة الراسى

هذا الدواء الذى يشفى جماعتكم   حتى تطيعوا عليًّا وابن عباس

أما علىّ فإن الله فضله   بفضل ذى شرف عال على الناس

ثم عرض الشعر والكتاب على علىّ فقال :

— لا أراه يجيبك بشىء بعدها إن كان يفعل ، ولعله يعود فتعود عليه .

فلما انتهى الكتاب إلى عمرو أتى به معاوية فقال :

— أنت دعوتنى إلى هذا ، ما كان أغنانى وإياك عن بنى عبد المطلب .

— إن قلب ابن عباس وقلب علىّ قلب واحد وكلاهما ولد عبد المطلب ، وإن كان قد خشن فلقد لان ، وإن كان قد تعظم أو عظم صاحبه فلقد قارب وجنح إلى السلم .

وفكر معاوية فى أن يكتب إلى ابن عباس بنفسه ، فقد كان يكاتب ابن عباس وكان يجيبه بقول لين ، فقال معاوية :

— إن ابن عباس رجل من قريش وأنا كاتب إليه فى عداوة بنى هاشم لنا ، وأخوفه عواقب هذه الحرب لعله يكف عنها .

فكتب إليه : « أما بعد فإنكم يا معشر بنى هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان بن عفان ، حتى إنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما دمه واستعظامهما ما نيل منه. فإن يكن ذلك لسلطان بنى أمية فقد وليها عدى وتيم، فلم تنافسوهم وأظهرتهم لهم الطاعة . وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، أكلت هذه الحرب بعضها من بعض حتى استوينا فيها ، فما أطمعكم فينا أطمعنا فيكم ، وما آيسكم منا آيسنا منكم . وقد رجونا غير الذى كان ، وخشينا دون ما وقع ، ولستم بملاقينا اليوم بأحد من حد أمس ولا غدًا بأحد من حد اليوم ، وقد قنعنا بما كان فى أيدينا من ملك الشام ،فاقنعوا بما فى أيديكم من ملك العراق ، وأبقوا على قريش . فإنما بقى من رجالها ستة ، رجلان بالشام ، ورجلان بالعراق ، ورجلان بالحجاز ، فأما اللذان بالشام فأنا وعمرو،وأما اللذان بالعراق فأنت وعلىّ ، وأما اللذان بالحجاز فسعد وابن عمر ، واثنان من الستة ناصبان لك ، واثنان واقفان فيك ، وأنت رأس هذا الجمع اليوم ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى علىّ » .

وبعث معاوية بالكتاب إلى ابن عباس وكان يأمل أن يفرق به بين ابن عباس وعلىّ فقد مناه الخلافة ، ولكن ما انتهى الكتاب إلى ابن عباس حتى أسخطه ثم قال :

— حتى متى يخطب ابن هند إلى غفلى . وحتى متى أجمجم على ما فى نفسى ؟!

فكتب إليه : « أما بعد ، فقد أتانى كتابك وقرأته . وأما ما ذكرت من سرعتنا إليك بالمساءة فى أنصار ابن عفان،وكراهيتنا لسلطان بنى أمية،فلعمرى لقد أدركت فى عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره،حتى صرت إلى ما صرت إليه وبينى وبينك فى ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة ، وأما طلحة والزبير فإنهما أجلبا عليه،وضيقا خناقه ، ثم خرجا ينقضان البيعة ويطلبان الملك فقاتلناهما على النكث ، وقاتلناك على البغى ، وأما قولك إنه لم يبق من قريش غير ستة ، فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها ، وقد قاتلك من خيارها من قاتلك ، ولم يخذلنا إلا من خذلك .

وأما إغراؤك إيانا بعدىّ وتيم فأبو بكر وعمر خير من عثمان ، كما أن عثمان خير منك ، وقد بقى لك منا يوم ينسيك ما قبله ويخاف ما بعده . أما قولك إنه لو بايع الناس لى لاستقامت لى ، فقد بايع الناس عليًّا وهو خير منى فلم يستقيموا له . وإنما الخلافة لمن كانت له فى الشورى وما أنت يا معاوية والخلافة وأنت طليق وابن طليق ، والخلافة للمهاجرين الأولين . وليس الطلقاء منها فى شىء والسلام » .

فلما انتهى الكتاب إلى معاوية قال :

— هذا عملى بنفسى . لا والله لا أكتب إليه كتابا سنة كاملة .

٢٩

اصطف الناس ، ونادى عمار بن ياسر :

— أين من يبغى رضوان ربه ولا يؤوب إلى مال ولا ولد ؟

فأتته عصابة من الناس فقال :

— أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبغون دم عثمان ويزعمون أنه قُتل مظلوما .

ورفع عليّ الراية إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ذلك الفارس الذى هد الروم وزلزل الفرس زلزالا شديدا وفقد إحدى عينيه فى سبيل الله ، وقال له :

ـــ يا هاشم حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟

ـــ لأجهدن على ألا أرجع إليك أبدًا .

ـــ إن بإزائك ذا الكلاع ، وعنده الموت الأحمر . أياهاشم ، أما تخشى من نفسك أن تكون أعور جبانا ؟

ـــ ستعلم يا أمير المؤمنين . والله لألفن بين جماجم القوم لف رجل ينوى الآخرة .

فأخذ رمحه فهزه فانكسر ، ثم آخر فوجده جاسيا فألقاه ، ثم دعا برمح لين فشد به لواءه ، والتفت إلى الناس وقال :

ـــ أيها الناس ، إنى رجل ضخم ، فلا يهولنكم مسقطى إن أنا سقطت ، فإنه لا يفرغ منى أقل من نحر جزور حتى يفرغ الجزار من جزرها .

وتقدم عمار حتى دنا من هاشم فقال له :

ـــ احمل فداك أبى وأمى .

ـــ رحمك الله يا عمار ، إنك رجل تأخذك خفة فى الحرب وإنى إنما أزحف باللواء زحفا وأرجو أن أنال بذلك حاجتى .

وصاح رجل :

ـــ أقدم هاشم . أقدم هاشم . مالك يا هاشم قد انتفخ سحرك، أعورًا وجبنا ؟

فالتفت هاشم إلى أصحابه وقال :

ـــ شدوا شسوع نعالكم ، وشدوا أزركم ، فإذا رأيتمونى قد هززت الراية ثلاثا فاعلموا أن أحدًا منكم لا يسبقنى إلى الحملة .

ثم نظر هاشم إلى عسكر معاوية فرأى جمعا عظيما ، فقال :

ـــ من أولئك ؟

— أصحاب ذى الكلاع .

ثم نظر فرأى جندًا فقال :

— من أولئك ؟

— جند أهل المدينة وقريش .

— قومى ، لا حاجة لى فى قتالهم .

— من عند هذه القبة البيضاء ؟

— معاوية وجنده .

— فإنى أرى دونهم أسوده .

— ذاك عمرو بن العاص وابناه ومواليه .

وأخذ الراية فهزها ، فقال له رجل من أصحابه :

— امكث قليلا ولا تعجل .

قد أكثروا لومى وما أقـلا   إنى شريت النفس ، لن أعتلا
أعـور يبغـى نفسه محلا   لا بد أن يفـل أو يفـلا

وجعل عمار بن ياسر يتناوله بالرمح ويقول :

— أقدم يا أعور .

واشتد القتال وهاشم يتقدم تحت لواء عمار ، ونظر عمرو بن العاص فقال فى جزع :

— إنى لأرى لصاحب الراية السوداء عملا ، لئن دام على هذا لتفنين العرب اليوم ، فقال معاوية :

— ويحك ، إن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة وقد كان من قبل يرقل به إرقالا ، وإنه زحف به اليوم زحفا إنه لليوم الأطول لأهل الشام ، وإن زحف فى عنق من أصحابه إنى لأطمع أن تقتطع .

وبعث معاوية عبيد الله بن عمر فى أربعة آلاف وثلثمائة ، وهى كتيبته الخضرية الرقطاء ، وحاول ابن عمر أن يأتى عليًا من ورائه ، ففطن علىّ إلى ذلك فبعث إليهم

أعدادهم ليس منهم إلا تميمى .

واقتتل الناس من أول اعتدال النهار إلى المغرب ، وزحف هاشم حتى اقترب من جمع فيه عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال عمرو فى فزع :

ـ يالله ، يا رحمن ابنى ابنى .

فقال له معاوية :

ـ صبرا صبرا فإنه لا بأس عليه .

ـ لو كان يزيد بن معاوية إذا لصبرت .

وزحف عمار يبغى راية عمرو فلما بصرها قال :

ـ والله إن هذه الراية قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن .

وأمسى المساء ، فصاح هاشم :

ـ ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل .

وحمل هاشم وصبر أهل الشام فقال لأصحابه :

ـ لا يهولنكم ما ترون من صبرهم ، فوالله ما ترون منهم إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها ، وإنهم لعلى الضلال ، وإنكم لعلى الحق . يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا ، وامشوا بنا إلى عدونا على تؤدة رويدا . ثم تآسوا وتصابروا واذكروا الله ولا يسلم رجل أخاه ، ولا تكثروا الالتفات ، واصمدوا صمدهم ، وجالدوهم محتسبين ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

واشتد القتل ، وسالت الدماء أنهارا ، وسقط صناديد الرجال صرعى ، وصاح عمار :

ـ الجنة تحت الأسنة .

وجعل يزحف حتى طُعن ، فسقط يجود بنفسه ويغمغم :

اليوم ألقى الأحبة   محمداً وحزبه

ووقفت الزرقاء بنت عدى بين الصفين وكانت راكبة جملا أحمر تحض على القتال ، وتوقد نار الحرب ، فكانت كلماتها تصك آذان معاوية وقومه ، فكأنها

شواظ من نار ، وراح سيف هاشم يحصد الرءوس ، ووقف هاشم قليلا فبعث إليه الإمام ؟ أن قدم لواءك ، فقال للرسول :

— انظر إلى بطنى .

فإذا هو قد انشق ، وسقط هاشم ثم رفع رأسه فإذا هو بعبيد الله بن عمر قتيلا إلى جانبه ، فحبا حتى دنا منه ، فعض على ثديه حتى نبيت فيه أنيابه ، ثم مات هاشم وهو على صدر عبيد الله .

ورأى عبيد الله بن هاشم مصرع أبيه ، فهرع إلى الراية فأخذها ثم قال :

— إن هاشمًا كان عبدًا من عباد الله الذين قدر أرزاقهم ، وكتب آثارهم . وأحصى أعمالهم ، وقضى آجالهم ، فدعاه ربه الذى لا يُعصى فأجابه ، وسلم الأمر لله وجاهد فى طاعة ابن عم رسول الله ، وأول من آمن به ، وأفقههم فى دين الله ، المخالف لأعداء الله المستحلين ما حرم الله ، الذين يحكمون فى البلاد بالجور والفساد ، واستحوذ عليهم الشيطان فزين لهم الإثم والعدوان ؟ فحق عليهم جهاد من خالف سنة رسول الله وعطل حدود الله ، وخالف أولياء الله ، فجودوا بمهج أنفسكم فى طاعة الله فى هذه الدنيا ، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى والملك الذى لا يبلى . فلو لم يكن ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ، لكان القتال مع علىّ أفضل من القتال مع معاوية ابن آكلة الأكباد . فكيف وأنتم ترجون ما ترجون ؟

وأقبلت الكتائب بعضها إلى بعض ، فاقتتلت قياما فى الركب ، لا يسمع السامع إلا وقع السيوف على البيض والدرق ، واختلط أمر الناس حتى ترك أهل الرايات مراكزهم ، وأتى الإمام ربيعة ليلا فكان فيهم ، وأقبل عدى بن حاتم يطلب عليًّا فى موضعه الذى تركه فيه فلم يجده فطاف يطلبه وهو منزعج ، فأصابه فى مصاف ربيعة فقال :

— يا أمير المؤمنين أما إذا كنت حيا فالأمر أمم ، ما مشيت إليك إلا على قتيل وما أبقت هذه الوقعة لنا ولهم عميدا ، فقاتل حتى يفتح الله عليك فإن فى القوم بقية بعد .

وأقبل الأشعث يلهث جزعا ، فلما رأى عليًّا هلل وكبر وقال :

— يا أمير المؤمنين خيل كخيل ، ورجال كرجال ولنا الفضل عليهم إلى ساعتنا هذه ، فعد إلى مقامك الذى كنت فيه ، فإن الناس إنما يظنونك حيث تركوك .

وأرسل سعيد بن قيس الهمدانى إلى علىّ عليه السلام .

— إنا مشتغلون بأمرنا مع القوم وفينا فضل ، فإن أردت أن نمد أحدا أمددناه .

وأقبل علىّ على ربيعة فقال :

— أنتم درعى ورمحى .

فقال عدىّ بن حاتم :

— يا أمير المؤمنين، إن قوما أنست بهم وكنت فيهم فى هذه الجولة لعظيم حقهم علينا . والله إنهم لصبر عند الموت ، أشداء عند القتال .

وركب الإمام فرسه الذى كان لرسول الله ثم تقدم أمام الصفوف ، ثم قال :

— بل البغلة ، بل البغلة.

فقدمت له بغلة رسول الله ، فركبها ثم تعصب بعمامة رسول الله السوداء ثم نادى :

— أيها الناس ، من يشر نفسه لله يربح . هذا يوم له ما بعده . إن عدوكم قد مسه القرح كما مسكم .

فانتدب له خلق كثير ، وتقدمهم علىّ منقطعا على بغلة رسول الله ، وتقوضت صفوف أهل الشام فقال عمرو بن العاص :

— على من هذا الرهج الساطع ؟

— على ابنيك عبد الله ومحمد .

فجزع عمرو وقال لمولاه :

— يا وردان قدم لواءك .

وتقدم عمرو فبعث إليه معاوية :

— إنه ليس على ابنيك بأس فلا تنقض الصفوف، والزم موقعك .

— هيهات هيهات !

الليث يحمى شبليه ما خيره بعد ابنيه

فتقدم باللواء فلقى الناس وهو يحمل ، فأدركه رسول معاوية فقال له :

— إنه ليس على ابنيك بأس فلا تحملن .

— قل له : إنك لم تلدهما ، وإنى أنا ولدتهما .

وبلغ مقدم الصفوف فقال له الناس :

— مكانك ، إنه ليس على ابنيك بأس ، إنهما فى مكان حريز .

— أسمعونى أصواتهما حتى أعلم أحيّان هما أم قتيلان ؟

واطمأن عمرو على ابنيه فعاد إلى معاوية ، وأهل العراق يزحفون يشقون الصفوف حتى أفضى الأمر إلى مضرب معاوية ، وعلىّ يضرب بسيفه ويقول :

أضربهم ولا أرى معاويـــة الأحزر العين العظيم الحاوية

هوت به فى النـار أم هاويـة

فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه . فلما أخذ معرفة فرسه ووضع رجله فى الركاب تذكر كلمات عمرو بن الإطنابة .

أبت لى عفتـــى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيـح

وإجشامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطـل المشيـح

وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفـع عن مآثـر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

بذى شطب كلون الملح صاف ونفس ما تقر على القبيـــح

والتفت إلى عمرو وقال :

— ياابن العاص ، اليوم صبر وغدا فخر .

— صدقت .

فثنى معاوية رجله من الركاب فنزل واستصرخ بقومه فوقفوا دونه وجالدوا عنه ، ونال الإعياء من الفريقين فتحاجز الناس .

وجلس معاوية وعمرو وأصحابهما ، وجاء رجلان يختصمان فى قتل عمار ، فالتفت عبد الله بن عمرو إلى أبيه وإلى معاوية وقال :

— ليطب كل واحد منكما نفسا لصاحبه بقتل عمار ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقتله الفئة الباغية » .

فقال معاوية لعمرو :

— ألا تنهى عنا مجنونك هذا ؟

ثم أقبل معاوية على عبد الله فقال له :

— فلِم تقاتل معنا ؟

— إن رسول الله ﷺ أمرنى بطاعة والدى ما كان حيًّا وأنا معكم ولست أقاتل .

وخشى معاوية أن يذاع ذلك الحديث بين الناس فينفضوا من حوله فقال ليخدع أهل الشام :

— إنما قتله من أخرجه .

وإنه لقول متهافت ، لا يثبت لحجة ولكن صدقه أهل الشام .

٣٠

طحنت الحرب العسكرين ، وأهم معاوية كثرة القتل فى أصحابه ، ففكر فى أن يكتب إلى علىّ يطلب الشام منه ، فقال لعمرو :

— قد رأيت أن أكتب إلى علىّ كتابا أسأله الشام ، وهو الشىء الأول الذى ردنى عنه ، وألقى فى نفسه الشك والرقة .

فضحك عمرو بن العاص ثم قال :

— أين أنت يا معاوية من خدعة علىّ ؟!

كان عمرو يعلم مقدار دهاء الإمام وأنه لولا التقى والدين لكان أدهى العرب ،

ولكن معاوية أراد أن يطمئن نفسه ، فقال :

ـــ ألسنا بنى عبد مناف ؟

ـــ بلى ، ولكن لهم النبوة دونك ، وإن شئت أن تكتب فاكتب .

فكتب معاوية إلى علىّ :

« أما بعد ، فإنى أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا ، لم يجنها بعضنا على بعض . وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نندم به على ما مضى ، ونصلح به ما بقى . وقد كنت سألتك الشام على ألا تلزمنى لك طاعة ولا بيعة ، فأبيت ذلك علىّ ، فأعطانى الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوت إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو ، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف . وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذل به عزيز ، ولا يسترق حربه والسلام » .

فلما انتهى كتاب معاوية إلى علىّ قرأه ثم قال :

ـــ العجب لمعاوية وكتابه .

ثم دعا كاتبه فقال :

ـــ اكتب إلى معاوية : « أما بعد فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض . فأنا وإياك منها فى غاية لم تبلغها . وإنى لو قتلت فى ذات الله وحييت ثم قتلت وحييت سبعين مرة لم أرجع عن الشدة فى ذات الله ، والجهاد لأعداء الله . وأما قولك إنه قد بقى من عقولنا ما نندم به على ما مضى فإنى ما نقضت عقلى ، ولا ندمت على فعلى . فأما طلبك الشام فإنى لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك منها أمس . وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل، فلعمرى إنا بنو أب واحد، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا

حرب كعبد المطلب . ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا المحق كالمبطل ، وفى أيدينا فضل النبوة التى أذللنا بها العزيز ، وأعززنا بها الذليل . والسلام » .

وغلس علىّ بالناس صلاة الغداة ، ثم زحف إلى أهل الشام بعسكر العراق والناس على راياتهم ، وزحف إليهم أهل الشام ، فخرج رجل من أهل العراق على فرس كميت ذنوب ، عليه السلاح ، لا يُرى منه إلا عيناه وبيده الرمح ، فجعل يضرب رءوس أصحاب علىّ بالقناة ويقول :

ــ سووا صفوفكم رحمكم الله .

حتى إذا عدل الصفوف والرايات استقبلهم بوجهه وولى أهل الشام ظهره ، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ــ الحمد لله الذى جعل فينا ابن عم نبيه ، أقدمهم هجرة ، وأولهم إسلاما ، سيف من سيوف الله صبه على أعدائه ، فانظروا إذا حمى الوطيس وثار القتام وتكسر المران ، وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلا غمغمة أو همهمة فاتبعونى وكونوا فى أثرى .

ثم حمل على أهل الشام وكسر فيهم رمحه ثم رجع فإذا هو الأشتر . وخرج رجل من أهل الشام ينادى بين الصفين :

ــ يا أبا الحسن ، يا علىّ ، ابرز إلىّ .

فخرج إليه علىّ حتى إذا اختلف أعناق دابتيهما بين الصفين فقال :

ــ يا علىّ إن لك قدما فى الإسلام وهجرة ، فهل لك فى أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء ، وتأخير هذه الحروب حتى ترى من رأيك ؟

ــ وما ذاك ؟

ــ ترجع إلى عراقك فنخلى بينك وبين العراق ، ونرجع إلى شامنا فتخلى بيننا وبين شامنا .

ــ لقد عرفت ، إنما عرضت هذا نصيحة وشنقة ، ولقد أهمنى هذا الأمر

وأسهرنى ، وضربت أنفه وعينيه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ . إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يُعصى فى الأرض وهم سكوت مذعنون ، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فوجدت القتال أهون على من معالجة الأغلال فى جهنم .

وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتموا بالنبل والحجارة حتى فنيت ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت ، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيف وعمد الحديد ، فلم يسمع السامع إلا وقع الحديد بعضه على بعض ، لهو أشد هولا فى صدور الرجال من الصواعق ، وانكشفت الشمس بالنقع ، وثار القتام وضلت الألوية والرايات وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة الإقدام على التى تليها ، فاجتلدوا بالسيوف وعُمد الحديد من صلاة الغداة إلى منتصف الليل ، لم يصلوا لله صلاة . وكان الأشتر فى ميمنة الناس وابن عباس فى الميسرة ، وعلىّ فى القلب والناس يقتتلون ، واستمر القتال من نصف الليل الثانى إلى ارتفاع الضحى ، والأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام :

— ازحفوا قيد رمحى هذا .

وإذا فعلوا قال :

— ازحفوا قاب هذا القوس .

فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك حتى مل أكثر الناس الإقدام ، فلما رأى ذلك قال :

— أعيذكم بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليوم .

ثم دعا بفرسه وركز رايته وخرج يسير فى القبائل ويقول :

— ألا من يشرى نفسه لله ويقاتل مع الأشتر حتى يظهر أو يلحق بالله .

واجتمع إليه الناس فقال :

— شدوا ، فدًا لكم عمى وخالى ، شدة ترضون بها الله وتعزون بها الدين ، فإذا شددت فشدوا .

ثم نزل وضرب وجه دابته ثم قال لصاحب رايته :

— أقدم .

فأقدم بها ثم شد على القوم ، وشد معه أصحابه يضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم .

وقاتلوا عند العسكر قتالا شديدا ، فقُتل صاحب رايته ، وأخذ علىّ ، لما رأى الظفر قد جاء من قبله ، يمده بالرجال ، وقام علىّ خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا ، وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عز وجل .

فبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فقال :

— يا عمرو ، إنما هى الليلة حتى يغدو علىّ علينا بالفيصل ، فما ترى ؟

— إن رجالك لا يقومون لرجاله ، ولست مثله . هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره . أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون عليًّا إن ظفر بهم ، ولكن ألق إليهم أمرا إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ، ادعهم إلى كتاب الله حكما فيما بينك وبينهم فإنك بالغ حاجتك فى القوم ، فإنى لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه .

فأشرق وجه معاوية وقال :

— صدقت .

وجعل الإمام يغوص فى الصفوف ، ويضرب بسيفه ثم يخرج به منحنيا فيقول :

— معذرة إلى الله عز وجل وإليكم من هذا . لقد هممت أن أصقله ولكن حجزنى عنه أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول كثيرا : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علىّ . وأنا أقاتل به دونه .

فكان الناس تأخذه فتقوّمه ثم يتناوله من أيديهم فيقتحم به فى عرض الصف ،

فلا والله ما ليث بأشد نكاية فى عدوه منه .

وقام الأشعث فى رجاله فقال :

ـــ قد رأيتم يا معشر المسلمين ما كان فى يومكم هذا الماضى ، وما قد فنى فيه من العرب ، فوالله بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، إنا إن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحتف ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى غدا إذا فنينا . اللهم إنك تعلم أنى قد نظرت لقومى ولأهل دينى فلم آل . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ورأى يخطئ ويصيب ، وإذا قضى الله أمرًا أمضاه على ما أحب العباد أو كرهوا . أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم :

وانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث فقال :

ـــ أصاب ورب الكعبة ، لئن نحن التقينا غدًا تميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ، ولتميلن أهل فارس على نساء أهل العراق وذراريهم ، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى . اربطوا المصاحف على أطراف القنا .

فثار أهل الشام فنادوا فى سواد الليل .

ـــ يا أهل العراق ، من لذرارينا إن قتلتمونا ، ومن لذراريكم إن قتلناكم ؟ الله الله فى البقية .

وانقضت ليلة الهرير ، فلما أصبح أهل العراق نظروا فإذا أشباه الرايات أمام صف أهل الشام وسط الفيلق من حيال موقف معاوية ، فلما أسفروا إذا هى المصاحف قد رُبطت على أطراف الرماح ، وهى عظام مصاحف العسكر ، وقد شدوا ثلاثة أرماح جميعًا ، وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم يمسكه عشرة رهط .

استقبل أهل الشام عليًّا بمائة مصحف ووضعوا فى كل مجنبة مائتى مصحف ، ثم قام رجال من أهل الشام ونادوا :

— يا معشر العرب ، الله الله فى نسائكم وبناتكم فمن للروم والأتراك وأهل فارس غدًا إذا فنيتم . الله الله فى دينكم ، هذا كتاب الله بيننا وبينكم .

فقال علىّ :

— اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم ، إنك أنت الحكم الحق المبين .

وأقبل عدىّ بن حاتم فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم يصب عصبة منا إلا وقد أصيب مثلها منهم ، وكل مقروح ، ولكنا أمثل بقية منهم ، وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب ، فناجز القوم .

فقام الأشتر فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن معاوية لا خلف له من رجال ، ولك بحمد الله الخلف ، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك ، فاقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله الحميد .

فقام الأشعث بن قيس فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إنا لك إليهم على ما كنا عليه أمس ، وليس آخر أمرنا كأوله ، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام منى ، فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم . وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال .

فقال علىّ عليه السلام :

— إن هذا الأمر ينظر فيه .

وزحف الأشتر إلى الشام وثار بعض محبذى التحكيم ، فقال الإمام :

— عباد الله ، إنى أحق من أجاب إلى كتاب الله ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص ، وابن أبى معيط وحبيب بن مسلمة ، وابن أبى سرح ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إنى أعرف بهم منكم ، صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا

شر أطفال وشر رجال . إنها كلمة حق يُراد بها باطل . إنهم والله ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها ، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة ، أعيرونى سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا .

فجاءه زهاء عشرين ألفًا مقنعين فى الحديد شاكى السلاح سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود ، فنادوه :

— يا علىّ أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه ، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم .

— ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه ، وليس يحل لى ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إنى إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه . ولكنى قد أعلمتكم أنهم كادوكم ، وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون .

— فابعث إلى الأشتر ليأتينك .

فبعث إلى الأشتر أن يأتيه ، وقد كان الأشتر أشرف على معسكر معاوية ليدخله فلما أتاه الرسول بلغه ، فقال الأشتر :

— ائته فقل له : ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى ، إنى قد رجوت الله أن يفتح لى فلا تعجلنى .

فرجع الرسول إلى علىّ فأخبره ، فما هو إلى أن انتهى إليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر ، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام ، فقال له القوم :

— والله ما نراك إلا أمرته بقتال القوم .

— أرأيتمونى ساررت رسولى إليه ؟ أليس إنما كلمته على رءوسكم علانية وأنتم تسمعون ؟

فابعث إليه فليأتك ، وإلا فوالله اعتزلناك .

— ويحك يا يزيد ، قل له أقبل إلىّ ، فإن الفتنة قد وقعت .

فأتاه فأخبره فقال له الأشتر :

— ويحك ألا ترى إلى الفتح ، ألا ترى إلى ما يقولون ، ألا ترى إلى الذى يصنع الله لنا ، أينبغى أن ندع هذا وننصرف عنه ؟

— أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذى هو به يفرج عنه ويسلم إلى عدوه ؟

— سبحان الله ، لا والله ما أحب ذلك .

— فإنهم قالوا : لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا عثمان ، أو لنسلمنك إلى عدوك .

فأقبل الأشتر ثائرًا حتى انتهى إليهم فصاح فقال :

— يا أهل الذل والوهن ، أحين علوتم القوم فظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ؟ وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أُنزلت عليه ، فلا تجيبوهم . أمهلونى فواقًا ، فإنى قد أحسست بالفتح .

— لا .

— فأمهلونى عدوة الفرس ، فإنى قد طمعت فى النصر .

— إذن ندخل معك فى خطيئتك .

— فحدثونى عنكم ، وقد قتل أمثالكم وبقى أراذلكم ، متى كنتم محقين ، أحين كنتم تقتلون أهل الشام ، فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون أم أنتم الآن فى إمساككم عن القتال محقون ؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيرًا منكم ، فى النار !

— دعنا منك يا أشتر ، قتلناهم فى الله ، وندع قتالهم فى الله ، إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا .

— خدعتم والله فانخدعتم ، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ، يا أصحاب الجباه السود ، كنا نظن أن صلاتكم زهادة فى الدنيا وشوق إلى لقاء الله ، فلا أرى فرار كم

إلا إلى الدنيا من الموت . ألا قبحًا يا أصحاب النيب الجلالة ، ما أنتم برائين بعدها عزًا أبدًا ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون .

فسبوه وسبهم ، وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم ، فصاح بهم عليّ فكفوا ، وقال الأشتر :

— يا أمير المؤمنين ، احمل الصف على الصف يصرع القوم .

فتصايحوا :

— إن عليًا أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضى بحكم القرآن ولم يسعه إلا ذلك .

— إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضى بحكم القرآن قد رضيت بما رضى أمير المؤمنين .

وهو ساكت لا يبض بكلمة ، فأقبل الناس يقولون :

— قد رضى أمير المؤمنين ، قد قبل أمير المؤمنين .

ثم قام الإمام فسكت الناس كلهم ، فقال :

— أيها الناس ، إن أمرى لم يزل معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركت ، وأخذت من عدوكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى وأنهك ، إلا أنى كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأمورًا ، وكنت ناهيًا فأصبحت منهيًا ، وقد أحببتم البقاء وليس لى أن أحملكم على ما تكرهون .

٣١

جاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال :

— يا أمير المؤمنين ، ما أرى الناس إلا وقد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ، ونظرت ما الذى يسأل .

— ائته إن شئت .

فأتاه فسأله فقال :

— يا معاوية ، لأى شيء رفعتم هذه المصاحف ؟

— لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه ، فابعثوا منكم رجلا ترضون به ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدونه ، ثم نتبع ما اتفق عليه .

— هذا هو الحق .

وقال الناس :

— قد رضينا بحكم القرآن .

فقال أهل الشام .

— فإنَّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص .

وقال الأشعث وبعض القراء :

— فإنا قد رضينا واخترنا أبا موسى الأشعرى

فقال لهم علىّ :

— إنى لا أرضى بأبى موسى ، ولا أرى أن أوليه .

فقال الأشعث :

— إنا لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه .

— فإنه ليس لى برضا ، وقد فارقنى وخذل الناس عنى ثم هرب حتى أمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك .

— والله لا نبالى ، أكنت أنت أو ابن عباس ، ولا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر .

— فإنى أجعل الأشتر .

— وهل سعر الأرض علينا غير الأشتر ، وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ؟

— وما حكمه ؟

— حكمه أن يضرب بعضنا بعضًا بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد .

— إن معاوية لم يكن ليضع هذا الأمر أحدًا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به ، فإن عمرًا لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ولا يحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمراً إلا نقضه ، ولا ينقض أمرًا إلا أبرمه .

— لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعله رجلا من أهل اليمن إذ جعلوا رجلا من مضر .

— إنى أخاف أن يُخدع يمنيكم ، فإن عمرًا ليس من الله فى شىء ، إذا كان له فى أمر هوى .

— والله لأن يحكما ببعض ما نكره ، وأحدهما من أهل اليمن ، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب فى حكمهما وهما مضريان .

— قد أبيتم إلا أبا موسى ؟

— نعم .

— فاصنعوا ما أردتم .

وذهب رجال الإمام إلى معاوية لكتابة وثيقة الصلح ، فكتبوا :

« هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين » .

فقال معاوية :

— بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته .

وقال عمرو :

— اكتب اسمه واسم أبيه ، إنما هو أميركم ، وأما أميرنا فلا .

فخرج رجال الإمام فلما أعيد الكتاب أمر بمحوه ، فقال الأحنف :

— لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك ، فإنى أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا . لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضا .

فأبى مليًا من النهار أن يمحوها ثم إن الأشعث بن قيس جاء فقال : امح هذا الاسم.

فقال الإمام فى حسرة :

— لا إلٰه إلا الله والله أكبر ، سنة بسنة ، أما والله لعلى يدى دار هذا الأمر يوم الحديبية ، حتى كتبت الكتاب عن رسول الله ﷺ : « هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو » فقال سهيل : لا أجيبك إلى كتاب تسمى فيه رسول الله ﷺ ، ولو أعلم أنك رسول الله لم أقاتلك ، إنى إذا ظلمتك أن منعتك أن تطوف بيت الله وأنت رسول الله ، ولكن اكتب : « محمد بن عبد الله » أجبك . فقال محمد ﷺ : « يا علىّ إنى لرسول الله ، وإنى لمحمد بن عبد الله ، ولن يمحو عنى الرسالة كتابى إليهم من محمد بن عبد الله ، فاكتب : « محمد بن عبد الله » . فراجعنى المشركون فى هذا مدة ، فاليوم أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله ﷺ إلى آبائهم سنة ومثلا .

وكُتبت وثيقة الصلح ، ودعى لها الأشتر فقال :

— لا صحبتنى يمينى ولا نفعتنى بعدها الشمال إن كتب لى فى هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة . أَوَلست على بينة من ربى ، ويقين من ضلالة عدوى ؟ أَوَلستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الجور .

فقال الأشعث :

— إنك والله ما رأيت ظفرًا ولا خورًا ، هلم فاشهد على نفسك ، وأقرر بما كُتب فى هذه الصحيفة ، فإنه لا رغبة بك عن الناس .

— بلى والله ، إن بى لرغبة عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الآخرة للآخرة . ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندى ولا ألوم دما ، ولكن قد رضيت بما صنع علىّ أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه، وخرجت مما خرج منه ، فإنه لا يدخل إلا فى هدى وصواب .

وأتى سليمان بن صرد عليًّا أمير المؤمنين . ووجهه مضروب بالسيف فلما نظر إليه علىّ قال :

— ﴿ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ . فأنت ممن

ينتظر وممن لم يبدل .

— يا أمير المؤمنين ، أما لو وجدت أعوانا ما كتبت هذه الصحيفة أبدًا . أما والله لقد مشيت فى الناس ليعودوا إلى أمرهم الأول فما وجدت أحدا عنده خير إلا قليلا :

وقام رجل إلى أمير المؤمنين وقال :

— يا أمير المؤمنين ، ما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ فوالله إنى لأخاف أن يورث ذلا .

— أبعد أن كتبناه ننقضه ، إن هذا لا يحل .

وندم أناس من أصحاب علىّ على قبول التحكيم بعد فوات الأوان كما هى عادتهم ، فنادوا من كل جهة وفى كل ناحية :

— لا حكم إلا لله ، الحكم لله يا علىّ لا لك ، لا نرضى أن يحكم الرجال فى دين الله ، إن الله قد أمضى حكمه فى معاوية وأصحابه ، أن يقتلوا أو يدخلوا فى حكمنا عليهم . وقد كانت منازلة حين رضينا الحكمين ، فرجعنا وتبنا ، فارجع أنت يا علىّ كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تبنا ، وإلا برئنا منك .

وما كان علىّ ممن ينقض عقدًا ، وإن كان ذلك العقد ينزل به الحيف والجور فقال :

— ويحكم أبعد الرضا والميثاق نرجع ، أوَليس الله تعالى قال : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ وقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

وأبى علىّ أن يرجع وأبت الخوارج إلا تضليل التحكيم والطعن فيه .

وعاد الإمام إلى الكوفة ، وفارقه الخوارج وتم التحكيم فخدع عمرو أبا موسى فخلع عليًّا وثبت معاوية وهرب أبو موسى إلى مكة ، وقام الإمام فى الكوفة فخطب الناس فقال :

— الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل ، وأشهد أن لا إلٰه

إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين أمرى ، ونحلتكم رأى لو كان لقصير أمر ، ولكن أبيتم إلا ما أردتم ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية ، واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشد ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام .

ثم نزل وكتب إلى الخوارج : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس ، أما بعد فإن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكما ، فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون . فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا ، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه والسلام » .

فلما بلغ الكتاب الخوارج كتبوا إلى علىّ : « أما بعد ، فإنك لم تغضب لربك إنما غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء . إن الله لا يحب الخائنين » .

وخرج الإمام بجيشه إلى النخيلة وقد أيس من الخوارج ، وانتظر وفود أنصاره من البصرة لينطلق إلى أهل الشام .

وأقبلت خارجة البصرة حتى دنت من أخواتها بالنهر ، فخرجت عصابة منهم فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار ، فعبروا عليه فتهددوه وأفزعوه ، وقالوا له :

— من أنت ؟

— أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ .

ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض وكان سقط عنه لما أفزعوه ، فقالوا له :

— أفزعناك ؟

— نعم .

— لا روع عليك ، فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبى ﷺ لعل الله ينفعنا به .

— حدثنى أبى عن رسول الله ﷺ أن فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه ، يمسى فيها مؤمنا ويصبح فيها كافرا ، ويصبح فيها كافرا ويمسى فيها مؤمنا .

— لهذا الحديث سألناك ، فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟

فأثنى عليهما خيرًا ، قالوا :

— ما تقول فى عثمان فى أول خلافته وفى آخرها ؟

— إنه كان محقًا فى أولها وفى آخرها .

— وما تقول فى علىّ قبل التحكيم وبعده ؟

— إنه أعلم بالله منكم وأشد توقيًا على دينه وأنفذ بصيرة .

— إنك تتبع الهوى وتوالى الرجال على أسمائها لا على أفعالها ، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدًا .

وجاءوا به فأضجعوه فذبحوه ، فبلغ ذلك عليًّا ومن معه من المسلمين ، فبعث إليهم رسولا ليأتيهم فينظر فيما بلغه عنهم ويكتب به إليه على وجهه ولا يكتمه ، فخرج حتى انتهى إلى النهر ليسائلهم ، فخرج إليه القوم فقتلوه ، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس ، فثارت ثائرتهم ، فقام إليه الناس فقالوا :

— يا أمير المؤمنين ! علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى أموالنا وعيالنا ؛ سر بنا إلى القوم ، فإذا فرغنا ما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام .

وكان أمير المؤمنين يرى أن يخرج لأهل الشام ، ولكن أنصاره خالفوه كما هى عادتهم ، وطالبوا بالخروج إلى الخوارج ، فانطلق الإمام حتى نزل المدائن فبعث إلى أهل النهر :

— ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام ، فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم .

فبعثوا إليه فقالوا :

— كلنا قتلتهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم .

فقال قيس بن سعد بن عبادة :

— عباد الله ! اخرجوا إلينا طلبتنا منكم وادخلوا فى هذا الأمر الذى منه خرجتم ، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم ، فإنكم ركبتم عظيما من الأمر . تشهدون علينا بالشرك ، والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين وتعدونهم مشركين .

— إن الحق قد أضاء لنا ، فلسنا نتابعكم أو تأتونا بمثل عمر .

— ما نعلمه فينا غير صاحبنا ، فهل تعلمونه فيكم ؟

وظل الخوارج على رأيهم ، ورأى الإمام أن يناظرهم فخرج إليهم فقال :

— أيتها العصابة التى أخرجها عداوة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق الهوى ، وطمح بها النزق وأصبحت فى اللبس والخطب العظيم ، إنى نذير لكم أن تصبحوا تلقيكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا النهر ، وبأهضام هذا الغائط بغير بينة من ربكم ولا برهان بين ، ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن ومكيدة لكم ، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنى أعرف بهم منكم ؛ عرفتهم أطفالا ورجالا ، فهم أهل المكر والغدر ، وأنكم إن فارقتم رأيى جانبتم الحزم ، فعصيتمونى حتى إذا أقررت حكمت فلما فعلت شرطت واستوثقت فأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ؛ وأن يميتا ما أمات القرآن ، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة ، فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول ؛ فما الذى جاء بكم ؟ ومن أين أتيتم ؟

— إنا حكمنا ، فلما حكمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا ، فإن تبت كما تبنا فنحن معك ، وإن أبيت فاعتزلنا ، فإنا منابذوك على سواء ، إن الله لا يحب

الخائنين .

— أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم دابر ، أبعد إيمانى برسول الله ﷺ ، وهجرتى معه وجهادى فى سبيل الله أشهد على نفسى بالكفر ؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين !

فتنادى الخوارج :

— لا تخاطبوهم ولا تكلموهم ، وتهيئوا للقاء الرب .. الرواح الرواح إلى الجنة .

فخرج علىّ فعبأ الناس ، وقاتل القوم حتى فرغ منهم .

٣٢

بلغ عليًّا وثوب أهل مصر على محمد بن أبى بكر ، فأطرق يفكر فيمن يصلح لمصر فلم يجد إلا قيس بن سعد والأشتر ، ولكن الإمام كان قد عزل قيسًا عنها وولى ابن أبى بكر ، فكتب إلى الأشتر :

« أما بعد ، فإنك ممن استظهرته على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وأشد به الثغر المخوف ، وقد كنت وليت محمد بن أبى بكر مصر ، فخرجت عليه بها خوارج وهو غلام حدث ليس بذى تجربة للحرب ولا بمجرب للأشياء، فأقدم على لننظر فى ذلك فيما ينبغى ، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام » .

وقدم الأشتر على الإمام فقال الإمام له :

— ليس لها غيرك ، اخرج رحمك الله ، فإنى إن لم أوصك كفيت برأيك ، واستعن بالله على ما أهمك ، فاخلط الشدة باللين ، وارفق ما كان الرفق أبلغ ، واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة .

فخرج الأشتر فأتى رحله متهيئًا للخروج إلى مصر ، وأتت معاوية عيونه

فأخبروه بولاية عليّ الأشتر ، فعظم ذلك عليه ، فإن الأشتر إن قدم مصر كان أشد عليه من محمد بن أبى بكر ، وأطرق يفكر فى وسيلة يتخلص بها من ذلك الفارس الذى لا يشق له غبار ، فهداه تفكيره إلى أن يستل سلاح الغدر ، فهو سلاحه البتار ، فبعث إلى رجل من أهل الخراج : « إن الأشتر قد ولى مصر فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجًا ما بقيت ، فاحتل له بما قدرت عليه » . فخرج الرجل يعترض طريق الأشتر ، فلما انتهى إليه استقبله الرجل وقال فى حفاوة :

— هذا منزل وهذا طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج .

فنزل به الأشتر ، فأتاه الرجل بعلف وطعام حتى إذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سما ، فسقاه إياه ، فلما شربها مات ، وهكذا قُضى سيف من سيوف الله غدرا ، وهرع الرجل إلى معاوية فأخبره بمقتله . فبان البشر فى وجه معاوية ، فقد قتل عمار بن ياسر فى صفين وها هو الأشتر يسقط على أبواب مصر صريعًا ، ولم يستطع معاوية أن يكبت سروره ، فقام فى الناس خطيبًا فقال :

— أما بعد ، فإنه كانت لعليّ بن أبى طالب يدان يمينان ، قطعت إحداهما يوم صفين وقطعت الأخرى اليوم .

وعزم معاوية على غزو مصر فخرج عمرو بن العاص يسير حتى نزل أدانى مصر فاجتمعت العثمانية إليه ، فأقام بهم وكتب إلى محمد بن أبى بكر : « أما بعد فتنح عنى بدمك يابن أبى بكر فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر ، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإنى لك من الناصحين والسلام » .

فكتب ابن أبى بكر إلى ابن العاص : « أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت فى كتابك يابن العاص ، زعمت أنك تكره أن يصيبنى منك ظفر وأشهد أنك من المبطلين ، وتزعم أنك لى نصيح ، وأقسم أنك عندى ظنين ، وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيى وأمرى ، وندموا على اتباعى ، فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء ، فحسبنا الله رب العالمين » .

وبعث محمد بن أبى بكر رسولا إلى الإمام ينبئه نبأ عمرو بن العاص ، فانطلق الرسول إلى أمير المؤمنين ، فلما فرغ علىّ من قراءة كتاب ابن أبى بكر ، خرج إلى الجامع وأمر فنُودى الصلاة جامعة ، فتوافد الناس ، وقام علىّ فقال :

ـــ أما بعد ، فإن هذا صريخ محمد بن أبى بكر وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله ، وولى من عادى الله ، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعًا منكم على حقكم هذا ، فإنهم قد بدأوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر . عباد الله إن مصر أعظم من الشام ، أكثر خيرًا وخير أهلا ، فلا تُغلبوا على مصر ، فإن بقاء مصر فى أيديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم ، اخرجوا إلى الجرعة بين الحيرة والكوفة ، فوافونى بها هناك غدًا إن شاء الله .

وانصرف علىّ ، وانقضى الليل وهو يفكر فى انتداب الناس إلى الخروج إلى مصر لشد أزر ابن الصديق ، فلما لاح نور الصباح خرج يمشى إلى الجرعة فنزلها بكرة ، وأقام بها وانتظر الناس الذين سيوافونه هناك . ومرت ساعات ولم يوافه منهم رجل واحد فحز ذلك فى نفسه ، وضاق صدره ، ولكنه تواصى بالصبر وانتظر فأخذت الساعات فى المرور ، ولم يقدم أحد فحزن واكتأب فما بال القوم لا يجيبون دعوته ؟ وانتصف النهار واعتلت الشمس كبد السماء ، فقام عائدًا والأسى يهصر قلبه ، والحنق يملأ صدره ، وساءه معاوية يدعو قومه فيتبعونه ، وهو يدعو من حوله فيقومون عنه ويعصونه ، إنه ليتمنى فراق القوم الذين ابتلاه الله بهم .

وراح يفكر فى صريخ محمد بن أبى بكر ، فازداد حزنًا على حزن ، ودخل الدار مطأطئ البصر ، كسير الفؤاد ، يحس للحزن وخزا ، وانقضى النهار ولم تهدأ نفسه ، بل كان كلما تذكر ما أصابه من أنصاره زاد غما ، فلما كان من العشى بعث إلى أشراف الناس ، فدخلوا عليه وهو حزين كئيب ، فالتفت إليهم وقال لهم :

ـــ الحمد لله على ما قضى من أمرى ، وقدر من فعلى ، وابتلانى بكم أيتها الفرقة

ممن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت ، لا أبا لغيركم ما تنتظرون بصبركم والجهاد على حقكم ، الموت والذل لكم فى هذه الدنيا على غير الحق ، فوالله لئن جاء الموت وليأتين ليفرقن بينى وبينكم ، وأنا لصحبتكم قال ، ولكم غير ضنين ، لله أنتم لا دين لكم يجمعكم ، ولا حمية تحميكم إذا أنتم سمعتم بعدوكم يرد بلادكم ، ويشن الغارة عليكم ، أوَليس عجبًا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ، ويجيبونه فى السنة المرتين والثلاث إلى أى وجه شاء ، وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة ، وطائفة منكم على العطاء ، فتقومون عنى وتعصوننى وتختلفون علىّ .

وصمت الإمام وقد بلغ التأثير به منتهاه ، ورأى مالك بن كعب الهمدانى تأثر الإمام العميق وحزنه الشديد فقام إليه فقال :

ــ يا أمير المؤمنين اندب الناس ، فإنه لا عطر بعد عروس ، لمثل هذا اليوم كنت أؤخر نفسى ، والأجر لا يأتى إلا بالكره . اتقوا الله وأجيبوا إمامكم وانصروا دعوته وقاتلوا عدوه ، أنا أسير إليها يا أمير المؤمنين .

وراح علىّ ينادى فى الناس : « ألا انتدبوا إلى مصر مع مالك بن كعب » . فلم يسارع الناس إلى الانتداب ، وانقضت أيام ، وتأهب الخارجون للخروج ، وخرج مالك وخرج الإمام معه فنظر فإذا جميع من خرج نحو ألفى رجل ، فظهر الأسى فى وجهه ، وتيقن أن مصر قد خرجت من يده ، فقال لمالك :

ــ سر فوالله ما إخالك تدرك القوم حتى ينقضى أمرهم .

قاتل محمد بن أبى بكر عمرو بن العاص وجيوش الشام ولكنه هُزم ، وقبض عليه وقُتل وأُدخل فى جوف حمار ثم أحرق عليه بالنار ، وكان الحجاج بن غزية الأنصارى مع محمد بن أبى بكر فى مصر فلما رأى مقتله المروع خرج إلى علىّ ليحدثه بما رأى وعاين .

وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية : « أما بعد ، فإنا لقينا محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر فى جموع جمة من أهل مصر ، فدعوناهم إلى الهدى والسنة وحكم

الكتاب ، فرفضوا الحق وتوركوا فى الضلال ، فجاهدناهم ، واستنصرنا الله عليهم،فضرب الله وجوههم وأدبارهم،ومنحونا أكتافهم،فقتل الله محمد بن أبى بكر ، وكنانة بن بشر وأماثل القوم . الحمد لله رب العالمين والسلام عليك » .

ودفع بالكتاب إلى رسول فخرج الرسول إلى الشام يحمل إليهم نبأ فتح مصر وقتل ابن الصدِّيق ، وبلغ الكتاب معاوية فظهر الرضا فى وجهه ، وأذن على المنبر بقتل محمد فأظهر الناس سرورهم ، وسمع عبد الرحمن بن شيب الفزارى بقتل محمد فحزن وساءه النبأ ، فقد كان عين علىّ بالشام ، ولما استوثق من هلاك محمد ؛ خرج ليأتى عليًّا بالنبأ الفادح .

ودخل الأنصارى الكوفة ، وأقبل بعده الفزارى ، وقدما على علىّ ، فراح الأنصارى يقص ما رأى ، فرؤى الحزن فى وجه الإمام وتبين فيه ، وقال الفزارى :

— إنى لم أخرج من الشام حتى قدمت البشراء من قبل عمرو بن العاص تترى يتبع بعضها بعضًا بفتح مصر وقتل محمد بن أبى بكر ، وحتى أذن بقتله على المنبر .

وساد الحزن المكان وقال الفزارى :

— يا أمير المؤمنين ، قلما رأيت قوما قط أسر ، ولا سرورا قط أظهر من سرور رأيته بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن أبى بكر .

فقال الإمام فى أسى :

— أما إن حزننا عليه على قدر سرورهم به ، لا بل يزيد أضعافًا .

وبعث الإمام إلى القوم المنطلقين إلى مصر للانضمام إلى محمد ليردهم من الطريق ، فقد انتهى الأمر ، وقُتل محمد ، وما ساروا إلا خمسا ، وقام علىّ فى الناس خطيبا وقد تملكه الحزن والغضب ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ وقال :

— ألا إن مصر قد فتحها الفجرة أولو الجور والظلم الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجا . ألا وإن محمد بن أبى بكر قد استشهد رحمه الله فعند الله نحتسبه ، وأما والله إن كان ما علمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ، ويبغض

شكل الفاجر ، ويحب هدى المؤمن ، إنى والله لا ألوم نفسى على التقصير ، وإنى لمقاساة الحرب لجد خبير ، وإنى لأقدم على الأمر ، وأعرف وجه الحزم ، وأقوم فيكم بالرأى المصيب ، فأستصرخكم معلنًا ، وأناديكم نداء المستغيث معربًا ، فلا تسمعون لى قولا ، ولا تطيعون لى أمرا ، حتى تصير بى الأمور إلى عواقب المساءة ، فأنتم القوم لا يدرك بكم ثأر ، ولا ينقضى بكم الأوتار ، دعوتكم إلى غياث إخوانكم من بضع وخمسين ليلة ، فتجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليس له نية فى جهاد العدو ، ولا اكتساب الأجر ، ثم خرج إلى منكم جنيد متذانب كثيرة يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، فأف لكم .

وكتب إلى عبد الله بن عباس وهو بالبصرة : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس . سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إلٰه إلا هو . أما بعد ، فإن مصر قد افتتحت ، ومحمد بن أبى بكر قد استشهد فعند الله نحتسبه وندخره . وقد كنت قمت فى الناس فى بدئه وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ، ودعوتهم سرًا وجهرًا وعودًا وبدءًا فمنهم من أتى كارهًا ومنهم من اعتل كاذبًا ومنهم القاعد حالا . أسأل الله أن يجعل لى منهم فرجًا ومخرجًا وأن يريحنى منهم عاجلا ، والله لولا طمعى عند لقاء عدوى فى الشهادة لأحببت أن لا أبقى مع هؤلاء يومًا واحدًا ، عزم الله لنا ولك على الرشد وعلى تقواه وهداه ، إنه على كل شىء قدير والسلام » .

٣٣

أرسل معاوية بن أبى سفيان بسر بن أبى أرطأة فى جيش ، فساروا من الشام حتى قدموا المدينة ، فلم ير عامل علىّ بدًا من الفرار ، فصعد بسر منبر المدينة فقال :

ـــ يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إلىّ معاوية ما تركت بها محتلمًا إلا قتلته .

وهدم بسر دورًا بالمدينة ثم مضى حتى أتى مكة ، فخافه أبو موسى الأشعرى أن يقتله ، فقال له بسر :

ـــ ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله ﷺ ذلك .

فخلى عنه ، ورأى أبو موسى بطش بسر ، فأشفق على قومه فكتب إلى أهل اليمن : « إن خيلا مبعوثة من عند معاوية تقتل من أبى أن يقر بالحكومة» .

وكان بمكة ابنا عبيد الله بن عباس . فلما دخلها بسر خرجا وأمهما حورية ابنة خالد بن فارط الكنانية ، وبلغوا كنانة ، فلما انصرف بسر من الطائف ، مر ببنى كنانة وفيهم ابنا عبيد الله بن عباس وأمهما ، فلما انتهى بسر إليهم طلبهما ، فدخل رجل من بنى كنانة بيته وخرج ، فقال له بسر :

ـــ ثكلتك أمك ، والله ما كنا أردنا قتلك ، فلم عرضت نفسك للقتل ؟

ـــ أقتل دون جارى أعذر لى عند الله والناس .

ثم شد على أصحاب بسر بالسيف حاسرًا ، فضارب بسيفه حتى قتل ، ثم قدم الغلامان فقتلا ، فثارت نسوة من بنى كنانة ، فخرجن ساخطات فقالت امرأة منهن :

ـــ هذه الرجال تقتلها ، فما بال الولدان ؟ والله ما كانوا يقتلون فى جاهلية ولا إسلام ، والله إن سلطانًا لا يشتد إلا بقتل الزرع الضعيف والشيخ الكبير ، ورفع الرحمة ، وقطع الأرحام لسلطان سوء .

ـــ والله لهممت أن أضع فيكن السيف .

ـــ والله إنه لأحب إلىّ إن فعلت .

وانطلق بسر إلى اليمن يقتل فى مسيره شيعة علىّ ، فلما بلغ عبيد الله بن عباس قدوم بسر إلى الكوفة ، واستخلف رجلا على اليمن ، فلما دخلها بسر قتله .

وبلغ عليًّا خبر بسر ، فوجه جارية بن قدامة فى ألفين ، فانطلق يطلب بسرا وأصحابه ، ووافى أوان الحج ، فحج ناس من الخوارج . وقد اختلف عامل علىّ وعامل معاوية ، فاصطلح الناس على شبيب بن عثمان ، فلما انقضى الموسم أقام النفر من الخوارج مجاورين بمكة ، فقالوا :

ـــ كان هذا البيت معظمًا فى الجاهلية ، جليل الشأن فى الإسلام ، وقد أنهك هؤلاء حرمته ، فلو أن قومًا شروا أنفسهم فقتلوا هذين الرجلين اللذين أفسدا فى الأرض واستحلا حرمة هذا البلد ، واستراحت الأمة واختار الناس لهم إماما .

فقال عبد الرحمن بن ملجم :

ـــ أنا أكفيكم أمر علىّ .

وقال الحجاج بن عبد الله الصريمى :

ـــ أنا أقتل معاوية .

وقال زاذويه :

ـــ والله ما عمرو بن العاص بدونهما فأنا به .

واتفقوا على يوم واحد يكون فيه القتل ؛ ثم انطلق كل منهم إلى صاحبه الذى توجه إليه .

* * *

كانت قطام ابنة الشجنة فائقة الحسن ، رائعة الجمال ، لكن قلبها كان ينطوى على المقت لابن أبى طالب ، فقد قتل أباها وأخاها يوم النهر ، فكانت لا تفكر إلا فى قتل علىّ والثأر لأهلها .

أخذت تعجم رجال قومها تيم الرباب فلم تجد فيهم من ينهض بأمرها ،

فانتظرت ترقب السوانح لعلها تجد فرصة تشفى غليل نفسها . وفى يوم جاء ابن ملجم أصحابًا من تيم الرباب فوجد قطامًا عندهم ، فأسره جمالها فخفق لها قلبه ، وشغلته حتى كادت تنسيه حاجته .

وتمكن حب قطام من قلب ابن ملجم فتقدم يخطبها ، فقالت له :

— لا أتزوجك حتى تشفى لى .

— وما يشفيك ؟

— ثلاثة آلاف وعبد وقينة ، وقتل علىّ بن أبى طالب .

— هو مهر لك ، فأما قتل علىّ فلا أراك ذكرته لى وأنت تريدينني .

— بل التمس غرته ، فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى ، ويهنئك العيش معى ، وإن قُتلت ، فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها .

— فوالله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتل علىّ فلك ما سألت .

— إنى أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك .

وأقام بن ملجم عند قطام ومرت الأيام ولم ينفذ ما عزم عليه ، فاستولت عليها الوساوس وخشيت أن يحجم عما عزم ؟ فالتفتت إليه وقالت :

— لطالما أحببت المكث عند أهلك ، وأضربت عن الأمر الذى جئت بسببه .

— إن لى وقتا واعدت فيه أصحابى ولن أجاوزه .

وخرج ابن ملجم ، فلقيه رجل من أشجع من الخوارج فقال له :

— هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟

— وما ذاك ؟

— أتساعدنى على قتل علىّ ؟

— ثكلتك أمك ، لقد جئت شيئًا إدا ، قد عرفت غناءه فى الإسلام ، وسابقته مع النبى ﷺ .

— ويحك ، أما تعلم أنه قد حكم الرجال فى كتاب الله ، وقتل إخواننا المصلين ؟ فنقتله ببعض إخواننا .

ـــ وكيف تقدر ويحك على قتل ابن أبي طالب ؟

ـــ نكمن له فى المسجد الأعظم فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به وقتلناه وشفينا أنفسنا منه ، وأدركنا ثأرنا .

فلم يزل به حتى أجابه ، وذهب ابن ملجم وشبيب بن بجرة إلى قطام وهى فى المسجد الأعظم معتكفة فقالا لها :

ـــ قد أجمع رأينا على قتل علىّ .

ـــ فإذا أردتم ذلك فأتونى .

ووافى اليوم الذى تواعد فيه الخوارج على قتل علىّ ومعاوية وعمرو، فدخل ابن ملجم على قطام فقال لها :

ـــ هذه الليلة التى واعدت فيها صاحبى أن يقتل كل واحد منا صاحبه .

وجاء شبيب فأعلمتهما أن مجاشع بن وردان قد انتدب لقتله معهما . ودعت لهم بالحرير فعصبتهم به ، وأخذوا أسيافهم وانطلقوا إلى المسجد لاغتيال أمير المؤمنين .

الناس يصلون قريبا من السدة ، ما هم إلا قيام وركوع وسجود ، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره ، وخرج علىّ لصلاة الغداة ، فجعل ينادى :

ـــ أيها الناس الصلاة الصلاة .

وتألق بريق ، وصاح صائح :

ـــ الحكم لله يا علىّ لا لك ولا لأصحابك .

ثم تألق بريق سيف آخر ، وقال أمير المؤمنين :

ـــ لا يفوتنكم الرجل .

وشد الناس على ابن ملجم من كل جانب حتى أخذوه ، وطرح رجل شبيبًا فصرعه وجلس على صدره ، وأخذ السيف من يده ليقتله ، فرأى الناس يقصدون نحوه ، فخشى أن يعجلوا عليه فوثب عن صدره ، وخلاه ، وطرح السيف من يده ، ومضى شبيب ففاته فخرج هاربا ، وفر مجاشع قبل أن يقع فى أيدى الناس .

وحمل الإمام حتى إذا ما استقر فى داره قال :

— علَىّ بالرجل .

فأدخل عليه ، فالتفت إليه وقال :

— أى عدو الله ، ألم أحسن إليك ؟

— بلى .

— فما حملك على هذا ؟

— شحذته أربعين صباحا ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه .

— لا أراك إلا مقتولا به ، ولا أراك إلا من شر خلقه .

ونظر الإمام إلى الحسن وقال :

— أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه ،فإن أعش فأنا ولى دمى ، إما عفوت وإما اقتصصت ، وإن أمت فألحقوه بى ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

وخرج الحسن بابن ملجم وهو مكتوف ، فخرجت أم كلثوم تبكى وتنتحب وتقول :

— يا عدو الله قتلت أمير المؤمنين .

— ما قتلت أمير المؤمنين ، ولكن قتلت أباك .

— والله إنى لأرجو أن لا يكون عليه بأس .

— ولِمَ تبكين إذًا ؟ والله لقد أرهفت السيف ونفيت الخوف ، أوجبت الأجل وقطعت الأمل ، وضربت ضربة لو كانت بأهل الشرق لأتت عليهم .

ودخل الناس على الإمام يسألونه ، فقالوا :

— يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن فقدناك — ولا نفقدك — أنبايع الحسن ؟

— لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر .

فقال رجل من القوم :

— ألا تعهد يا أمير المؤمنين ؟

— لا ولكن أتركهم كما تركهم رسول الله ﷺ .

— فماذا تقول لربك إذا أتيته ؟

— أقول : اللهم إنك أبقيتنى فيهم ما شئت أن تبقينى ، ثم قبضتنى وتركتك فيهم ، فإن شئت أفسدتهم ، وإن شئت أصلحتهم .

ثم دعا الحسن والحسين فقال :

— أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرًا ، واعملا بما فى الكتاب ولا تأخذكما فى الله لومة لائم .

ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال :

— هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟

— نعم .

— فإنى أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمرًا دونهما .

والتفت إلى الحسن والحسين وقال :

— أوصيكما به ، فإنه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه .

ووهن أمير المؤمنين ، وراح الرجل العظيم يجود بأنفاسه ، فخشى أن يطيش الغضب بعقول بنيه ، فقال لهم :

— يا بنى عبد المطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن إلا قاتلى .

٣٤

خرج عبد الله بن عباس إلى الناس ، وقد بان فى وجهه الحزن العميق ، فشخص الناس إليه فقال فى صوت متهدج :

ـــ إن أمير المؤمنين عليه السلام توفى ، وقد ترك خلفًا إن أحببتم خرج إليكم ، وإن كرهتم فلا أحد على أحد .

فبكى الناس وقالوا :

ـــ بل يخرج إلينا .

فخرج الحسن وعليه ثياب سود ، فقال وهو يغالب دموعه :

ـــ قد قُبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون ، ولا يدركه الآخرون ، لقد كان يجاهد مع رسول ﷺ وآله فيسبقه بنفسه ، وقد كان يوجهه برايته فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، ولقد توفى فى الليلة التى عُرج فيها بعيسى بن مريم ، والتى توفى فيها يوشع بن نون ، ولا خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله .

ثم خنقته عبراته ، فبكى وبكى الناس معه ، ثم قال :

ـــ أيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن محمد رسول الله ﷺ وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعى إلى الله بإذنه والسراج المنير .

فقال قيس بن سعد :

ـــ ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين .

فقال الحسن :

— تبايعون لى على السمع والطاعة ، وتحاربون من حاربت وتسالمون من سالمت .

فلما سمعوا ذلك ارتابوا وأمسكوا أيديهم ، فإنهم يحسون نفور الحسن من القتال ، فمن يدريهم أنهم لو بايعوه على ذلك لا يسالم معاوية من غده ؟ وانطلق الناس إلى الحسين ، فلما أتوه قالوا :

— ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك ، وعلى حرب المحلين الضالين أهل الشام .

— معاذ الله أن أبايعكم ما كان الحسن حيًّا .

فانصرفوا إلى الحسن فلم يجدوا بدًا من بيعته على ما شرط عليهم .

وبعث الحسن إلى ابن ملجم ، فقال للحسن :

— هل لك فى خصلة ، إنى والله ما أعطيت عهدًا إلا وفيت به ، إنى كنت قد أعطيت الله عهدًا عند الحطيم أن أقتل عليًّا ومعاوية أو أموت دونهما ، فإن شئت خليت بينى وبينه ، ولك الله علىّ إن لم أقتله ، أو قتلته ثم بقيت ، أن آتيك حتى أضع يدى فى يدك .

— أما والله حتى تعاين النار فلا .

وقدمه ليُقتل ، فقال عبد الله بن جعفر :

— دعونى حتى أشفى نفسى منه .

فقطع يديه ورجليه ثم قتله ، فأخذه الناس فأدرجوه فى بوارى ثم أحرقوه بالنار .

وكتب الحسن إلى معاوية :

— « من عبد الله بن الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، أما بعد فإن الله بعث محمدًا ﷺ وآله رحمة للعالمين فأظهر به الحق ، وقمع به الشرك ، وأعز به العرب عامة ، وشرف به قريشًا خاصة ، فقال : وإنه لذكر لك ولقومك ، فلما

توفاه الله تنازعت العرب فى الأمر بعده ، فقالت قريش نحن عشيرته وأولياؤه فلا تنازعونا سلطانه ، وعرفت العرب لقريش ذلك ، وجاحدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ما أنصفتنا قريش ، وقد كانوا ذوى فضيلة فى الدين ، وسابقة فى الإسلام ولا غرو إلا منازعتك إيانا الأمر بغير حق فى الدنيا معروف،ولا أثر فى الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله معروفه أن لا يؤتينا فى هذه الدنيا شيئا ينقصنا عنده فى الآخرة .

إن عليا لما توفاه الله ولانى المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية ، وانظر لأمة محمد ﷺ وآله ما تحقن به دماءها ، وتصلح به أمرها والسلام » .

وبعث بذلك الكتاب الذى يستشف منه نفسيته المسالمة مع رسولين ، فقدما على معاوية ، فدعواه إلى بيعة الحسن ، فلم يجبهما ، وكتب جوابه :

« أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده ، فصرحت بتهمة أبى بكر الصديق وعمر وأبى عبيدة الأمين وصلحاء المهاجرين فكرهت لك ذلك . إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشًا أخلقها به ، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله وأخشاها له ، وأقواها على الأمر فاختاروا أبا بكر ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبى بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذبه ما عدلوا بالأمر إلى أبى بكر ، والحال اليوم بينى وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة وأكيد للعدو وأقوى على جمع الفئ لسلمت لك الأمر بعد أبيك ، فإن أباك سعى على عثمان حتى قتل مظلومًا ، فطالب الله بدمه ، ومن يطلبه الله فلن يفوته ، ثم ابتز الأمة أمرها وفرق جماعتها . فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم فى الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم فسفكت الدماء ، واستحلت الحرم . ثم أقبل إلينا لا يدعى علينا بيعة ، ولكنه يريد أن يملكنا اغترارًا ، فحاربناه وحاربنا ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ليحكما بما

تصلح عليه الأمة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقًا وعليه مثله على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكمان عليه الحكم بما علمت وخلعاه ، فوالله ما رضى بالحكم ولا صبر لأمر الله ، فكيف تدعونى إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك وقد خرج منه ، فانظر لنفسك ولدينك والسلام » .

ودعا معاوية رسولى الحسن وقال لهما :

ـــ ارجعا فليس بينى وبينكم إلا السيف .

وقفلا عائدين إلى العراق ، فلما دخلا على الحسن قالا له :

ـــ إن الرجل سائر إليك فابدأه بالمسير حتى تقاتله فى أرضه وبلاده وعمله ، فإما أن تقدر أنه ينقاد لك فلا والله حتى يرى منا أعظم من صفين .

فقال الحسن :

ـــ أفعل .

وتذكر الدماء التى سالت فى صفين ، فبغض أن يسوق الناس إلى الموت ، فقعد عن الخروج .

وفكر معاوية فى أن يستميل الحسن فكتب إليه : « قد علمت أنى أطول منك ولاية ، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة ، وأكثر منك سنًا ، فأنت أحق أن تجيبنى إلى هذه المنزلة التى سألتنى ، فادخل فى طاعتى ولك الأمر من بعدى ، ولك ما فى بيت مال العراق من المال بالغًا ما يبلغ تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج أى كور العراق شئت معونة لك على نفقتك يجبيها أمينك ويحملها إليك فى كل سنة ، ولك ألا يستولى عليك بالإساءة ولا تقضى دونك الأمور ، ولا تعصى فى أمر أردت به طاعة الله ، أعاننا الله وإياك على طاعته ، إنه سميع مجيب الدعاء والسلام » .

فلم يكتب الحسن ردًا ، فقد راح معاوية يمنيه الدنيا ، وما كان الحسن يطلب الدنيا ، إنه كان يخشى إهراق دماء المسلمين وذلك ما جعله يحجم عن أن يقود الجيوش لقتال معاوية وأهل الشام . وعاد معاوية يكتب إليه يمنيه ويهدده ويخوفه أصحابه : « أما بعد فإن الله يفعل فى عباده ما يشاء . لا معقب لحكمه ، وهو

سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيتك على أيدى رعاع من الناس ، وأيس من أن تجد فينا غميزة ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتنى وفيت لك بما وعدت وأجرت لك ما شرطت ، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

وإن أحدًا أسدى إليك أمانة فأوف بها تدعى إذا مت وافيا
ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ولا تجفه إن كان فى المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أولى الناس بها والسلام » .

فأجاب الحسن : « أما بعد ، فقد وصل إلىّ كتابك تذكر فيه ما ذكرت ، وتركت جوابك خشية البغى عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحق تعلم أنى من أهله ، وعلى إثم أن أقول فأكذب والسلام » .

قرأ معاوية الكتاب ، فرأى أن يجمع جنده فكتب إلى عماله : « السلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، فالحمد لله الذى كفاكم مؤونة عدوكم وقتلة خليفتكم ، إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلىّ بن أبى طالب رجلا من عباده فاغتاله فقتله ، فنزل أصحابه متفرقين مختلفين ، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابى هذا ، بجهدكم وجندكم ، وحسن عدتكم . فقد أصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل ، وأهلك الله أهل البغى والعدوان ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

اجتمعت العساكر إلى معاوية ، فسار بها قاصدًا العراق ، وبلغ الحسن خبر مسيره فاستاء فإنه لا يريد أن يقود الناس إلى قتال ، واقترب معاوية من العراق ، فتحرك الحسن وبعث حجر بن عدى فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير .

ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس ، فلما اجتمعوا خرج إليهم وقد تمثلت فى ذهنه صورة خذلانهم لأبيه لما جاء صريخ محمد بن أبى بكر من مصر ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد ، فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرها ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصبروا إن الله مع الصابرين ، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا

بالصبر على ما تكرهون ، بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون ، ونرى وترون .

وظهر من قوله أنه يتخوف خذلان الناس ، فلما سكت اتضح أنهم خاذلوه ، فسكتوا فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم قام وقال :

ـــ أنا ابن حاتم ، سبحان الله ما أقبح هذا المقام لا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم ، أين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالمخاريق فى الدعة ، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب ، أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارتها ؟!

ثم استقبل الحسن بوجهه وقال :

ـــ أصاب الله بك المراشد ، وجنبك المكاره ، ووفقك لما تحمد وروده وصدوره ، قد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهى إلى معسكرى فمن أحب أن يوافينى فليواف .

ثم مضى لوجهه ، فخرج من المسجد ، ودابته بالباب ، فوضع رجله فى الركاب ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه .

وقام قيس بن سعد ، ومعقل بن قيس ، وزياد بن صعصعة فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم وكلموا الحسن بمثل كلام عدىّ ، فقال لهم الحسن :

ـــ صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيرًا .

ونشط الناس للخروج ، فانطلقوا إلى النخيلة ينتظرون وفود أمير المؤمنين .

دخل الحسن على رجل يجود بنفسه ، فعاين ما يقاسيه من الكرب ، فأحس يدًا تهصر قلبه ، فغمغم :

ـــ إن أمرًا هذا آخره لجدير بأن يزهد فى أوله ، وإن أمرا هذا أوله لجدير أن يخاف آخره .

وخرج إلى العسكر ، فألفى ألوف الرجال ينتظرونه ، فخرج فى عسكر عظيم وعدة حسنة ، حتى نزل دير عبد الرحمن فأقام به ثلاثا حتى اجتمع الناس ، ثم دعا عبيد الله بن العباس فقال له :

ـــ يابن عم ، إنى باعث إليك اثنى عشر ألفا من فرسان العرب وقراء مضر الرجل منهم يريد الكتيبة ، فسر بهم وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وأدنهم من مجلسك فإنهم بقية ثقات أمير المؤمنين وسر بهم على شط الفرات حتى تقطع بهم الفرات حتى تصير بمسكن ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحبسه حتى آتيك ، فإنى على أثرك وشيكا ، وليكن خبرك عندى كل يوم ، وشاور هذين « قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس » ، وإذا لقيت معاوية ، فلا تقاتله حتى يقاتلك ، فإن فعل فقاتله ، وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، وإن أصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على الناس .

وسار عبيد الله بن عباس بمن معه ، فجعل أصحاب الحسن الذين وجههم معه يتسللون إلى معاوية ، الوجوه وأهل البيوتات ، فكتب عبيد الله إليه : « أما بعد فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد علىّ عليه السلام ، فشمر للحرب وجاهد عدوك ، وقارب أصحابك ، واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياه ، ووال أهل البيوتات والشرف تستصلح به عشائرهم حتى يكون الناس جماعة ، فإن بعض ما

يكره الناس ما لم يتعد الحق وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل ، وعز الدين خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذل المؤمنين وعز الفاجرين ، واقتد بما جاء عن أئمة العدل فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا فى حرب أو إصلاح بين الناس ، فإن الحرب خدعة ولك فى ذلك سعة إذا كنت محاربا ما لم تبطل حقا واعلم أن عليًّا أباك إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه آسى بينهم فى الفىء ، وسوى بينهم فى العطاء فثقل عليهم . واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله فى ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله ، فلما وحد الرب ومحق الشرك وعز الدين أظهروا الإيمان وقرءوا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفرائض وهم لها كارهون ، فلما رأوا أنه لا يعز فى الدين إلا الأتقياء الأبرار توسموا بسيما الصالحين لتظن المسلمون بهم خيرًا ، فما زالوا حتى أشركوهم فى أمانتهم وقالوا حسابهم على الله ، فإن كانوا صادقين فإخواننا فى الدين وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ، والله ما زادهم طول العمر إلا غيا ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقتا . فجاهدهم ولا ترض دنية ولا تقبل خسفا ، فإن عيسا لم يجب إلى الحكومة حتى غلب على أمره فأجاب ، وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام » .

وسار الحسن بمن معه حتى نزل ساباط ، وجاء الليل فنظر إلى عسكره وأطرق وبان فى وجهه هم ثقيل ، إنه يخشى إهراق دماء المسلمين ، وإنه يخشى أن يسأله الله فيم أهرق دماءهم ، وأمسى طول ليله ينظر فى أمره ، فلما أصبح الصباح نادى فى الناس :

— الصلاة جامعة .

فاجتمعوا ، فصعد المنبر فقال :

— الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله كلما شهد له شاهد ،

وأشهد أن محمدا رسول الله أرسله بالحق وائتمنه على الوحى، صلى الله عليه وآله أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله منه وأنا أنصح خلقه لخلقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة ، ولا مريدًا له بسوء ولا غائلة ، ألا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة ، ألا وإنى ناظر لكم خيرًا من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمرى ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله .

ثم نزل ، فعلا وجوه الناس وجوم ، ونظر بعضهم إلى بعض وقالوا :

— ما ترونه يريد بما قال ؟

— نظنه يريد أن يصالح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل .

وثارت ثائرة الناس فشدوا على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، ثم شد عليه رجل فنزع مطرفه عن عاتقه ، فبقى جالسًا متقلدًا سيفًا بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراده ، ولاموه ، فقال :

— ادعوا لى ربيعة وهمدان .

فدعوا له فأطافوا به ، ودفعوا الناس عنه ، وانطلق ، فلما مر فى مظلم ساباط قام إليه جراح بن سنان وبيده معول ، فأخذ بلجام فرسه وقال :

— الله أكبر يا حسن ، أشرك أبوك ثم أشركت أنت .

وطعنه بالمعول ، فوقعت فى فخذه فشقته . وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه فخرا جميعًا إلى الأرض ، فوثب رجل ونزع المعول من يد جراح فخضخضه به ، وأكب آخر عليه ، فقطع أنفه ، ثم أخذا له الآجر فشدخا رأسه ووجهه حتى قتلوه .

وحمل الحسن على سرير إلى المدائن ، فقام بها يعالج نفسه ، وجاء الحسين وعبد الله بن جعفر فقال لهما الحسن :

— إنى قد كتبت إلى معاوية فى الصلح وطلب الأمان .

فثار الحسين وقال :

— نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة علىّ ؟

— اسكت فأنا أعلم بالأمر منك .

وأقبل معاوية حتى نزل قرية يقال لها الحيوضة بمسكن ، وأقبل عبيد الله بن عباس حتى نزل بإزائه . فلما كان من غد ، وجه معاوية بخيل إلى عبيد الله فيمن معه فضربهم حتى ردهم إلى معسكرهم . فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس أن الحسن قد راسلنى فى الصلح وهو مُسلم الأمر إلىّ ، فإن دخلت فى طاعتى الآن كنت متبوعًا ، وإلا دخلت وأنت تابع ، ولك إن أجبتنى الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك فى هذا الوقت نصفًا ، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر .

فأقبل عبيد الله إليه ليلا ، فدخل عسكر معاوية ، فوفى له بما وعده ، وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج فيُصلى بهم ، فلم يخرج حتى أصبحوا ، فطلبوه فلم يجدوه ، فصلى بهم قيس بن سعد ثم خطبهم فثبتهم ، وذكر عبيد الله فنال منه ، ثم أمرهم بالصبر والنهوض إلى العدو ، فأجابوه بالطاعة وقالوا له :

— انهض بنا إلى عدونا على اسم الله .

فنهض بهم وخرج إليه بسر بن أرطأة ، فصاح :

— ويحكم !! هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح فعلام تقتلون أنفسكم ؟

فقال قيس بن سعد لأهل العراق :

— اختاروا إحدى اثنتين : إما قتال مع غير إمام ، وإما أن تبايعوا بيعة ضلال !.

— بل نقاتل بلا إمام .

فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم ، فكتب معاوية إلى قيس ابن سعد يدعوه ويمنيه ، فكتب إليه قيس :

— « لا والله لا تلقانى أبدا إلاّ وبينى وبينك الرمح » .

فكتب إليه معاوية حينئذ لما يئس منه : « أما بعد ، فإنك يهودى ابن يهودى تشقى نفسك وتقتلها فيما ليس لك ، فإن ظهر أحب الفريقين إليك نبذك وغدرك ، وإن ظهر أبغضهم إليك نكل بك وقتلك ، وقد كان أبوك أوتر غير قوسه ، ورمى غير غرضه ، فأكثر الجذ وأخطأ المفصل فخذله قومه ، وأدركه يومه فمات بحوران طريدًا غريبًا والسلام . » .

فكتب إليه قيس بن سعد بن عبادة : « أما بعد ، فإنما أنت وثن ابن وثن ، دخلت الإسلام كرها ، وأقمت فيه فرقا ، وخرجت منه طوعا ، ولم يجعل الله لك فيه نصيبا . لم يقدم إسلامك . ولم يحدث نفاقك . ولم تزل حربًا لله ولرسوله . وحزبا من أحزاب المشركين ، وعدوًا لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده . وذكرت أبى لعمرى فما أوتر إلا قوسه ، وما رمى إلا غرضه ، فشغب عليه من لا تشق غباره ، ولا تبلغ كعبه ، وزعمت أنى يهودى ابن يهودى . وقد علمت وعلم الناس أنى وأبى أعداء الدين الذى خرجت منه ، وأنصار الدين الذى دخلت فيه ، وصرت إليه . والسلام » .

فلما قرأ معاوية كتاب قيس غاظه ، وأراد إجابته فقال له عمرو :

— مهلا ، فإنك إن كاتبته أجابك بأشد من هذا ، وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس ، فأمسك عنه .

واعتزل قيس فى أربعة آلاف فارس ، وبعث معاوية عبد الله بن عامر ، وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح فدعوه ، فزهداه الأمر ، وما كان الحسن فى حاجة لمن يزهده ، وأعطياه ما شرط له معاوية ، وأن لا يتبع أحد بما مضى ، ولا ينال أحد من شيعة علىّ بمكروه ، ولا يذكر علىّ إلا بخير . وتم الصلح بين معاوية والحسن ، فانطلق الحسن إلى الكوفة وأكابر أصحابه يلومونه ويبكون إليه جزعا مما فعل .

سار معاوية حتى نزل النخيلة ، وأقبل الحسن فبايعه ، ومال عمرو بن العاص على معاوية فقال له :

— مر الحسن بن علىّ أن يخطب ، فإنه حديث السن عيى ، فلعله يتلعثم فيتضع فى قلوب الناس .

فطلب معاوية من الحسن أن يخطب فامتنع ، فاشده أن يفعل ، فوضع له كرسى ، فجلس عليه فقال :

— أما بعد أيها الناس ، فإن الله هداكم بأولنا . وحقن دماءكم بآخرنا ، ألا إن أكيس الكيس التقى . وإن أعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر اختلفت أنا ومعاوية فيه ، إما أن يكون أحق به منى ، وإما أن يكون حقى تركته لله عز وجل لإصلاح أمة محمد ﷺ ، وحقن دمائكم .

ثم التفت إلى معاوية وقال :

— وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين .

فتغير وجه معاوية ، والتفت إلى عمرو وقال فى غيظ :

— هذا من رأيك .

٣٦

أرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله ويقول :

— على طاعة من تقاتل وقد بايعنى الذى أعطيته طاعتك ؟!

فأبى قيس أن يلين له ، فبعث إليه معاوية سجلا قد ختم إليه فى أسفله فقال :

— اكتب فى هذا السجل ما شئت فهو لك .

فقال عمرو لمعاوية :

— لا تأته هذا فقاتله .

— على رسلك فإنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعداءهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك ،وإنى والله لا أقاتله أبدًا حتى لا أجد من قتاله بدًا .

فلما وصل إلى سعد ذلك السجل ، اشترط ابن قيس فيه له ولشيعة علىّ الأمان

على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية فى سجله ذلك مالا ،

وجئ بقيس ليبايع ، فقال قبل أن يدخل على معاوية :

— إنى حلفت أن لا ألقاه إلا وبينى وبينه الرمح أو السيف .

فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبر يمينه ، ودخل قيس ليبايع فأقبل على الحسن فقال :

— أفى حل من بيعتك ؟.

— نعم .

فألقى له كرسى ، وجلس معاوية على سرير والحسن معه ، فقال له معاوية :

— أتبايع يا قيس ؟

— نعم .

ووضع يده على فخذه ولم يمدها إلى معاوية ، فجاء معاوية من سريره وأكب على قيس حتى مسح يده على يده ، وما رفع إليه قيس يده .

وبلغ الخوارج نزول معاوية بالنخيلة فقالوا :

— قد جاء الآن ما لا شك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه .

فأقبلوا حتى دخلوا الكوفة ، فأرسل إليهم معاوية خيلا من خيل أهل الشام ، فكشفوا أهل الشام ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج فقال الحسن :

— سبحان الله ، تركت قتالك وهو لى حلال لصلاح الأمة وألفتهم، أفترانى أقاتل معك ؟ وأرسل معاوية لأهل الكوفة :

— لا أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم .

فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم ، فقالت لهم الخوارج :

— ويلكم ، ما تبغون منا ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ، دعونا حتى نقاتله ، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا .

— لا والله حتى نقاتلكم .

— رحم الله إخواننا من أهل النهر ، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة .

وقاتل أهل الكوفة الخوارج حتى قتلوهم ، واطمأن معاوية ، فجمع الناس فخطبهم :

— ما اختلف أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها .

ثم انتبه وندم فقال :

— إلا هذه الأمة ، يا أهل الكوفة ، أترانى قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ، ولكننى قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم ، وقد أتانى الله ذلك وأنتم كارهون . ألا إن كل مال أو دم أصيب فى هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمى هاتين ، ولا يصلح الناس إلا بثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقفال الجنود لوقتها ، وغزو العدو فى داره ، فإن لم تغزوهم غزوكم .

وذكر عليًّا فنال منه ، فقام الحسين ، وكان جالسا تحت المنبر ، ليرد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ثم قام فقال :

— أيها الذاكر عليًّا ، أنا الحسن وأبى علىّ وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأمى فاطمة وأمك هند ، وجدى رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة ، وجدتى خديجة وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا وألأمنا حسبا وشرفا قديما وحديثا ، وأقدمنا كفرا ونفاقا .

فقالت طوائف من أهل المسجد :

— آمين .

ودخل معاوية الكوفة بين يديه خالد بن عرفطة ، ومعه حبيب بن حماد يحمل رايته ، وجاء المسيب بن نجية للحسن فقال له :

— ما ينقضى عجبى منك ، بايعت معاوية ومعك أربعون ألفًا ، ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعهدًا ظاهرًا ، أعطاك أمرًا فيما بينك وبينه ثم قال ما قد سمعت ، والله ما أراد بها غيرك .

ــ فما ترى ؟

ــ أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينه وبينك .

ــ يا مسيب ، إنى لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ، ولا أثبت عند الحرب منى ، ولكنى أردت صلاحكم وكف بعضكم عن بعض فارضوا بقدر الله وقضائه .

ودخل الحسن الكوفة ، وجلس بفناء داره وعنده رهط ، فدخل عليه رجل فقال :

ــ السلام عليك يا مذل المؤمنين .

ــ وعليك السلام .

ونزل الرجل فعقل راحلته ، ثم أتاه فجلس إليه فقال له الحسن :

ــ كيف قلت : السلام عليك يا مذل المؤمنين ، لم جرى هذا منك إلينا ؟

ــ أنت والله بأبى وأمى أذللت رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة وسلمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ، ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك فقد جمع الله عليك كل الناس .

ــ كانت جماجم العرب بيدى ، يسالمون من سالمت . ويحاربون من حاربت ، فتركتها ابتغاء وجه الله .

واستعمل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة ، فساء ذلك المغيرة ابن شعبة ، فأتى معاوية وقال له :

ــ استعملت عبد الله بن عمرو على الكوفة وعمرًا على مصر ، فتكون أنت بين لحيى الأسد ؟

وفكر معاوية فوجد ما قاله المغيرة صحيحا ، فعزل عبد الله وولى المغيرة .

وبلغ عمرًا ما قال المغيرة لمعاوية ، فدخل عمرو على معاوية فقال :

ــ استعملت المغيرة على الكوفة ؟

ــ نعم .

— أجعلته على الخراج ؟

— نعم .

— تستعمل المغيرة على الخراج فيغتال المال فيذهب فلا تستطيع أن تأخذ منه شيئا ، استعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتقيك .

فعزل المغيرة عن الخراج ، واستعمله على الصلاة ، فلقى المغيرة عمرًا فكلمه فى ذلك فقال عمرو :

— ألست المشير على أمير المؤمنين فى عبد الله بن عمرو ؟

— بلى .

— فهذه بتلك .

وانصرف معاوية راجعا إلى الشام ، وأتى سليمان بن صرد الحسن ، وكان غائبا عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم ، فقال :

— السلام عليك يا مذل المؤمنين .

— وعليك السلام ، اجلس لله أبوك .

— إن تعجبنا لا ينقضى من بيعتك معاوية ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية فى العهد ولا حظًا من القضية . فلو كنت كتبت عليك بذلك كتابًا وأشهدت عليك شهودًا من أهل المشرق والمغرب أن هذا الأمر لك بعده كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به ، من قوله ، ثم قال وزعم على رءوس الناس ما قد سمعت ، إنى كنت شرطت لقوم شروطا ، ووعدتهم عدات ، ومنيتهم أمانى ، إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمى هاتين ، والله ما أعنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه ، فأعد للحرب خدعة ، وأذن لى أشخص إلى الكوفة ، فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعه ، وانبذ إليه على سواء إن الله لا يهدى كيد الخائنين .

وسكت سليمان ، فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته وكلهم يقول :

ــ ابعث سليمان بن صرد وابعثنا معه ثم الحقنا إذا علمت أن قد أشخصنا عامله وأظهرنا خلعه .

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

ــ أما بعد ، فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت للجزم فى أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب ما كان معاوية بأبأس منى بأسًا وأشد شكيمة ، ولكان رأيى غير ما رأيتم ، ولكنى أشهد الله وإياكم أنى لم أرد بما رأيتم إلا حقن دمائكم وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ، وارضوا بقضاء الله ، وسلموا الأمر لله ، والزموا بيوتكم وكفوا أيديكم حتى يستريح بر ويستراح من فاجر .

وقام سليمان وخرج من عنده وهو يرجو أن يجد عند الحسين غير ما وجد عند الحسن . فلما دخل عليه وعرض ما عرضه على الحسن قال :

ــ ليكن كل رجل منك حلسًا من أحلاس بيته ما دام معاوية حيًا ، فإنها بيعة كنت والله لها كارها ، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم .

وتجهز الحسن والحسين للشخوص إلى المدينة ، فدخل عليهما المسيب بن نجية الفزارى وظبيان بن عمارة التيمى ليودعاه ، فقال الحسن :

ــ الحمد لله الغالب على أمره ، لو أجمع الخلق جميعا على أن يكون ما هو كائن ما استطاعوا .

فقال الحسين :

ــ لقد كنت كارها لما كان ، طيب النفس على سبيل أبى حتى عزم على أخى فأطعته ، وكأنما يجذ أنفى بالمواسى .

فقال له المسيب :

ــ إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تضاموا وتنتقصوا . أما نحن فإنهم سيطلبون مودتنا بكل ما قدروا عليه .

— يا مسيب نحن نعلم أنك تحبنا .

فقال الحسن :

— سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ وآله يقول : « من أحب قوما كان معهم » .

وتجهز الحسن والحسين ، وخرج الناس لوداعهم ، وانطلق الركب وقد جرت الدموع ، وطأطأ أبو بكرة رأسه ، فعاد بفكره القهقرى فتذكر يوم كان النبى يحدثهم والحسن بن علىّ فى حجره ، فيقبل على أصحابه فيحدثهم ، ثم يقبل على الحسن فيقبله ثم يقول : « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

٣٧

بعث معاوية زيادا على البصرة وكتب إليه : « أما بعد ، فانظر عبد الله بن هاشم ابن عتبة ، فشد يده إلى عنقه ثم ابعث به إلى » .

ونادى منادى زياد فى البصرة :

— أمن الأسود والأحمر بأمان الله إلا عبد الله بن هاشم بن عتبة .

ففر عبد الله ، ومكث معاوية يطلبه أشد الطلب ، فقد كان يريد أن يضع يده عليه ، فما نسى تحريضه لأهل العراق فى صفين بعد أن قتل أبوه ، وظل مدة لا يعرف له خبرا حتى قدم عليه رجل من أهل البصرة ، فقال له :

— أنا أدلك على عبد الله بن هاشم ، اكتب إلى زياد فإنه عند فلانة المخزومية .

فدعا كاتبه فكتب : « من معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين إلى زياد بن أبى سفيان : أما بعد ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعمد إلى حى بنى مخزوم ففتشه دارًا دارًا حتى تأتى إلى دار فلانة المخزومية فاستخرج عبد الله بن هاشم المرقال منها فاحلق رأسه وألبسه جبة شعر ، وقيده وغل يده إلى عنقه ، واحمله على قتب بعير وطاء ولا

غطاء وأقدمه إلى » .

وقبض زياد على عبد الله فبعث به إلى معاوية مغلول اليدين ، فلاقى فى سفره نصبا كثيرا ، ودخل دمشق فى يوم الجمعة ، وهو اليوم الذى خصصه معاوية لأشراف قريش وأشراف الشام ووفود العراق ، فلم يشعر معاوية إلا وعبد الله بين يديه ، وقد ذبل وسهم وجهه ، فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص ، فقال معاوية :

— يا أبا عبد الله ، أتعرف هذا الفتى ؟

— لا .

— هذا ابن الذى يقول فى صفين :

أعـور يبغـى أهلـه محلا قد عالج الحيـاة حتـى ملا
لا بد أن يغـل أو يفـلا

— وإنه لهو . دونك الضب المضب فاشخب أوداجه ، ولا ترجعه إلى أهل العراق فإنهم أهل فتنة ونفاق ، وله مع ذلك هوى يرديه ، وبطانة تقويه ، والذى نفسي بيده لئن أفلت من حبائلك ليجهزن إليك جيشا تكثر صواهله .

فقال عبد الله وهو فى القيد :

— يابن الأبتر ، هلا كانت هذه الحماسة عندك يوم صفين ، ونحن ندعوك إلى البراز وتلوذ بشمائل الخيل ، كالأمة السوداء والنعجة القوداء ؛ أما إن قتلنى قتل رجلا كريم المخبرة ، حميد المقدرة .

فقال عمرو :

— أما والله لقد وقعت ، ولا أحسبك منفلتا من مخاليب أمير المؤمنين .

— إن أقتل فرجل أسلمه قومه ، وأدركه يومه ، أما والله يابن العاص إنك لبطر فى الرخاء ، جبان عند اللقاء ، غشوم إذا وليت ، هياب إذا لقيت .

فقال معاوية :

— ألا تسكت لا أم لك ؟

— يابن هند أتقول لى هذا ، والله لو شئت لأعرقن جبينك ولأقيمنك وبين

عينيك وسم يلين له أخدعاك ، أبأكثر من الموت تخوفنى ؟!

فقال معاوية فى لين :

— أو تكف يابن أخى .

وأمر به إلى السجن ، وراح عمرو يزين له قتله . فقد كان أبوه يوم صفين جمرة عليهم ، ولكن معاوية لم يسمع له ، فقد كان يعمل على تحبيب الناس فيه ، واستمالتهم إليه بالمال والعفو والصبر والأناة .

وأتى به من سجنه وقال له :

— أتراك فاعلا ما قال عمرو من الخروج علينا ؟

— لا تسل عن عقيدات الضمائر لا سيما إذا أرادت جهادا فى طاعة الله .

— إذن يقتلك الله كما قتل أباك .

— ومن لى بالشهادة ؟

واستمر معاوية يلاينه حتى أخذ عليه موثقا ألا يساكنه بالشام حتى لا يفسد عليه أهله ، ثم أحسن جائزته وأطلقه .

وجلس معاوية وعمرو وسعيد وعتبة والوليد يتذاكرون صفين ، فذكروا الزرقاء بنت عدى ، فقال معاوية :

— أيكم يحفظ كلامها ؟

— نحن نحفظه يا أمير المؤمنين .

— فأشيروا على فى أمرها .

— نشير عليك بقتلها .

— بئس الرأى ما أشرتم به على ، أيحسن بمثلى أن يتحدث عنه أنه قتل امرأة بعدما ظفر بها ؟

فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، وأن يمهد لها وطاء لينا ، ويسترها بستر خصيف ، ويوسع لها فى النفقة .

فأرسل عامله إلى الزرقاء فأقرأها الكتاب ، فقالت :

— إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلى فإنى لا آتيه ، وإن كان حتم فالطاعة أولى .

فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به ، فانطلقت إلى الشام مع عدة من الفرسان ، فلما دخلت على معاوية قال :

— مرحبا وأهلا ، قدمت خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك ؟

— بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة .

— كيف كنت فى مسيرك ؟

— ربيبة بيت طفلا أو ممهدا .

— بذلك أمرناهم ، أتدرين فيم بعثت إليك ؟.

— أنى لى بعلم ما لم أعلم ؟

— ألست الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصفين فى يوم صفين تحضين على القتال ، وتوقدين الحرب ، فما حملك على ذلك ؟.

— يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، ولم يعد ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

— صدقت .. أتحفظين كلامك يوم صفين ؟

— لا والله لا أحفظه ولقد أنسيته .

— ولكنى أحفظه ، لله أبوك حين تقولين : أيها الناس ، ارعووا وارجعوا إنكم قد أصبحتم فى فتنة عشتكم جلابيب الظلم، وحارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء ، صماء بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها . إن المصباح لا يضىء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه ، أيها الناس ! إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، فكأنه قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، ودفع

الحق باطله ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف العدل ، ليقضى الله أمرًا كان مفعولا . ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء . ولهذا اليوم ما بعده . والصبر خير فى الأمور عواقبًا . إيهًا فى الحرب قدما غير ناكصين ولا متشاكسين .

ثم قال لها :

— والله يا زرقاء لقد شركت عليا فى كل دم سفكه .

— أحسن الله بشارتك ، وأدام سلامتك . فمثلك بشر بخير وسر جليسه ؟

— أوَيسرك ذلك ؟

— نعم والله . لقد سررت بالخبر فأنى لى بتصديق الفعل ؟

فضحك معاوية وقال :

— والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته ، اذكرى حاجتك !

— يا أمير المؤمنين ! آليت على نفسى أن لا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا ، ومثلك أعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلبة .

— صدقت .

وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكساء ، وتوافد أصحاب علىّ وأقاربه على معاوية فكان يعطيهم مالا كثيرا وما أعطوه كلمة طيبة .

وأتى عقيل بن أبى طالب معاوية فأعطاه مئة ألف ، ثم غدا عليه يومًا بعد ذلك وجلساء معاوية حوله ، فقال معاوية :

— يا أبا يزيد أخبرنى عن عسكرى وعسكر أخيك فقد وردت عليهما .

— أخبرك ، مررت والله بعسكر أخى ، فإذا ليل كليل رسول الله ﷺ وآله ، ونهار كنهار رسول الله ، إلا أن رسول الله ليس فى القوم ، ما رأيت إلا مصليًا ، ولا سمعت إلا قارئًا ، ومررت بعسكرك فاستقبلنى قوم من المنافقين ممن نفر برسول الله ليلة العقبة .

ثم قال :

ــ من هذا عن يمينك يا معاوية ؟

ــ هذا عمرو بن العاص .

ــ هذا الذى اختصم فيه ستة نفر فغلب عليه جزار قريش ، فمن الآخر ؟

ــ الضحاك بن قيس الفهرى .

ــ أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعسب التيوس ، فمن الآخر ؟

ــ أبو موسى الأشعرى .

ــ هذا ابن السراقة .

ورأى معاوية أنه أغضب جلساءه ، وعلم أنه إن استخبره عن نفسه قال فيه سوءًا ، فعزم على أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من سوء فيذهب بذلك غضب جلسائه قال :

ــ يا أبا يزيد ما تقول فى ؟

ــ دعنى من هذا ؟

ــ لتقولن .

ــ أتعرف حمامة ؟

ــ ومن حمامة يا أبا يزيد ؟

ــ قد أخبرتك .

ثم قام فمضى ، فأرسل معاوية إلى النسابة فدعاه ، فقال :

ــ من حمامة ؟

فظهر الارتباك على وجه الرجل ، وصمت ، فقال له معاوية :

ــ من حمامة ؟.

ــ ولى الأمان ؟

ــ نعم .

ــ حمامة جدتك أم أبى سفيان ، كانت بغيًا فى الجاهلية صاحبة راية .

فقال معاوية لجلسائه :

— قد ساويتكم وزدت عليكم فلا تغضبوا .

٣٨

سار الحسن والحسين إلى المدينة ، وكانا كلما نزلا بقبيلة ، قالوا للحسن :

— يا عار المؤمنين ؟

فكان يقول لهم فى هدوء :

— العار خير من النار .

وما كان يغضب لتسفيه رأيه فيما أتاه من مهادنة معاوية ، فقد كان يعلم أن وجه الحكمة فيما أتاه ملتبس ، فالخضر عليه السلام لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضى .

ودخلا المدينة ، ودار بين الحسن والحسين كلام فتقاطعا ، وراح الحسن يخرج عن ماله ولا يرد سائلا ، فقيل له :

— لأى شيء نراك لا ترد سائلا وإن كنت على فاقة ؟

— إنى لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحى أن أكون سائلا وأرد سائلا ، وإن الله تعالى عودنى عادة ؛ عودنى أن يفيض نعمه على ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى إن قطعت العادة ، أن يمنعنى العادة .

وبسط للحسن على باب داره ، فخرج وجلس ، فانقطع الطريق ، فما يمر أحد من خلق الله إجلالا له ، ففطن إلى ذلك فقام .

وقيل للحسين :

— إن الفضل للمبتدئ به ، وأنا أكره أن يكون لى الفضل على أخى .

— لو أتيت أخاك فهو أكبر منك سنا ؟

فبلغ ذلك الحسن فأتاه وترضاه ، وخرجا فأمسك ابن عباس للحسن ثم

للحسين بالركاب وسوى عليهما ثيابهما ، فالتفت رجل إلى ابن عباس وقال :

— أنت أسن منهما تمسك لهما الركاب ؟!

— يا لكع ؟ أما تدرى من هذان ؟ هذان ابنا رسول الله ، أوَليس مما أنعم الله على به أن أمسك لهما وأسوى عليهما ؟

ووافى أوان الحج ، فأقبل الحجيج ، ورأى رجل من أهل الشام رجلا أبيض اللون مشربا بحمرة ، أدعج العينين ، سهل الخدين ، كث اللحية ، بعيدًا ما بين المنكبين ، ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، مليحًا ، لم ير أحسن وجها ولا سمتا ولا ثوبا ولا دابة منه ، فمال قلبه إليه ، فسأل :

— من هذا ؟

— هذا الحسن بن على بن أبى طالب .

فامتلأ قلبه بغضا ، وأحس رغبة فى أن يسبه ، فانطلق إليه فقال فى جفوة :

— أأنت ابن أبى طالب ؟

فقال الحسن فى هدوء :

— أنا ابن ابنه .

فراح الرجل يسبه ويسب أباه والحسن هادئ حتى إذا ما انتهى كلام الرجل قال له الحسن :

— أحسبك غريبًا ؟

— أجل .

— فمل بنا ، فإن احتجت إلى منزل أنزلناك أو إلى مال آسيناك ، أو إلى حاجة عاوناك .

فتبخرت ثورة الرجل ، وانقشع حقده ، وانصرف وما على الأرض أحد أحب إليه منه .

وخرج الحسن والحسين إلى الحج يمشيان ، وقال الحسن :

— إنى لأستحى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته .

وانطلقا فلم يمرا براكب إلا نزل يمشي ، ومرا على سعد بن أبي وقاص فنزل ، وثقل ذلك على بعضهم ، فجاءوا سعدا فقالوا له :

— قد ثقل علينا المشي ، ولا نستحسن أن نركب وهذان السيدان يمشيان .

فقال سعد للحسن :

— يا أبا محمد ، إن المشي قد ثقل على جماعة ممن معك ، والناس إذا رأوكما تمشيان لم تطب أنفسهم أن يركبوا ، فلو ركبتما .

— لا نركب ، قد جعلنا على أنفسنا المشي إلى بيت الله الحرام على أقدامنا ، ولكننا نتنكب الطريق .

فأخذا جانبًا من الناس ، وانطلقا .

وكان الحسن يطوف فلقيه عمرو بن العاص فقال له :

— يا حسن زعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية فجعله راسيا بعد ميله ، وبينًا بعد خفاقه ، أفرضى الله بقتل عثمان أو من الحق أن تطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطحن ، عليك ثياب كغرقى البيض وأنت قاتل عثمان ، والله إنه لألم للشعث وأسهل للوعث أن يوردك معاوية حياض أبيك .

— إن لأهل النار لعلامات يعرفون بها ، إلحادًا لأولياء الله ، وموالاة لأعداء الله ، والله إنك لتعلم أن عليًّا لم يرتب فى الدين،ولم يشك فى الله ساعة ولا طرفة عين قط ، وأيم الله لتنتهين يا بن أم عمرو أو لأنفذن حضنيك بنوافذ أشد من القصبعية ، فإياك والتهجم عليّ ، فإني من قد عرفت ، لست بضعيف الغمزة ، ولا هش المشاشة ، ولا مريء المأكلة ، وإني من قريش كواسطة القلادة يعرف حسبي ولا أدعى لغير أبي ، وأنت من تعلم ويعلم الناس تحاكمت فيك رجال قريش فغلب عليك جزارها ألأمهم حسبا ، وأعظمهم لؤما ، فإليك عنى فإنك رجس ونحن بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيرًا .

* * *

ورأى الحسن غلاما أسود يأكل من رغيف لقمة ، ويطعم كلبًا هناك لقمة فقال

له :

— ما حملك على هذا ؟

— إنى أستحى منه أن آكل ولا أطعمه .

— لا تبرح مكانك حتى آتيك .

فذهب إلى سيده فاشتراه واشترى الحائط الذى هو فيه ، وعاد إليه فأعتقه وملكه الحائط ، فقال الغلام :

— يا مولاى ، قد وهبت الحائط للذى وهبتنى له .

٣٩

دخل عبيد الله بن عباس على معاوية ، فوجد عنده بسر بن أرطأة ، فتغير وقال :

— أنت أمرت اللعين السيئ القدم أن يقتل ابنىّ ؟

فقال معاوية فى إنكار :

— ما أمرته بذلك ولوددت أنه لم يكن قتلهما .

فغضب بسر ، ونزع سيفه فألقاه ، وقال لمعاوية :

— اقبض سيفك عنى ، قلدتنيه وأمرتنى أن أخبط به الناس ففعلت حتى إذا بلغت ما أردت قلت : لم أهو ولم آمر .

فقال معاوية فى حدة :

— خذ سيفك إليك ، فلعمرى إنك ضعيف مائق حين تلقى السيف بين يدى رجل من بنى عبد مناف قد قتلت أمس ابنيه .

فقال له عبيد الله :

— أتحسبنى يا معاوية قاتلا بسرًا بأحد ابنىّ ؟ هو أحقر وألأم من ذلك ، ولكن والله لا أرى لى مقنعًا ولا أدرك ثأرًا إلا أن أصيب بهما يزيد وعبد الله .

فتبسم معاوية وقال فى لين :

ـــ وما ذنب معاوية وابنىْ معاوية ؟ والله ما علمت ولا أمرت ولا رضيت ولا هويت .

وخرج عبد الله ، وأقبل أصحاب معاوية ، فراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، وبينما هم فى حديثهم إذ قال الحاجب :

ـــ الحسن بالباب .

فقال معاوية :

ـــ إنه إن دخل علينا أفسد ما نحن فيه .

فقال له مروان :

ـــ إيذن له ، فإنى أسأله عما ليس عنده فيه جواب .

ـــ لا تفعل ، فإنهم قوم ألهموا الكلام .

فأذن له ، فلما دخل جلس قال معاوية :

ـــ والله لأحبونك بجائزة ما أجزت بها أحدًا قبلك ، ولا أجيز بها أحدًا بعدك .

فأمر له بمائة ألف ، ولم يطق مروان أن يسكت دون أن يغمز الحسن فقال :

ـــ أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ، ويُقال إن ذلك من الخرق .

ـــ ليس كما بلغك ، ولكنا معشر بنى هاشم طيبة أفواهنا فنساؤنا يقبلن علينا بأنفاسهن وقُبلهن ، وأنتم معشر بنى أمية فيكم بخر شديد ، فنساؤكم يصرفن أفواههن عنكم إلى أصداغكم ، فإنما يشيب موضع العذار من أجل ذلك .

فقال مروان :

ـــ أما إن فيكم يا بنى هاشم عضلة سوء .

ـــ ما هى ؟

ـــ الغلمة .

ـــ أجل نزعت الغلمة من نسائنا ووضعت فى رجالنا ، ونزعت الغلمة من رجالكم ووضعت فى نسائكم ، فما قام لأموية إلا هاشمى .

فغضب معاوية وقال :

ـــ قد كنت أخبرتكم فأبيتم ، حتى سمعت ما أظلم عليكم بيتكم ، وأفسد مجلسكم .

* * *

واجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة فقالوا :

ـــ يا أمير المؤمنين ، إن الحسن قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصدق ، وأمر فأطيع وخفقت له النعال ، وإن ذلك لدافعه إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا .

ـــ فما تريدون ؟

ـــ ابعث إليه فليحضر لنسبه ونسب أباه ونعيره ونوبخه ونخبره أن أباه قتل عثمان ، ونقرره بذلك ولا يستطيع أن يغير علينا شيئًا من ذلك .

ـــ إنى لا أرى ذلك ولا أفعله .

ـــ عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن .

ـــ ويحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالسًا عندى إلا خفت مقامه وعيبه لى .

ـــ ابعث إليه على كل حال .

ـــ إن بعثت إليه لأنصفنه منكم .

فقال عمرو بن العاص :

ـــ أتخشى أن يأتى باطله على حقنا ، أو يربى قوله على قولنا .؟!

ـــ أما إنى إن بعثت إليه لآمره أن يتكلم بلسانه كله .

ـــ مره بذلك .

ـــ أما إذا عصيتمونى وبعثتم إليه وأبيتم إلا ذلك ، فلا تمرضوا له فى القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ، ولكن اقذفوه

بحجره ، تقولون له إن أباك قتل عثمان وكره خلافة الخلفاء من قبله .

فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله فقال :

ـــ إن أمير المؤمنين يدعوك .

ـــ مَنْ عنده ؟

فسماهم له ، فقال الحسن :

ـــ ما لهم خر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

ثم قال :

ـــ يا جارية ، أبغيني ثيابى . اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم ، وأدرأ بك فى نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت وأنى شئت بحول منك وقوة يا أرحم الراحمين .

ثم قام فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد القوم ، وخطروا خطران الفحول بغيًا فى أنفسهم وعلوًا ، ثم قال :

ـــ يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصونى .

ـــ سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ، والله إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما فى أنفسهم إنى لأستحي لك من الفحش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إنى لأستحى لك من الضعف ، فأيهما تقر وأيهما تنكر ؟ أما إنى لو علمت مكانهم جئت معى بمثلهم من بنى عبد المطلب ، وما لى أن أكون مستوحشًا منك ولا منهم ، إن وليى الله وهو يتولى الصالحين .

ـــ يا هذا ، إنى كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملونى على ذلك مع كراهتى له ، وإن لك منهم النصف ومنى ، وإنما دعوناك لنقررك أن عثمان قُتل مظلومًا ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك .

فتكلم عمرو بن العاص :

ـــ إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء ،

واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ، ثم إنك يا حسن تحدثك نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه . كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك وتركك أحمق قريش ، يسخر منك ويهزأ بك وذلك لسوء عمل أبيك ، وإنما دعوناك لنسبك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك فى أيدينا نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ؟ فإن كنت ترى أنا كذبنا فى شيء فاردده علينا فيما قلنا وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

ثم تكلم الوليد بن عقبة فقال :

— إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولد كان لكم فعرف حقكم ، وكنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم يكرمكم فكنتم أول من حسده فقتله أبوك ظلمًا لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه وأنزلكم منزلتكم . والله إن بنى أميَّة خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك .

ثم تكلم عتبة بن أبى سفيان فقال :

— يا حسن ، كان أبوك شر قريش لسفكه لدمائها ، وقطعه لأرحامها ، طويل السيف واللسان ، يقتل الحى ويعيب الميت ، وإنك ممن قتل عثمان ونحن قاتلوك به . وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زندها قادحًا ، ولا فى ميراثها راجحًا ، وإنكم يا بنى هاشم قتلتم عثمان ، وإن فى الحق أن نقتلك وأخاك به ، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد منه ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان .

ثم تكلم المغيرة فشتم عليًّا وقال :

— والله ما أعيبه فى قضية يخون ، ولا فى حكم يميل ، ولكنه قتل عثمان .

ثم سكتوا ، فتكلم الحسن بن علىّ :

— يا معاوية فما هؤلاء شتمونى ولكنك شتمتنى فحشًا ألفته ، وسوء رأى عُرفت به ، وخلقًا سيئًا ثبت عليه ، وبغيًا علينا عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن

اسمع يا معاوية واسمعوا ، فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم ، أنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن الذى شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما وأنت يا معاوية بهما كافر تراها ضلالة ، وتعبد اللات والعزى غواية ؟!، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح وبيعة الرضوان ، وأنت يا معاوية بإحداهما كافر ، وبالأخرى ناكث ؟ وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيمانا ، وإنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم تسرون الكفر وتظهرون الإسلام، وتستمالون بالأموال ؟ وأنشدكم الله ألستم تعلمون أنه صاحب راية رسول الله ﷺ وآله يوم بدر ، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ، ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ، ومعه راية رسول الله ﷺ وآله ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفى كل ذلك يفتح الله له ويفلح حجته وينصر دعوته ويصدق حديثه ، ورسول الله ﷺ وآله فى تلك المواطن كلها عنه راض وعليك وعلى أبيك ساخط . وأنشدك الله يا معاوية أتذكر يومًا جاء أبوك على جمل أحمر وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا يقوده فرآكم رسول الله ﷺ وآله فقال : اللهم العن الراكب والقائد والسائق ؟ والله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت . وأنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن عليًا حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله ﷺ وآله فأنزل فيه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ وأن رسول الله ﷺ وآله بعث أكابر أصحابه إلى بنى قريظة فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث عليًا بالراية فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل فى خيبر مثلها ؟ وأنتم أيها الرهط نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله لعن أبا سفيان فى سبعة مواطن لا تستطيعون ردها ، أولها يوم لقى رسول الله ﷺ وآله خارجًا من مكة إلى الطائف يدعو ثقيفًا إلى الدين فوقع به وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده وهم أن يبطش به فلعنه الله ورسوله وصرف عنه ، والثانية يوم العير إذ عرض لها رسول الله ﷺ وآله وهى جائية من الشام فطردها أبو سفيان وساحل بها ولم يظفر المسلمون بها ، ولعنه رسول الله ﷺ وآله ودعا عليه فكانت وقعة بدر لأجلها ، والثالثة يوم أحد حيث

وقف تحت الجبل ورسول الله ﷺ وآله فى أعلاه وهو ينادى اعل هبل مرارًا فلعنه رسول الله ﷺ وآله عشر مرات ولعنه المسلمون ، والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود فلعنه رسول الله وابتهل ، والخامسة يوم جاء أبو سفيان فى قريش فصدوا رسول الله ﷺ وآله عن المسجد الحرام والهدى معكوفًا أن يبلغ محله ، ذلك يوم الحديبية فلعن رسول الله ﷺ وآله أبا سفيان ، والسادسة يوم الجمل الأحمر ، والسابعة يوم وقفوا لرسول الله ﷺ وآله فى العقبة ليستنفروا ناقته ، وكانوا اثنى عشر رجلا منهم أبو سفيان . فهذا لك يا معاوية .

وأما أنت يابن العاص فإن أمرك مشترك ، وضعتك أمك مجهولا من عهر وسفاح ، فتحاكم فيك أربعة من قريش فغلب عليك جزارها ، ألأمهم حسبًا ، وأخبثهم منصبا ، ثم قام أبوك فقال : أنا شانئ محمدا الأبتر، فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله ﷺ وآله فى جميع المشاهد ، وهجوته وآذيته بمكة وكدته كيدك كله ، وكنت من أشد الناس له تكذيبًا وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشى مع أصحاب السفينة لتأتى بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة ، فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائبًا ، وأكذبك واشيًا ، جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشى حسدًا لما ارتكب من حليلته ففضحك الله وفضح صاحبك ، فأنت عدو بنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله ﷺ وآله بسبعين بيتًا من الشعر ، فقال رسول الله ﷺ وآله : « اللهم إنى لا أقول الشعر ولا ينبغى لى ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة » ، فعليك إذًا من الله ما لا يحصى من اللعن . وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعرت عليه الدنيا نارًا ثم لحقت بفلسطين ، فلما أتاك قتله قلت : أنا أبو عبد الله إذانكأت قرحة أدميتها ، ثم حبست نفسك إلى معاوية وبعت دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حيًّا ، ولا غضبت له مقتولا .

وأما أنت يا وليد فوالله ما ألومك على بغض علىّ وقد جلدك ثمانين فى الخمر

وقتل أباك بين يدى رسول الله صبرًا ، وأنت الذى سماه الله الفاسق وسمى عليًّا المؤمن حيث تفاخرتما فقلت له : اسكت يا علىّ فأنا أشجع منك جنانًا وأطول منك لسانا ، فقال لك علىّ : اسكت يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق ، فأنزل الله تعالى فى موافقته قوله : ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقًا لا يستوون ﴾ ثم أنزل فيك على موافقته قوله أيضًا : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ... ﴾ وما أنت وقريش ؟ إنما أنت علج من صفورية ، وأقسم بالله لأنت أكبر فى الميلاد وأسن مما تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خير يُرجى ولا شر يُتقى ، وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء ، وما يضر عليًّا لو سببته على رءوس الأشهاد ، وأما وعيدك إياى بقتلى فهلا قتلت اللحيانى إذ وجدته على فراشك ، أما تستحى من قول نصر بن حجاج فيك :

يا للرجال وحادث الأزمان ولسبة تخزى أبا سفيـــان
نبئت عتبة خانه فى عرسه جنس لئيم الأصل من لحيان

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحد سيفك ولم تقتل فاضحك ! وكيف ألومك على بغض علىّ وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر وشرك حمزة فى قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلة فى مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن تقع فى هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : استمسكى فإنى طائرة عنك ، فقالت النخلة : وهل علمت بك واقعة علىّ فأعلم بك طائرة عنى ! ، والله ما نشعر بعداوتك إيانا ولا اغتممنا إذ علمنا بها ، ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله فى الزنا لثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقًّا الله سائله عنه ، ولقد سألت رسول الله ﷺ وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان ، وأما فخركم علينا بالإمارة فإن الله تعالى يقول : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا ﴾ .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه فانصرف ، فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال :

— يا أمير المؤمنين قد شهدتَ قوله فى قذف أمى بالزنا وأنا مطالب له بحد القذف .

فقال معاوية فى غيظ :

— خل عنه ، لا جزاك الله خيرًا .

فتركه ، وانصرف الحسن وتركهم يحسون كمدًا ، فقال معاوية :

— قد نبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبوه فعصيتمونى ، والله ما قام حتى أظلم علَىّ البيت ، قوموا عنى ، فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم وعدولكم عن رأى الناصح المشفق والله المستعان .

٤٠

ودخل الحسن على معاوية وقد عزم على أن يعود إلى المدينة فألفى معاوية جالسًا فى مجلس ضيق فجلس عند رجليه ، فتحدث معاوية بما شاء أن يتحدث ثم قال :

— عجبًا لعائشة تزعم أنى فى غير ما أنا أهله ، وأن الذى أصبحت ليس لى بحق ، ما لها ولهذا يغفر الله لها ، إنما كان ينازعنى فى هذا الأمر أبو هذا الجالس ، واستأثر الله به .

فقال له الحسن :

— أوَعجب هذا يا معاوية ؟

— إى والله .

— أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟

— ما هو ؟

— جلوسك فى صدر المجلس وأنا عند رجليك .

فضحك معاوية وراوغ على عادته فقال :

— يا ابن أخى بلغنى أن عليك دينًا .

— إن لعلى دينًا .

— كم هو ؟

— مائة ألف .

— أمرنا لك بثلثمائة ألف ، مائة منها لدينك ، ومائة تقسمها فى أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ، فقم مكرمًا فاقبض صلتك .

وخرج الحسن ، ويزيد بن معاوية يحس ضيقًا حتى إذا ما خلا المجلس من الناس قال لأبيه :

— تالله ما رأيت رجلا مثلك ، استقبلك بما استقبلك به ثم أمرت له بثلاثمائة ألف .

— يا بنى إن الحق حقهم فمن أتاك منهم فاحث له .

وخرج الحسن إلى المدينة ، فمر بصبيان يأكلون كسرًا من الخبز ، فاستضافوه فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله وأطعمهم أنواعًا وكساهم وقال :

— اليد لهم إنهم لم يجدوا ما أطعمونى ، ونحن نجد كثيرًا مما أعطيناهم .

وكان قد اشترى حائطًا من قوم من الأنصار بأربعمائة ألف فبلغه أنهم احتاجوا ما فى أيدى الناس ، فرده إليهم .

وسمع رجلا يسأل ربه عشرة آلاف درهم فبعث بها إليه ، فقد كان سخيًا جوادًا حتى إنه خرج عن ماله لله تعالى مرتين ، وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات ، حتى إن كاد ليعطى نعلا ويمسك نعلا .

كان عطاؤه فى كل سنة مائة ألف ، كان يوزعها على الفقراء والمساكين وما كان يدعو إلى طعامه أحدًا فقد كان يقول إن طعامه أهون من أن يدعى إليه أحد ، وحبس عنه معاوية عطاءه فى بعض السنين ، فأحس ضيقًا شديدًا ، فدعا بدواة ليكتب إلى معاوية ليذكره نفسه ، ولكنه أمسك ونام تلك الليلة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فقال :

ـــ كيف أنت يا حسن ؟

ـــ بخير يا أبت .

وشكا إليه تأخر المال عنه ، فقال :

ـــ أدعوت بدواة لتكتب لمخلوق مثلك تذكره ذلك ؟

ـــ نعم يا رسول الله فكيف أصنع ؟

ـــ قل : اللهم اقذف فى قلبى رجاءك ، واقطع رجائى عمن سواك حتى لا أرجو أحدا غيرك .

وما انقضى أسبوع حتى بعث إليه معاوية بعطائه ، فقال الحسن :

ـــ الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، ولا يخيب من دعاه .

وخرج معاوية للحج فمر على المدينة ، ودخل بيت سعد بن أبى وقاص ودعاه للحج معه ، وكان سعد آخر من بقى من رهط الشورى ، فخرج مع معاوية معزّزًا مكرمًا ، ولما بلغا مكة طافا سويًا ، وانتهت مراسم الحج ، فانصرف معاوية إلى دار الندوة وسعد برفقته ، وجلس على سريره وأجلس سعدًا معه عليه ، وأخذا بأطراف الحديث ، فراحا يتذاكران ويذكران ما مضى من أحداث ، وغر معاوية إقبال سعد عليه فوقع فى علىّ وشرع فى سبه ، ثم قال :

ـــ ما يمنعك أن تسب أبا تراب ؟

فبان الغضب فى وجه سعد وقام وقال فى حدة :

ـــ أجلستنى معك على سريرك ثم شرعت فى سب علىّ ، والله لأن يكون فىّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلىّ أحب إلىّ من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس . والله لأن أكون صهرًا لرسول الله ﷺ ، لى من الولد ما لعلىّ ، أحب إلىّ من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال ما قاله يوم خيبر : « لأعطين الراية غدًا رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، ليس بفرار ، يفتح الله على يديه » أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لى ما قال له فى غزوة تبوك :

« ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى من بعدى » أحب إلىّ من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، لا أدخل عليك دارًا بعد هذا اليوم .

ثم نفض سعد رداءه ثم خرج .

* * *

ولقى الحسن حبيب بن مسلمة ، فقال له :

ــ يا حبيب ، رب مسير لك فى غير طاعة الله .

فقال حبيب فى سخرية :

ــ أما مسيرى من أبيك فليس من ذلك .

ــ بلى والله ، ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فلئن قام بك فى دنياك لقد قعد بك فى آخرتك ، ولو كنت إذ فعلت قلت خيرًا كان ذلك كما قال عز وجل : ﴿ خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا ﴾ ولكنك كما قال سبحانه : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

ومرت سنون فنسى معاوية أو تناسى فضل الحسن عليه فبعث إليه بكتاب يتوعده فيه لأمر من الأمور ، ودخل رجل على الحسن وفى يده الصحيفة ، فقال له الرجل :

ــ ما هذه ؟

ــ كتاب معاوية يتوعد فيه .

فقال الرجل معاتبا :

ــ لقد كنت على النصف فما فعلت !

ــ أجل ، ولكنى خشيت أن يأتى يوم القيامة سبعون ألفًا أو ثمانون ألفًا تشخب أوداجهم دمًا كلهم يستعدى الله فيم هريق دمه .

٤١

كانت فكرة استخلاف معاوية ليزيد تراوده ، فهو أحب الناس إليه ، وإنه ليتمنى أن يخلفه ، ولكنه لا يستطيع أن يعلن رغبته ، وأن يكشف أمنيته ، فهناك من يشرئبون للخلافة ، وهناك الحسن بن عليّ الذى صالحه على أن يكون الأمر له من بعده ، وكتم معاوية أمنيته فقد كان يخشى أن يجهر بما يحب حتى لا يؤلب القوم عليه ، فكان يذكر يزيد بالخير كلما واتته فرصة ليحببه إلى الناس،وليهيئه لقبوله خليفة عليهم .

وقدم المغيرة بن شعبة على معاوية ، وكان يعلم هواه فقال له :

ـــ يا أمير المؤمنين قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف ، وفى عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك علمًا يفزعون إليه ، واجعل ذلك يزيد ابنك .

وكأنما المغيرة لا يجيد غير هذا ، فقد أشار على عمر أن يستخلف عبد الله ابنه ، ولكن عمر العظيم غضب وقال له : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، أما معاوية فقد وافق هذا القول هوى فى نفسه ، فوطن العزم على أن يدعو إلى تولية ابنه من بعده . كان يعلم أن الطريق شائكة ، والصعاب كثيرة ، ولكن المتاعب تهون فى سبيل الابن الحبيب .

وفكر معاوية فأمعن التفكير ، فهناك فى الحجاز من يفضلون يزيد ، ومن يطمعون فى الخلافة ، فكيف بهم إذا رفضوا البيعة وشقوا عصا الطاعة ، ورأى معاوية أن يبدأ محاولته فى الشام ، حيث العزة والأهل ، فإذا أخذ البيعة لابنه تفرغ للحجاز وأهله ولن تعييه الحيل ، ولن يقصر دهاؤه عن أن يتفتق عما ينيله رغبته ، ويحقق منيته .

واجتمع عند معاوية وفود الأمصار بدمشق ، نشاء أن يهتبل الفرصة المواتية فدعا أحد أنصاره وقال له :

ـــ إذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتى وكلامى ، فاستأذن فى القيام ، فإذا أذنت لك ، فاحمد الله تعالى واذكر يزيد ، وقل فيه الذى يحق له عليك من حسن الثناء عليه ، ثم ادعنى إلى توليته من بعدى ، فإنى قد رأيت وأجمعت على توليته ، فاسأل الله فى ذلك وفى غيره الخيرة وحسن القضاء .

ودعا معاوية آخرين فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ صاحبه وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد . واعتلى معاوية المنبر ، وفرغ من بعض موعظته ، فقام الرجل فاستأذن فى الكلام ، فأذن له ، فجعل يعدد فضائل يزيد ثم التمس من أمير المؤمنين أن يعزم على مبايعته ، ولا يضيق به ذرعًا ، فالله يجمع به الشمل ، ويعظم به االأجر ، ويحسن به الذخر ، ثم جلس . فقام آخر ثم آخر ، فلما انتهى أعوان معاوية انشرح صدره ، فقد قالوا وأحسنوا . فقال معاوية :

ـــ أوَكلكم قد أجمع على هذا رأيه ؟

ـــ كلنا قد أجمع رأيه على ما ذكرنا .

ـــ فأين الأحنف ؟

كأنما شاء أن يسمع رأى أهل العراق ، فأجابه الأحنف فقال معاوية :

ـــ ألا تتكلم ؟

فقام الأحنف فحمد الله فأثنى عليه ثم قال :

ـــ أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا فى منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتنف ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نعم الخلف . وقد حلبت الدهر أشطره ، يا أمير المؤمنين فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثم اعص أمر من يأمرك ، لا يغررك من يشير عليك ولا ينظر لك . وأنت أنظر للجماعة وأعلم باستقامة الطاعة مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ما كان الحسن حيًّا .

فغضب الضحاك بن قيس ، فقد كان أول من دسه معاوية ليدعوه لتولية يزيد ، فقام الثانية ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ــ أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النفاق من أهل العراق مروءتهم فى أنفسهم الشقاق ، وألفتهم فى دينهم الفراق ، يرون الحق على أهوائهم كأنما ينظرون بأقفائهم ، اختالوا جهلا وبطرًا لا يرقبون من الله راقبة ، ولا يخافون وبال عاقبة ، اتخذوا إبليس لهم ربا ، واتخذهم إبليس حزبا ، فمن يقاربوه لا يسروه ، ومن يفارقوه لا يضروه ، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين فى نحورهم ، وكلامهم فى صدورهم ، ما للحسن وذوى الحسن فى سلطان الله الذى استخلف به معاوية فى أرضه ، هيهات لا تورث الخلافة عن كلالة ، ولا يحجب غير الذكر العصبة ، فوطنوا أنفسكم يا أهل العراق على المناصحة لإمامكم ، وكاتب نبيكم وصهره يسلم لكم العاجل وتربحوا من الآجل .

ثم قام الأحنف فقال :

ــ يا أمير المؤمنين ، إنا قد فررنا عنك قريش فوجدناك أكرمها زندا ، وأشدها عقدا ، وأوفاها عهدا . وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة ، ولم تظهر عليها قعصا ، ولكنك أعطيت الحسن بن علىّ من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء ، وإن تغدر تعلم والله أن وراء الحسن خيولا جيادا وأذرعا شدادا وسيوفا حدادا . إن تدن له شبرا من غدر تجد وراءه باعا من نصر . وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا عليًّا وحسنا منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم فى ذلك غير من السماء ، وأن السيوف التى شهروها عليك مع علىّ يوم صفين لعلى عواتقهم ، والقلوب التى أبغضوك بها لبين جوانحهم ، وأيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علىّ .

ثم قام عبد الله بن عثمان الثقفى فقال :

ــ أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلف ، وكثير منهم منحرف لا يدعون أحدا إلى رشاد ، ولا يجيبون داعيا إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ،

مخالفون لهم السنة والقضاء ، وقفت ليزيد فى أحسن القضية ، وأرضاها لجمل الرعية ، فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حلما وعلما ، وأوسعنا كنفا ، وخيرنا سلفا ، قد أحكمته التجارب ، وقصدت سبل المذاهب ، فلا يصرفنك عن بيعته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ، ممن هو شاسع عاص ، ينوص للفتنة كل مناص ، لسانه ملتو ، وفى صدره داء دوى ، إن قال فشر قائل ، وإن سكت فداء غائل ، قد عرفت من هم أولئك ، وما هم عليه لك من المجانبة للتوفيق ، والكلف للتفريق ، فاجل ببيعته عنا الغمة ، واجمع به شمل الأمة ، فلا تخدعنه إذا هديت له ، ولا تنبش عنه إذا وفقت له ، فإن ذلك الرأى لنا ولك ، والحق علينا وعليك ، أسأل الله العون وحسن العافية لنا ولك بمنه .

فقام معاوية فقال :

ـــ أيها الناس ، إن لإبليس من الناس إخوانا وخلانا ، بهم يستعد وإياهم يستعين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعا أوجفوا ، وإن استغنى عنهم أرجفوا ، ثم يلحقون الفتن بالفجور ، ويشققون لها حطب النفاق ، عيابون مرتابون ، إن لووا عروة أمر حنقوا ، وإن دعوا إلى غى أسرفوا ، وليسوا أولئك بمنتهين ، ولا بمقلعين ولا متعظين ، حتى تصيبهم صواعق خزى وبيل ، وتحل بهم قوارع أمر جليل ، تجتث أصولهم كاجتثاث أصول الفقع ، فأولى لأولئك ثم أولى ، فإنا قد قدمنا وأنذرنا إن أغنى التقدم شيئا أو نفع النذر .

ثم قام أبو حنيف فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، إنا لا نطيق ألسنة مضر وخطبها ، أنت أمير المؤمنين فإن هلكت فيزيد بعدك ، فمن أبى فهذا .

وسل سيفه ، فقال معاوية :

ـــ أنت أخطب القوم وأكرمهم .

وقام الأحنف بن قيس فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين أنت أعلمنا بليله ونهاره ، وبسره وعلانيته ، فإن كنت تعلم

أنه خير لك فَوَلِّه واستخلفه ،وإن كنت تعلم أنه شر لك ، فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب . واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

وكتب معاوية إلى زياد يستشيره ، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب ، فقال له :

— إن لكل مستشير ثقة ، ولكل سر مستودع ، وإن الناس قد أبدعت بهم خصلتان : إذاعة السر ، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها ، وليس موضع السر إلا أحد رجلين ، رجل آخرة يرجو ثوابا ، ورجل دنيا له شرف فى نفسه ، وعقل يصون حسبه . وقد عجمتهما منك فأحمدت الذى قبلك ، وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف : إن أمير المؤمنين كتب إلىّ يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد ، وهو يتخوف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم ويستشيرنى ، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم ، ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد ، فالق أمير المؤمنين مؤديا عنى فأخبره عن فعلات يزيد .

— رويدك بالأمر فأقمن أن يتم لك ما تريد ، ولا تعجل فإن دركا فى تأخير ، خير من تعجيل عاقبته الفوت . أفلا غير هذا ؟

— ما هو ؟

— لا تفسد على معاوية رأيه ، ولا تمقت إليه ابنه ، وألقى أنا يزيد سرا من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك فى بيعته ، وأنك تخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وإنك ترى له ترك ما ينقم عليه فيستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس ، ويسهل لك ما تريد ، فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين ، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة .

— قد رميت الأمر بحجره ، اشخص على بركة الله ، فإن أصبت فمالا ينكر ، وإن يكن خطأ فغير مستغش ، وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ .

وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة وألا يعجل ، فقبل ذلك منه ، وتريث

مدة ، ولكن الفكرة كانت تلح عليه ، فرأى أن ينطلق إلى المدينة ليفاوض هؤلاء النفر الذين يأبون المبايعة ليزيد ، ليتوعدهم مرة ، ويمنيهم مرارا ، لعله يستطيع أن يطويهم بدهائه أو يشتريهم بماله ، وقدم المدينة فخرج الناس لاستقبال أمير المؤمنين ، فبش لهم وهش ، وجعل يتملقهم لعله يكسبهم إلى جانبه فى معركة الخلافة القادمة .

ودخل منزله ، ولم يضيع كثير وقت ، فقد كانت رغبة استطلاع رأى هؤلاء النفر تقلقه ، فبعث إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فلما اكتمل عقدهم أمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، والتفت إليهم وقال :

ــ الحمد لله الذى أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيرا كما أنعم علينا كثيرا ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أما بعد : فإنى قد كبرت سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أُدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أخلف عليهم بعدى يزيد ، ورأيته لكم رضا ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسنا وحسينا إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيى فيهما ، وشديد محبتى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيرًا يرحمكم الله .

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

ــ الحمد لله الذى ألهمنا أن نحمده ، وأوجب عينا الشكر على آلائه وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله وصلى الله على محمد وآل محمد ، أما بعد فإنك قد تكلمت فأنصتنا وقلت فسمعنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، اختار محمدًا ﷺ لرسالته ، واختاره لوحيه وشرفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أحقهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمدًا بعلمه وهو العليم الخبير ، أستغفر الله لى ولكم .

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

ـــ الحمد لله أهل الحمد ومنتهاه ، نحمده على إلهامنا حمده ، ونرغب إليه فى تأدية حقه ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله واحدًا صمدًا ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، ﷺ . أما بعد ، فإن هذه الخلافة إن أُخذ فيها بالقرآن فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، وإن أُخذ فيها بسنة الشيخين أبى بكر وعمر ، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟ وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه وصدقه ولأطيع الله وعصى الشيطان وما اختلف فى الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية فإنك قد صرت راعيًا ونحن رعية ، فانظر لرعيتك إنك مسئول عنها غدا . وأما ما ذكرت من ابنىْ عمى وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم ، فقل أو دع ، وأستغفر الله لى ولكم .

فقام ابن الزبير فقال :

ـــ الحمد لله الذى عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمده على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أما بعد ، فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ ، وعلىّ خلف حسنا وحسينا وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك .

وقام عبد الله بن عمر فقال :

ـــ أما بعد ، فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبى ، فوالله ما أدخلنى مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطا مشروطا ، وإنما هى فى قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى ، فإن

كنت تريد الفتيان من قريش ، فلعمرى إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يغنى عنك من الله شيئًا .

فنظر معاوية إليهم وقال :

ــ قد قلت وقلتم ، وإنه ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى أحب إلىّ من أبنائهم ، وإنما كان هذا الأمر لبنى عبد مناف لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله ﷺ ، ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بنى عبد مناف فلا يزيل فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يابن الزبير ، وأنت يابن عمر منها ، فأما ابنا عمّى هذان فليسا بخارجين من الرأى إن شاء الله .

وخرج معاوية إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، ولم يكن سكوته اقتناعه بأن هناك من هو أحق بها من يزيد ، بل كان يفكر ويدبر ، إن الحسن بن على حجر عثرة فى سبيل تولية يزيد ، وإن يزيد أحب إليه من العالمين ، فلو أن الحسن قُضى لأصبح الأمر هينا ، فراح يفكر فى وسيلة يتخلص بها من الحسن .

٤٢

عشر سنوات تقضت بعد استتباب الأمر لمعاوية ، فنال ما يشتهى ولم يبق له إلا أمنية واحدة ، كان يرجو أن يبايع الناس ليزيد فيقر بذلك عينا ، ولكن بقاء الحسن حيًّا يجعل تحقيق هذه الأمنية عسيرًا ، وأخذ يقدح زناد فكره فسقط على فكرة وضيعة ، فلم تثنه وضاعتها عن تنفيذها ، فما كان ممن يحفلون كثيرًا بالوسائل ، إنه يبغى غاية وينطلق إلى هدف ، فكان كل همه أن يحقق الغاية وأن يبلغ الهدف سواء سار على الصراط أو تنكب الطريق .

وجعل يستعرض زواج الحسن فوجد فى جعدة بنت الأشعث طلبته ، فأبوها الأشعث بن قيس كان ممن أرغم الإمام على قبول التحكيم ، وإنه ليطمع فى أن يجد فى

الابنة عونا كما وجد فى الأب عونا .

ودس إليها معاوية : إنك إن احتلت فى قتل الحسن وجهت إليك بمائة ألف درهم ، وزوجتك يزيد . وراحت جعدة توازن بين ما يعرضه عليها معاوية وبين بقائها فى كنف الحسن ، فرأت أن الحسن كثير التزوج ، وأنه مطلاق مصداق ، فمن يدرى فقد يطلقها غدًا ويبعث إليها بعشرة آلاف وبزقاق من عسل كما فعل مع من طلق .

وطفق عرض معاوية يتخايل لها ، وجعل شيطانها يوسوس لها ، فدست السم لزوجها الآمن ، وراحت تجرعه السم كل يوم ، فمرض ، فكتب عامل المدينة إلى معاوية يخبره بشكاية الحسن ، فكتب إليه معاوية : إن استطعت أن لا يمضى يوم بى يمر إلا يأتينى فيه خبره فافعل .

واشتد مرض الحسن ، فدخل رجل عليه يعوده ، فالتفت إليه الحسن فقال :

— سلنى .

— والله لا أسألك حتى يعافيك الله وأسألك .

— لقد ألقيت طائفة من كبدى ، وإنى سقيت السم مرارًا فلم أسقه مثل هذه المرة .

وجعل الحسن يذبل ، ودخل الحسين وجلس عند رأسه وقال :

— من تتهم يا أخى ؟

— لم ؟ لأن تقتله ؟

— نعم .

— إن يكن الذى أظنه فالله أشد بأسا وأشد تنكيلا ، وإن لم يكن هو فما أحب أن يُقتل بى برىء .

واشتد بالحسن الوجع فجزع فقال له الحسين :

— يا أبا محمد ، ما هذا الجزع ؟ ما هو إلا أن تفارق روحك جسدك فتقدم على أبويك علىّ وفاطمة ، وعلى جديك النبى ﷺ وخديجة . وعلى أعمامك حمزة

وجعفر ، وعلى أخوالك القاسم والطيب ومطهر وإبراهيم . وعلى خالاتك رقيَّة وأم كلثوم .

— يا أخى إنى أدخل فى أمر من أمر الله لم أدخل فى مثله ، وأرى خلقا من خلق الله لم أر مثله قط .

فغامت عينا الحسين بالدموع ، ثم سالت عبراته ، والتفت الحسن إليه وقال :

— أخرجونى إلى الصحن أنظر فى ملكوت السماء .

فأخرجوا فراشه ، فرفع رأسه فنظر فقال :

— اللهم إنى أحتسب نفسى عندك فإنها أعز الأنفس علَىّ .

وبعث الحسن يستأذن عائشة فى أن يدفن مع رسول الله ، فأذنت له .

فقال للحسين :

— ادفنونى عند قبر رسول الله ﷺ إلا أن تخافوا أن يكون فى ذلك شر .

ووهنت قوى الحسن ، وحضرت فى مخيلته صورة معاوية فغمغم :

— لقد حاقت شربته ، وبلغ أمنيته ، والله ما وفى بما وعد ، ولا صدق فيما قال .

ومال الحسين عليه فسمعه يهمس :

— يا أخى قد حضرت وفاتى ، وحان فراقى لك ، وإنى لاحق بربى ، وأجد كبدى تقطع ، وإنى عارف من أين ذهبت ، وأنا أخاصمه إلى الله تعالى .

وجاد الحسن داعية السلام بروحه الذكية ، فهرع أبو هريرة وهو يبكى إلى مسجد رسول الله وصاح بأعلى صوته :

— يأيها الناس ، مات اليوم حِبّ رسول الله فابكوا .

وجُهز الحسن ، وأراد الحسين أن يقبره بجوار جده ، فقال مروان :

— يدفن عثمان فى حش كوكب ويدفن الحسن فى الحجرة .

فلبس الحسين السلاح واجتمع بنو هاشم وبنو أمية ، وأعان هؤلاء قوم وهؤلاء قوم ، وتأهب الفريقان للقتال ، وجاء أبو هريرة مروان فقال له :

— أتمنع الحسن أن يدفن فى هذا الموضع وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » ؟ .

فقال مروان :

— دعنا منك ، لقد ضاع حديث رسول الله إذ كان لا يحفظه غيرك وغير أبى سعيد الخدرى ، وإنما أسلمت أيام خيبر .

— صدقت ، أسلمت أيام خيبر ، ولكننى لزمت رسول الله ﷺ ولم أكن أفارقه ، وكنت أسأله وعنيت بذلك حتى علمت من أحب ومن أبغض ، ومن قرب ومن أبعد ، ومن أقر ومن نفى ، ومن لعن ومن دعا له .

ورأت عائشة السلاح والرجال فخافت أن يعظم الشر بينهم وتسفك الدماء فبعثت إليهم :

— البيت بيتى ولا آذن لأحد أن يُدفن فيه .

وأبى الحسين إلا أن يدفنه مع جده ، فجاء سعد بن أبى وقّاص وأبو هريرة وجابر وقالوا له :

— يا أبا عبد الله ، اتق الله ولا تثر فتنة ، فإن أخاك كان لا يحب ما ترى ، فادفنه فى البقيع مع أمه .

وقال محمد بن الحنفية :

— يا أخى ، إنه لو كان أوصى أن ندفنه لدفناه أو نموت قبل ذلك ، ولكنه قد استثنى وقال : إلا أن تخافوا الشر ، فأى شر يرى أشد مما نحن فيه ؟!

وقبل الحسين أن يدفن فى البقيع ، فأخرجوا جنازته ، فحمل مروان سريره ، فقال له الحسين :

— تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرعه الغيظ !!

— نعم كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمهُ الجبال .

وقُبر الحسن بالبقيع ، وانتظر مروان عدو بنى هاشم أن يُرضى ذلك معاوية ، فإنه ما فعل ذلك إلا إرضاء له فقد كان يومئذ معزولا .

ووقف محمد بن الحنفية على قبر أخيه فقال :

— لئن عزت حياتك ، لقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمن بدنك ، وكيف لا تكون هكذا وأنت عقبة الهدى وخلف أهل التقوى وخامس أصحاب الكساء ، غذتك بالتقوى أكف الحق ، وأرضعتك ثدى الإيمان ، وربيت فى حجر الإسلام ، فطبت حيًّا وميتًا ، وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك ، رحمك الله أبا محمد .

* * *

كبَّر معاوية فى الخضراء ، فكبَّر أهل الخضراء ، ثم كبَّر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت زوجة معاوية من خوخة لها فقالت :

— سرك الله يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذى بلغك فسررت به ؟

— موت الحسن بن علىّ .

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بكت وقالت :

— مات سيد المسلمين ، وابن بنت رسول الله ﷺ .

وبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية :

— يابن عباس ، هلك الحسن بن على .

— نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أصبنا به ولقد أصبنا بمن كان خيرًا منه ؛ جده رسول الله ﷺ ، فجبر الله مصيبته وخلف الله من بعده أحسن الخلافة .

ثم شهق ابن عباس وبكى ، وبكى من حضر فى المجلس ، وبكى معاوية ثم قال :

— بلغنى أنه ترك بنين صغارا .

— كلنا كان صغيرًا فكبر .

— كم أتى له من العمر ؟

— أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده .

فسكت معاوية يسيرًا ثم قال :

— يابن عباس ، أصبحت سيد قومك من بعده .

— أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا .

— لله أبوك يابن عباس ، ما استنبأتك إلا وجدتك معدا .

وبعثت جعدة إلى معاوية تلتمس منه الوفاء بما وعدها به ، فوفى لها بالمال وأرسل إليها :

— إنا نحب حياة يزيد ، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه .

٤٣

مات الحسن ، فقويت فى نفس معاوية فكرة استخلاف يزيد ، ورأى أنه لو طوى الهاشميين لكان الأمر أسلس ، ففكر وأمعن فى التفكير فاهتدى إلى أنه لو زوج ابنه منهم لضمهم إليه ، ولقضى بالمصاهرة على أحقاد السنين ، فكتب إلى مروان ابن الحكم وهو والى المدينة : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين أحب أن يرد الألفة ويسل السخيمة ويصل الرحم ، فإذا وصل إليك كتابى ، فاخطب إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على يزيد بن أمير المؤمنين ، وأرغب له فى الصداق » .

كان معاوية يبغى من ذلك أن يرضى عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس والحسين بن على فأم كلثوم ابنة زينب بنت علىّ، فلو ارتبطت بينه وبين حفيدة الإمام الأسباب ، لرضى رؤساء بنى هاشم ، ونامت الفتن ، واستلت الأحقاد .

وذهب مروان إلى عبد الله بن جعفر فقرأ عليه كتاب معاوية ، وأعلمه بما فى رد الألفة من صلاح ذات البين ، واجتماع الدعوة ، فقال عبد الله :

— إن خالها الحسين بينبع وليس ممن يفتات عليه بأمر ، فأنظرنى إلى أن يقدم .

وقدم الحسين فذكر له ذلك عبد الله بن جعفر ، فقام من عنده فدخل إلى

أم كلثوم ، فقال :

ـــ يا بنية ، إن ابن عمك القاسم بن محمد بن جعفر أحق بك .

وحضر مروان فذكر معاوية ، وما قصده من صلة الرحم وجمع الكلمة ، فتكلم الحسين فزوجها من القاسم ، فما كان يقبل يزيد للناس ، أفيقبله لابنة زينب ؟!

فغضب مروان وقال فى ثورة :

ـــ أغدرًا يا حسين ؟

ـــ أنت بدأت ، خطب أبو محمد الحسن بن علىّ عليه السلام عائشة بنت عثمان ابن عفان واجتمعا لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها من عبد الله بن الزبير .

ـــ ما كان ذلك .

فالتفت الحسين إلى محمد بن حاطب ، فقال :

ـــ أنشدك الله أكان ذاك ؟

ـــ اللهم نعم .

وغضب معاوية لرفض الحسين هذه الزيجة ، فأراد أن يمحو ما حاق به من فشل فبايع ليزيد بالشام ، وكتب بيعته إلى الآفاق ، وكتب إلى مروان يأمره بجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبى من ذلك وأبته قريش ، فقد كان مروان يطمع فيها لنفسه ، فكتب لمعاوية :

« إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك فأرنى رأيك » .

فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ويخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص ، وكتب إلى سعيد يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ويكتب إليه بمن سارع ممن لم يسارع . فلما أتى سعيد بن العاص الكتاب دعا الناس إلى البيعة ليزيد ، وأظهر الغلظة وأخذهم بالعزم والشدة وسطا بكل من أبطأ عن ذلك ، فأبطأ الناس منها إلا اليسير ، لا سيما بنى هاشم فإنه لم يجبه منهم أحد ، فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية : « أما بعد ، فإنك أمرتنى أن أدعو الناس لبيعة يزيد بن أمير المؤمنين ، وأن

كتب إليك بمن سارع ممن أبطأ ، وإنى أخبرك أن الناس عن ذلك بطاء لا سيما أهل البيت من بنى هاشم فإنه لم يجبنى منهم أحد ، وبلغنى عنهم ما أكره ، وأما الذى جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ، ولست أقوى عليهم إلا بالخيل والرجال ، أو تقدم بنفسك فترى رأيك فى ذلك والسلام » .

فكتب معاوية إليه : « أما بعد فقد أتانى كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من إبطاء الناس عن البيعة ولا سيما بنى هاشم وما ذكر ابن الزبير ، وقد كتبت إلى رؤسائهم كتبًا فسلمها إليهم وتنجز جواباتها ، وابعث بها إلىّ حتى أرى فى ذلك رأيى ، ولتشد عزيمتك ، ولتصلب شكيمتك ، وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق وإياك والخرق فإن الرفق رشد ، والخرق نكد ، وانظر حسينًا خاصة فلا يناله منك مكروه ؛ فإن له قرابة وحقًا عظيما ، لا ينكره مسلم ولا مسلمة ، وهو ليث عرين ولست آمنك إن شاورته أن لا تقوى عليه، فأما من يرد مع السباع إذا وردت، ويكنس إذا كنست ، فذلك عبد الله بن الزبير فاحذره أشد الحذر ولا قوة إلا بالله ، وأنا قادم عليك والسلام » .

وسلم سعيد كتب معاوية إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر والحسين بن على، وكتب إلى ابن عباس : « أما بعد فقد بلغنى إبطاؤك عن البيعة ليزيد بن أمير المؤمنين ، وإنى لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إلىّ لأنك ممن ألب عليه وأجلب ، وما معك من أمان فتطمئن به ، ولا عهد فتسكن إليه ، فإذا أتاك كتابى هذا فاخرج إلى المسجد والعن قتلة عثمان وبايع عاملى ، فقد أعذر من أنذر ، وأنت بنفسك أبصر والسلام » .

فأجابه عبد الله بن عباس فكتب إليه : « أما بعد ، فقد جاءنى كتابك وفهمت ما ذكرت ، وأن ليس علىّ منك أمان ، وأنه والله ما منك يُطلب الأمان يا معاوية ، وإنما يُطلب الأمان من الله رب العالمين . أما قولك فى قتلى فوالله لو فعلت للقيت الله ومحمد ﷺ خصمك ، فما إخاله أفلح ولا أنجح من كان رسول الله خصمه . وأما ما ذكرت من أنى ممن ألب فى عثمان وأجلب ، فذلك أمر غبت عنه ولو حضرته

ما نسبت إلىّ شيئا من التأليب عليه ، وأيم الله ما أرى أحدًا غضب لعثمان غضبى ، ولا أعظم أحد قتله إعظامى ، ولو شهدته لنصرته أو أموت دونه ، ولقد قلت وتمنيت يوم قتل عثمان ليت الذى قتل عثمان لقينى فقتلنى معه ولا أبقى بعده . وأما قولك لى : العن قتلة عثمان ، فلعثمان ولد وخاصة وقرابة هم أحق بلعنهم منى ، فإن شاءوا أن يلعنوا فليلعنوا وإن شاءوا أن يمسكوا فليمسكوا والسلام » .

وكتب إلى عبد الله بن جعفر : « أما بعد فقد عرفت أثرتى إياك على من سواك ، وحسن رأيى فيك وفى أهل بيتك ، وقد أتانى عنك ما أكره ، فإن بايعت تُشكر وإن تأب تجبر والسلام » .

وكتب إلى الحسين : « أما بعد ، فقد انتهت إلىّ منك أمور لم أكن أظنك بها رغبة عنها ، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعته من كان مثلك فى خطرك وشرفك ومنزلتك التى أنزلك الله بها ، فلا تنازع إلى قطيعتك ، واتق الله ولا تردن هذه الأمة فى فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد ، ولا يستخفك الذين لا يوقنون » .

فكتب إليه الحسين عليه السلام : « أما بعد ! فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عنى أمور ، ولم تكن تظننى بها رغبة بى عنها ، وإن الحسنات لا يهدى لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى . وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عنى فإنما رقاه الملاقون المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الجمع . وكذب الغاوون المارقون ، ما أردت حربًا ولا خلافًا ، وإنى لأخشى الله فى ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين المحلين ، حزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم ، ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فقتلتهم ظلمًا وعدوانًا من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكدة ، جراءة على الله واستخفافا بعهده ؟ أوَلست بقاتل عمرو بن الحمق الذى أخلقت وأبلت وجهه العبادة فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود لو فهمته العصم نزلت من سقف الجبال ؟ أوَلست المدعى زيادًا فى الإسلام ، فزعمت أنه ابن أبى سفيان ، وقد قضى

رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم على جذوع النخل ؟ سبحان الله يا معاوية لكأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك . أوَلست قاتل الحضرمى الذى كتب إليك فيه زياد أنه على دين علىّ كرم الله وجهه ، ودين علىّ هو دين ابن عمه ﷺ الذى أجلسك مجلسك الذى أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فوضعها الله عنكم بنا منة عليكم . وقلت فيما قلت لا ترد هذه الأمة فى فتنة ، وإنى لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها ، وقلت فيما قلت انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإنى والله ما أعرف أفضل من جهادك ، فإن أفعل فإنه قربة إلى ربى ، وإن لم أفعله فأستغفر الله لدينى وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى . وقلت فيما قلت متى تكدنى أكدك ، فكدنى يا معاوية فيما بدا لك ، فلعمرى لقديمًا يُكاد الصالحون ، وإنى لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ، ولا تمحق إلا عملك ، فكدنى ما بدا لك ، واتق الله يا معاوية ، واعلم أن لله كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، واعلم أن الله ليس بناس لك قتلك بالظنة ، وأخذك بالتهمة ، وإمارتك صبيًا يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ، ما أراك إلا وقد أبقت نفسك ، وأهلكت دينك ، وأضعت الرعية . والسلام » .

ثار الحسين للحق وفى الحق ، فلم يشرئب بعنقه إلى الخلافة ، ولم يطالب بها ، ولكنه رأى منكرًا فعزم على أن يقوِّمه حتى يستقيم أمر المسلمين ، وبدا كأنه بدأ فى تنفيذ وصية أبيه العظيم بأن يكون للظالم خصما ، وللمظلوم ناصرا ، وأن يعمل بما فى الكتاب ، لا تأخذه فى الله لومة لائم .

* * *

وكتب معاوية إلى سعيد بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذًا بغلظة وشدة ، ولا يدع أحدًا من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا ، وأمره أن لا يحرك هؤلاء النفر ولا يهيجهم .

وأخذ سعيد بن العاص يدعو ليزيد ويحاول أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة أعنف ما يكون من الأخذ وأغلظه ، فلم يبايعه أحد ، فكتب إلى معاوية : « إنه لم يبايعنى أحد ، وإنما الناس تبع لهؤلاء النفر ، فلو بايعوك بايعك الناس جميعًا ، ولم يتخلف عنك أحد » .

ورأى معاوية أن ينطلق إلى المدينة ليقابل هؤلاء النفر ، فقدمها حاجا ، فلما أن دنا منها خرج إليه الناس يتلقونه ما بين راكب وماش ، فلما رأى الناس تهللت أساريره وقال متملقا :

— أهل المدينة ؟، ما زلت أطوى الحزن من وعثاء السفر بالحب لمطالعتكم حتى انطوى البعيد ، ولان الخشن ، وحق لجار رسول الله أن يُتاق إليه .

فرد عليه القوم :

— بنفسك ودارك ومهاجرك ، أما إن لك منهم كإشفاق الحميم البر والحفى .

وسار حتى إذا كان بالجرف لقيه الحسين وعبد الله بن عباس ، فقال معاوية :

— مرحبًا بابن بنت رسول الله وابن صنو أبيه .

ثم انحرف إلى الناس فقال :

— هذان شيخا بنى عبد مناف .

وأقبل عليهما بوجهه وحديثه ، فرحب وقرب ، وجعل يواجه هذا مرة ويضاحك هذا أخرى حتى ورد المدينة ، فلما خالطها لقيته المشاة والنساء والصبيان يسلمون عليه ويسايرونه إلى أن نزل ، فسال الحسين إلى منزله ، ومضى عبد الله بن عباس إلى المسجد فدخله .

أقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن عليها ، فأذنت له وحده ، لم يدخل عليها معه أحد ، وعندها مولاها ذكوان ، فقالت عائشة :

— يا معاوية أكنت تأمن أن أقعد لك رجلا فأقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبى بكر ؟

ـــ ما كنت تفعلين ذلك .

ـــ لِمَ ؟

ـــ لأنى فى بيت آمن ، بيت رسول الله .

وحمدت الله عائشة وأثنت عليه وذكرت رسول الله ﷺ ، وذكرت أبا بكر وعمر وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما ثم صمتت ، فلم يخطب معاوية وخاف أن لا يبلغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالا :

ـــ أنت يا أم المؤمنين العالمة بالله ورسوله ، دللتنا على الحق ، وحضضتنا على حظ أنفسنا ، وأنت أهل لأن يُطاع أمرك ويُسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكد الناس بيعتهم فى أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم ، أفترى أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم ؟!

فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى على أمره ، فقالت :

ـــ أما ما ذكرت من عهود ومواثيق فاتق الله فى هؤلاء الرهط ولا تعجل فيهم ، فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت .

وهم معاوية بالقيام فقالت له :

ـــ يا معاوية ، قتلت حجرًا وأصحابه العابدين المجتهدين .

ـــ دعى هذا ، كيف أنا فى الذى بينى وبينك وفى حوائجك ؟

ـــ صالح .

ـــ فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا .

ثم خرج ومعه ذكوان ، فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشى ويقول :

ـــ تالله إن رأيت اليوم قط خطيبًا أبلغ من عائشة بعد رسول الله .

ثم مضى حتى أتى منزله ، فأرسل إلى الحسين بن علىّ فخلا به ، ثم أرسل بعده إلى ابن الزبير فخلا به ، ثم إلى ابن عمر ، ثم إلى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وبقى معاوية يومه ذلك يعطى الخواص ، فلما كان صبيحة اليوم الثانى أمر بفراش فوضع له ، وسويت مقاعد الخاصة حوله وتلقاه من أهله ، ثم خرج وعليه حلة يمانية

وعمامة دكناء وقد أسبل طرفها بين كتفيه وقد تغلف وتعطر فقعد على سريره ، وأجلس كتَّابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس وإن قرب .

وأرسل إلى الحسين وابن عباس ، فسبق ابن عباس ، فلما دخل وسلم عليه أقعده فى الفراش على يساره ، فحادثه مليًا ثم قال :

— يابن عباس ، لقد وفر الله حظكم من مجاورة هذا القبر الشريف ودار الرسول عليه السلام .

— نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، وحظنا من القناعة بالبعض والتجافى عن الكل أوفر .

وجعل الرجلان يتحاوران حتى أقبل الحسين ، فلما رآه معاوية جمع له وسادة كانت على يمينه ، فدخل الحسين وسلم ، فأشار إليه فأجلسه عن يمينه مكان الوسادة ، فسأله معاوية عن حال بنى أخيه الحسن فأخبره ، ثم ابتدأ معاوية فقال :

— أما بعد ، فالحمد لله ولىّ النعم ومنزل النقم ، أشهد أن لا إلـه إلا الله المتعالى عما يقول الملحدون علوًا كبيرًا ،وأن محمدا عبده المختص المبعوث إلى الجن والإنس كافة لينذرهم بقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فأدى عن الله ، وصدع بأمره وصبر عن الأذى فى جنبه ، حتى أوضح دين الله وأعز أولياءه ، وقمع المشركين وظهر أمر الله وهم كارهون ، فمضى صلوات الله عليه وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سخر له ، زهادة واختيارا لله ، وأنفة واقتدارا على الصبر ، بغيا لما يدوم ويبقى ، فهذه صفة الرسول ﷺ ، ثم خلفه رجلان محفوظان وثالث مشكوك ، وبين ذلك خوض طال ما عالجناه مشاهدة ومكافحة ومعاينة وسماعا ، وما أعلم منه فوق ما تعلمان ، وقد كان من أمر يزيد ما سبقتما إليه ، وقد علم الله ما أحاول به من أمر الرعية من سد الخلل ولم الصدع بولاية يزيد ، بما أيقظ العين وأحمد الفعل ، هذا معناى فى يزيد ، وفيكما فضل القرابة وحظوة العلم وكمال المروءة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد

على المناظرة والمقابلة ، ما أعيانى مثله عندكما وعند غيركما من علمه بالسنة ، وقراءة القرآن ، والحلم الذى يرجح بالصم الصلاب ، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة قدم على الصديق والفاروق من دونهما من أكابر الصحابة وأوائل المهاجرين يوم غزوة السلاسل ، ومن لم يقارب القوم ولم يعاندهم برتبة فى قرابة موصولة ، ولا سنة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره وجمع بهم صلاتهم وحفظ عليهم فيئهم ، وقال ولم يقل معه ، وفى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فمهلا بنى عبد المطلب ، فأنا وأنتم شعبا نفع وجد ، وما زلت أرجو الإنصاف فى اجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بفضل قولكما ، فردا على ذى رحم مستعتب ما يحمد به البصيرة فى عتابكما ، وأستغفر الله لى ولكما .

فتيسر ابن عباس للكلام ، ونصب يده للمخاطبة ، فأشار إليه الحسين وقال :

ـــ على رسلك ، فأنا المراد ونصيبى فى التهمة أوفر .

فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين ، فحمد الله وصلى على الرسول ثم قال :

ـــ أما بعد يا معاوية فلن يؤدى القائل وإن أطنب فى صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع جزءاً ، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتنكب عن استبلاغ البيعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ، فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السرج ، ولقد فضلت حتى أفرطت ، واستأثرت حتى أجحفت ، ومنعت حتى بخلت ، وجرت حتى جاوزت ، مابذلت لذى حق من أتم حقه بنصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل ، وفهمت ماذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد ، تريد أن توهم الناس فى يزيد كأنك تصف محجوبا ، أو تنعت غائباً ، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص ، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش ، والحمام السبق لأترابهن ، والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهى تجده ناصرا ودع عنك ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله ما برحت تقدح

باطلا فى جور ، وحنقًا فى ظلم ، حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلا غمضة ، فتقدم على عمل محفوظ فى يوم مشهود ، ولات حين مناص .

ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر ومنعتنا عن آبائنا تراثا ، ولقد لعمر الله أرثنا الرسول عليه السلام ولادة ، وجئت لنا بها ما حججتم به القائم عند موت الرسول ، فأذعن للحجة بذلك ورده الإيمان إلى النصف ، فركبتم الأعاليل ، وفعلتم الأفاعيل ، وقلتم كان ويكون حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك ، فهناك فاعتبروا يا أولى الأبصار

وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله ﷺ وتأميره له ،وقد كان ذاك ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وبيعته له وما صار لعمرو يومئذ حتى أنف القوم إمرته وكرهوا تقديمه وعدوا عليه أفعاله ، فقال ﷺ : « لا جرم معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيرى » ، فكيف يحتج بالمنسوخ من فعل الرسول فى أوكد الأحوال وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحب تابعًا وحولك من لا يؤمن فى صحبته ، ولا يعتمد فى دينه وقرابته ، وتتخطاهم إلى سرف مفتون ، تريد أن تلبس الناس شبهة يسعد بها الباقى فى دنياه ، وتشقى بها فى آخرتك ، إن هذا لهو الخسران المبين ، وأستغفر الله لى ولكم .

فنظر معاوية إلى ابن عباس فقال :

ــ ما هذا يابن عباس ، ولما عندك أدهى وأمر .

فقال ابن عباس :

ــ لعمر الله إنها لذرية الرسول وأحد أصحاب الكساء ، ومن البيت المطهر فلله عما تريد ، فإن لك فى الناس مقنعًا حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين .

فقال معاوية :

ــ أعود الحلم التحلم ، وخيره التحلم عن الأهل ، انصرفا فى حفظ الله .

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وإلى عبد الله بن عمر وإلى عبد الله

ابن الزبير فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه معاوية ثم قال :

ـــ يا عبد الله بن عمر ، قد كنت تحدثنا أنك لا تحب أن تبيت ليلة وليس فى عنقك بيعة جماعة وأن لك الدنيا وما فيها ، وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى فى تفريق ملئهم ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء ، وليس للعباد خيرة من أمرهم ، وقد وكد الناس بيعتهم فى أعناقهم ، وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم .

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

ـــ أما بعد يا معاوية،لقد كانت قبلك خلفاء،وكان لهم بنون ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يروا فى أبنائهم ما رأيت فى ابنك ، فلم يحابوا فى هذا الأمر أحدًا ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيث علموهم ، وإن تحذرنى أن أشق عصا المسلمين وأفرق ملأهم ، وأسفك دماءهم ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناس فسأدخل فى صالح ما تدخل فيه أمة محمد .

ـــ يرحمك الله ، ليس عندك خلاف .

ودار الحوار بين معاوية وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير ثم انصرف الجميع ، واحتجب معاوية عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادى أن ينادى فى الناس أن يجتمعوا لأمر جامع ، فاجتمع الناس فى المسجد ، وقعد الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير حول المنبر ، فصعد معاوية المنبر فقال :

ـــ يا أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بعثت إليها ببيعته فبايع الناس جميعا وسلموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقلت بيضته وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة منهم من كان أجدر أن يصله ، ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له .

فقام الحسين فقال :

ـــ والله لقد تركت من هو خير منه أبا وأما ونفسا .

فقال معاوية :

— كأنك تريد نفسك .

— نعم ، أصلحك الله .

— إذًا أخبرك ، أما قولك خير منه أما ، فلعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش لكان لنساء قريش فضلهن ، فكيف وهى ابنة رسول الله ﷺ ، ثم فاطمة فى دينها وسابقتها ، فأمك لعمر الله خير من أمه ، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، فقضى لأبيه على أبيك .

— حسبك جهلك ، آثرت العاجل على الآجل .

— وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفسا ، فيزيد والله خير لأمة محمد منك .

— هذا هو الإفك والزور ، يزيد شارب الخمر ومشترى اللهو خير منى ؟!

— مهلا عن شتم ابن عمك ، فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك .

ثم التفت معاوية إلى الناس وقال :

— أيها الناس قد علمتم أن رسول الله ﷺ قُبض ولم يستخلف أحدًا ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعة هدى فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، ففعل عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله ، وصنع عمر ما لم يفعله أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظرًا للمسلمين . فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظرا لهم بعين الإنصاف .

فقام عبد الله بن الزبير فقال :

— إن رسول الله ﷺ قُبض فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أن يستخلف عمر وهو أقصى قريش منه نسبا ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنه وهو

خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم ، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم ، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر تختار رهطا من المسلمين وتزويها عن ابنك فافعل .

وانصرف معاوية ذاهبا إلى منزله ، وأمر من حرسه وشرطته قوما أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة ، وهم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فلما اجتمعوا عنده التفت إلى جنده وقال :

— إنى خارج العشية إلى أهل الشام فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا وسلموا فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدقنى أو يكذبنى فيه فلا ينقضى كلامه حتى يطير رأسه .

فلما كان العشى خرج معاوية وخرج معه هؤلاء النفر وهو يضاحكهم ويحدثهم وقد ألبسهم الحُلل ، فألبس ابن عمر حُلة حمراء ، وألبس الحسين حُلة صفراء ، وألبس عبد الله بن عباس حُلة خضراء ، وألبس ابن الزبير حُلة يمانية .

ثم خرج بينهم وأظهر لأهل الشام الرضا عنهم ، وأنهم بايعوا ، فقال :

— يا أهل الشام ، إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين فوجدهم واصلين مطيعين ، وقد بايعوا وسلموا .

وظل القوم سكوتا لم يتكلموا شيئًا حذر القتل ، فوثب الناس من أهل الشام فقالوا :

— يا أمير المؤمنين ، إن كان رابك منهم ريب فخل بيننا وبينهم حتى نضرب أعناقهم .

فقال معاوية :

— سبحان الله ، ما أحل دماء قريش عندكم يا أهل الشام ، لا أسمع ذكرًا بسوء ، فإنهم قد بايعوا وسلموا وارتضونى فرضيت عنهم رضى الله عنهم .

وارتحل معاوية إلى مكة وقد أعطى الناس أعطياتهم وأجزل العطاء ، وأخرج إلى

كل قبيلة جوائزها وأعطياتها ، ولم يخرج لبنى هاشم جائزة ولا عطاء ، فخرج عبد الله بن عباس فى أثره حتى لحقه بالروحاء فجلس ببابه ، فجعل معاوية يقول :

— مَن بالباب ؟

فيُقال :

— عبد الله بن عباس .

فلم يأذن لأحد ، فلما استيقظ قال :

— مَن بالباب ؟

فقيل :

— عبد الله بن عباس .

فدعا بدابته فأدخلت إليه ، ثم خرج راكبًا ، فوثب إليه عبد الله بن عباس فأخذ بلجام البغلة ثم قال :

— أين تذهب ؟

— إلى مكة .

— فأين جوائزنا كما أجزت غيرنا ؟

فأومأ إليه معاوية فقال :

— والله ما لكم عندى جائزة ولا عطاء حتى يبايع صاحبكم .

— فقد أبى ابن الزبير فأخرجت جائزة بنى أسد ، وأبى عبد الله بن عمر فأخرجت جائزة بنى عدى ، فما لنا إن أبى صاحبنا وقد أبى صاحب غيرنا ؟

— لستم كغيركم ، لا والله لا أعطيكم درهما حتى يبايع صاحبكم .

— أما والله لئن لم تفعل لألحقن بساحل من سواحل الشام ثم لأقولن ما تعلم ، والله لأتركنهم عليك خوارج .

— لا بل أعطيكم جوائزكم .

فبعث بها من الروحاء ومضى راجعًا إلى الشام ، فلما قدم الشام أتاه سعيد بن عثمان بن عفان فقال :

— يا أمير المؤمنين ، علام تبايع يزيد وتتركنى ؟! فوالله لتعلم أن أبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، وأنا خير منه ، وإنك إنما نلت ما أنت فيه بأبى .

فضحك معاوية وقال :

— يابن أخى ، أما قولك إن أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية ، وأما قولك إن أمك خير منه أمه ففضل قرشية على كلبية فضل بيِّن ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فإنما هو الملك يأتيه الله من يشاء،قُتل أبوك رحمه الله،فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرًا من يزيد فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالا مثلك بيزيد ، ولكن دعنى من هذا وسلنى أعطك .

— يا أمير المؤمنين ، لا يعدم يزيد مزكيا ما دمت له ، وما كنت لأرضى ببعض حقى دون بعض ، فإذا أبيت فأعطنى مما أعطاك الله .

— لك خراسان .

— وما خراسان ؟!

— إنها لك طعمة وصلة رحم .

فرضى سعيد وخرج مغتبطا ، وبقى الحسين فى المدينة متحفزًا ليثور ثورته الكبرى ضد الظلم والطغيان .

٤٤

بات يزيد ليله مؤرقا ، فقد كان شارد اللب يفكر فى أرينب بنت إسحاق ، إن عينيه لم تقعا عليها ، وقلبه لم يخفق لرؤياها ، ولكنه خفق لما سمع بجمالها وحسنها الرائع الأخاذ ، فلو أن أرينب لم تكن فى كنف رجل لبعث فى طلبها ولأجزل لها المال حتى ترضى ، ولكنها كانت زوجة عبد الله بن سلام ، وقد كان واليًا من ولاتهم بالعراق .

وحاول يزيد أن يصرف ذهنه عن ذكرها ، ولكن فكره كان يجسم الجمال فى مخيلته ويصوره له أرينب بنت إسحاق ، فما من جمال هام به يوما إلا تخيله فيها ، وما من جمال اشتهاه أو حسن سمع به إلا صوره له الفكر وأوحى إليه أنه أرينب حبيبة الفؤاد . وهام يزيد بصورة متخيلة من الحسن والجمال صنعها له الوهم والخيال فخفق القلب ، وشغل البال .

وفتن يزيد بأرينب ، فكان إذا خلا بنفسه يهيم فى عوالم الخيال فيزداد شغفا بأرينب التى خلقها لنفسه بنفسه ، وتمدد فى سريره وقد شخص ببصره إلى لا شىء ، ثم زفر زفرة طويلة خرجت من صدر ضيئته الكروب ، فأحس رقيق وصيف معاوية أن يزيد فى ضيق .

فقال فى عجب :

— ما يهمك ؟

— لا شىء .

— يخيل إلى أنك مكروب .

— طعن القلب .

— أفصح .

— تحدث الناس بجمال أرينب بنت إسحاق ، فوقع منى بموقع الهوى فيها ، فلم يزل ما وقع فى خلدى ينمو ويعظم فى صدرى حتى عيل صبرى .

وصمت يزيد ليجتر الصورة المتخيلة للجمال فى هدوء مشوب بحزن وضيق ، وطأطأ رقيق بصره ، وجعل فكره يعمل فلم يجد خيرًا من مفاتحة أمير المؤمنين فى الأمر ، فيزيد يتألم فى صمت ، ومعاوية لا يشعر بما يحس به ابنه الحبيب من كرب ، فنهض وتوجه فى سكون الليل نحو سدة معاوية ، وكان غير محجوب عنه ، ولا محبوس دونه ، فلما وقع بصر معاوية على رقيق علم أنه ما جاء به فى هجعة الليل إلا أمر ، فقال معاوية :

— ما وراءك ، وما جاء بك ؟

— أصلح الله أمير المؤمنين ، إن يزيد يقاسى من وجده .

فنظر معاوية إلى رقيق فى دهشة ، فقال رقيق :

— جافاه النوم ، وأضحى حليف السهاد .

وأحس معاوية قلقا ، فإنه يحب ابنه حتى إنه تخطى الناس كلهم فى تقديمه ، ونصبه إماما على أصحاب رسول الله وهو موقن أن فيهم من يفضله ، فقال فى لهفة :

— على به .

فبعث إليه ، فلما جاءه الرسول قال :

— أجب أمير المؤمنين .

فأقبل يزيد حتى دخل على أبيه ثم جلس ، فقال معاوية :

— ماذا بك يا بنى ؟

فبث له شأنه وقد خنقه من شدة الحياء الشوق ، فأطرق معاوية وقد بان فى وجهه الهم ثم قال :

— مهلا يا يزيد .

— علام تأمرنى بالمهل وقد انقطع منها الأمل .

— فأين حجاك ومروءتك وتقاك ؟!

— قد يغلب الهوى على الصبر والحجا .

— اكتم يا بنى أمرك بحلمك واستعن بالله على غلبة هواك بصبرك ، فإن البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره ، ولا بد مما هو كائن .

ووقع أمر يزيد من معاوية موقعا ملأه هما ، فأخذ فى الحيلة والنظر ، فبيت النية على اتباع أساليب الغدر والخداع ، ولطالما اتبعهما حتى بلغ مأربه .

كتب إلى عبد الله بن سلام : « أقبل حين تنظر فى كتابى هذا لأمر حظك فيه كامل ولا تتأخر عنه » ، فأعد عبد الله بن سلام عدته ، وانطلق من العراق إلى الشام تتخايل له الأمانى والآمال .

ودخل على معاوية فأكرمه وبالغ فى تكريمه ، وأعد له منزلا فخما ونقله إليه ، وجلس معاوية إلى أبى الدرداء وأبى هريرة وقال لهما :

— إن ابنتى قد كبرت وأريد تزويجها . وقد رضيت عبد الله بن سلام لدينه وشرفه وفضله وأدبه ، وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى ، ولكن أرجو أن لا تخرج عن رأيى إن شاء الله تعالى .

فخرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام ، ودخل معاوية على ابنته فقال لها :

— إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك عبد الله بن سلام وإنكاحى إياك منه ، وحضاك على المسارعة إلى رضائى فقولى لهما : عبد الله بن سلام كفء كريم . غير أن تحته أرينب بنتَ إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء ولست بفاعلة حتى يفارقها .

ووصل أبو الدرداء وأبو هريرة إلى عبد الله بن سلام فأعلماه بما قال لهما معاوية . فسر وفرح ، وردهما خاطبين عنه . فلما مثلا بين يدى معاوية قال :

— إنى كنت قد أعلمتكما أننى جعلت لها فى نفسها شورى ، فادخلا عليها وأعلماها بما رأيت لها .

جلست بنت معاوية وقد طأطأت رأسها وقالت فى صوت خفيض :

— عبد الله بن سلام كفء كريم ، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذبنى عليه فأفارق الرجاء وأستشعر الأذى ، ولست بفاعلة حتى يفارقها .

وانطلق أبو هريرة وأبو الدرداء إلى ابن سلام وأبلغاه ما قالته ابنة معاوية ، فعلم أنه لا يحول بينه وبينها إلا أرينب ، ففارق زوجته وأشهدهما على طلاقها وبعثهما خاطبين أيضًا ، وبات عبد الله بن سلام يرقب سفارتهما نافد الصبر ، فإنه ليطمع فى أن تتوثق بينه وبين أمير المؤمنين الأسباب .

ودخلا على أمير المؤمنين متهللى الوجه ، فقد زالت العقبة . وقال أبو الدرداء :

— فارق عبد الله امرأته طلابًا لما يرضى ابنة أمير المؤمنين ، وخروجًا عما يشجيها :

فأحس معاوية نشوة تشيع فى نفسه ، ولكنه تظاهر بالعبوس والتقطيب ، وقال فى إنكار :

— ما أستحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره .

ونظر إليهما وقال :

— انصرفا فى عافية ، ثم تعودان إلينا فيه وتأخذان إن شاء الله رضانا .

وكتب إلى ابنه يزف إليه خبر ما كان من طلاق عبد الله بن سلام لأرينب .

وعاد بعد ذلك أبو الدرداء وأبو هريرة إلى معاوية فأمرهما بالدخول عليها وقال :

— لم يكن لى أن أكرهها وقد جعلت لها الشورى فى نفسها .

فدخلا عليها وأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام ليسراها بذلك ، وانتظرا موافقتها ولكنها قالت :

— جف القلم بما هو كائن ، ولا أنكر شرفه وفضله ، وإنى سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ولا قوة إلا بالله ، فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدًا لناظره قريب .

وذاع خبر طلاق عبد الله بن سلام وخطبته ابنة معاوية ، وانتظر الناس يوم الزواج . وراحت الأيام تمر ، فقلق ابن سلام واستحث أبا الدرداء وأبا هريرة ، فدخلا على ابنة معاوية فقالا :

— لقد أتيناك لما أنت صانعة فى أمرك ، وإن تستخيرى الله يخر لك فيما تختارين ، فإنه يهدى من استهداه ويعطى من اجتزاه وهو أقدر القادرين .

— الحمد لله ، أرجو أن يكون الله قد خار لى ، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه . وقد استبرأت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى

مع اختلاف من استشرته فيه ، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الآمر به ، واختلافهم أول ما كرهت من الله .

وعلم عبد الله بن سلام أنه خُدع ، فهلع واشتد هلعه ، وطال جزعه ، ولكن ما يجدى الجزع فقد خاب أمله ، وطاش سهمه ، وفقد درة غالية لطمعه ، خدعه معاوية ولطالما خدع أناسًا قبله ، وسخط الناس على ما أتاه أمير المؤمنين ، وأكثروا لومه ، ولكنه نفى عن نفسه الخداع فى مهارة عرفت عنه حتى كاد أن يصدقه الناس .

وراح عبد الله بن سلام يتحدث عن خدعة معاوية ، ويخوض فيه ، فضايقه ذلك فنبذه ، وقطع جميع روافده عنه .

ووجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطبًا لأرينب على ابنه يزيد ، فخرج حتى قدمها وبها الحسين بن علىّ ، فلما علم بوجوده قال :

ــ ما ينبغى لذى عقل أن يبدأ بشىء قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة إذا دخل موضعًا هو فيه .

فقصد حتى أتى الحسين ، فلما رآه الحسين قام إليه وصافحه إجلالا له ثم قال :

ــ مرحبًا بصاحب رسول الله ﷺ وجليسه ، يا أبا الدرداء أحدثت لى رؤيتك شوقًا إلى رسول الله ﷺ وأوقدت مطلقات أحزانى عليه ، فإنى لم أر منذ فارقته أحدًا كان له جليسًا وإليه حبيبًا إلا هملت عيناى وأحرقت كبدى أسى عليه ، وصبابة إليه .

ففاضت عينا أبى الدرداء لذكر رسول الله وقال :

ــ جزى الله لبانة أقدمتنا عليك وجمعتنا بك خيرا .

ــ والله إنى لذو حرص عليك ولقد كنت بالاشتياق إليك .

ــ وجهنى معاوية خاطبًا على ابنه يزيد أرينب بنت إسحاق ، فرأيت أن لا أبدأ بشىء قبل إحداث العهد بك والتسليم عليك .

ــ لقد كنت ذكرت نكاحها ، وأردت الإرسال إليها بعد انقضاء أقرائها ، فلم

يمنعني من ذلك إلا تخيير مثلك ، فقد أتى الله بك فاخطب رحمك الله على وعليه فلتختر من اختاره الله لها ، وإنها أمانة فى عنقك حتى تؤديها إليها ، وأعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه .

— أفعل إن شاء الله .

وخرج أبو الدرداء ليخطب على حفيد الرسول وحفيد أبى سفيان ، فلما دخل على أرينب قال :

— كان مما سبق لك وقدر عليك الذى كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ولعل ذلك لا يضرك ، وأن يجعل الله لك فيه خيرًا كثيرًا ، وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن الملك وولى عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية ، وابن بنت رسول الله ﷺ وابن أول من آمن به من أمته ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، وقد بلغك سناهما وفضلهما ، وجئتك خاطبًا عليهما فاختارى أيهما شئت .

فسكتت طويلا ثم قالت :

— يا أبا الدرداء ، لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غائب عني أشخصت فيه الرسل إليك واتبعت رأيك ولم أقطعه دونك على بعد مكانك ونأى دارك ، فأما إذا كنت المرسل فيه فقد فوضت أمرى بعد الله إليك ، فاختر لى أرضاهما لديك ، فليس أمرهما عليك خافيًا .

— أيتها المرأة ، إنما على إعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك .

— عفا الله عنك ، إنما أنا بنت أخيك ومن لا غنى بها عنك .

فأطرق أبو الدرداء قليلا ثم قال :

— أى بنية ، ابن بنت رسول الله أحب إلى وأرضاهما عندى ، والله أعلم بخيرهما لك ، وقد كنت رأيت رسول الله ﷺ واضعًا شفتيه على شفتى الحسين ، فضعى شفتيك حيث وضعهما رسول الله .

— قد اخترته ورضيته .

وتزوج الحسين من أرينب ، فحنق عليه معاوية ، وازداد حقد يزيد له . فقد

حرمه الحسين من أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ، واستولى على أرينب بعد أن اطمأن إلى دهاء أبيه وحسب أنها أصبحت يسيرة المنال .

وساء حال عبد الله بن سلام ، وقل ما فى يده ، فتذكر أنه ترك عند أرينب قبل فراقه إياها بدرات مملوءة درًا . فخرج إلى العراق وفكر فى أن يأتى أرينب يطلب ماله ، ولكنه خشى جحودها عليه لسوء فعله بها ، وطلاقه إياها على غير شىء أنكره ، وتصبر وانتظر ، واشتدت حاجته إلى المال فقابل الحسين وقال له :

ـــ قد علمت ـــ جُعلت فداك ـــ الذى كان من قضاء الله فى طلاق أرينب بنت إسحاق ، وكنت قبل فراق إياها قد استودعتها مالا عظيما ، وكان الذى كان ولم أقبضه ، ووالله ما أنكرت منها فى طول ما صحبتها فتيلا ، ولا أظن بها إلا جميلا ، فذاكرها أمرى ، واحضضها على الرد علَىّ ، فإن الله يحسن عليك ذكرك ويجزل به أجرك .

وانصرف الحسين إلى أهله فقال :

ـــ قدم عبد الله بن سلام .

فظهر على أرينب ارتباك مشوب باهتمام ، ولم يفت الحسين ما اعتراها فقال :

ـــ وهو يحسن الثناء عليك ويجمل النشر عنك فى حسن صحبتك ، وما آنسه قديمًا من أمانتك فسرنى ذلك وأعجبنى .

فبدا عليها اضطراب المحب إذا ما ذكر أمامه الحبيب بعد الغيبة والفراق ، وقال الحسين :

ـــ وذكر أنه كان استودعك مالا قبل فراقه إياك فأدى إليه أمانته ، وردى عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقًا ، ولم يطلب إلا حقًا .

فقالت أرينب فى صوت فيه رعدة خفيفة :

ـــ صدق ، قد والله استودعنى مالا لا أدرى ما هو ، وإنه لمطبوع عليه بطابعه ما أخذ منه شىء إلى يومه هذا .

ولقى عبد الله بن سلام فقال له :

— ما أنكرت مالك وزعمت أنه لكَمَا دفعته إليها بطابعك ، فادخل يا هذا عليها وتوف مالك منها .

— أَوَتأمر بدفعه إلى جعلت فداك .

— لا حتى تقبضه منها كما دفعته إليها وتبرئها منه إذا أدته .

وتقدم الحسين وعبد الله بن سلام ، وكان عبد الله يحس قلبه يثب فى صدره حتى ليكاد يقفز من فيه ، واعتراه ارتباك فقد كان يهواها ويخشى أن يخونه تجلده ، فيفصح عن لواعج النفس لهفة القلب ، ودخلا عليها فأحس عبد الله نفسه تذوب .

وقال الحسين فى ثبات :

— هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته ، فأديها إليه كما قبضتها منه .

فانطلقت أرينب مضطربة الخطوة وأخرجت البدرات وقد لاح فى وجهها الأسى والحزن ، وظهر على وجه عبد الله ما يصطرع فى جوفه من انفعالات ، ولمح الحسين ما يقاسيانه من وجد ، فانسل فى خفة وتركهما وحيدين ، ووضعت البدرات بين يديه وقالت :

— هذا مالك .

ففض عبد الله خاتم بدرة فحثا لها من ذلك الدر حثوات وقال فى رقة :

— خذى ، فهذا قليل منى لك .

ولم يقدرا أن يستمسكا ، فاستعبرا حتى تعالت أصواتهما بالبكاء ، فرق لهما قلب الحسين ، فدخل عليهما وقال :

— أشهد الله أنها طالق ثلاثًا ، اللهم إنك تعلم أنى لم أستنكحها رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكنى أردت إحلالها لبعلها .

فانتشرت الغبطة فى صدر عبد الله ، ورفرف على الحبيبين أمن ، وأراد أن يرد إليه بعض ما ساقه إليها من مهر عظيم فأبى وقال :

— الذى أرجوه عليه من الثواب خير لى منه .

٤٥

دارت عجلة الزمن لتطوى من انتهى أجله ، وتنشر من بزغ نجمه ، فقد مرض معاوية ، وقربت نهايته ، واشتد به الوجع والتمس يزيد ابنه ، ولكنه لم يجده فقد خرج فى رحلة من رحلات الصيد ، فدعا بدواة وبياض وكتب إليه كتابًا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى خلق كل شيء لميقات يوم معلوم وأجل محتوم ، ولو خلد فى هذه الدنيا أحد لكان سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله أولى بالبقاء . يا بنى أوصيك بوصية فأنت بخير ما دمت على حفظها ، أوصيك بأهل الشام فإنهم منك وأنت منهم ، فمن قدم عليك منهم فأكرمه ، ومن غاب فاطلع على خبره ، فإذا دهمك عدو فسر بهم ، فإذا ظفرت فردهم إلى بلدهم ، فإذا أقاموا فى غير أوطانهم تخلقوا بغير أخلاقهم ، ومن قدم عليك من الحجاز فاستوص به خيرًا ، وانظر يا بنى إلى أهل العراق فى أمورهم ، فإن سألوك أن تعزل عنهم فى كل يوم عاملا فاعمل ، فإن ذلك أهون من شق العصا على السلطان ، واعلم يا بنى أنى قد وطأت لك البلاد ، وذللت لك العباد ، ولست أخشى عليك إلا من أربعة رجال ، فإنهم لا يبايعونك وينازعونك فى هذا الأمر ، أولهم عبد الرحمن بن أبى بكر فإنه صاحب دنيا فمده بدنياه ودعه وما يريد يصر لا لك ولا عليك . والثانى عبد الله بن عمر رضى الله عنه فإنه صاحب قرآن ومحراب ، وقد تخلى عن الدنيا ورغب فى الآخرة ولا أظنه ينازعك فى هذا الأمر ولا يريده ، والثالث عبد الله بن الزبير سيراوغك مراوغة الثعلب ، ويجثو لك جثوة الأسد ، فإن حاربك فحاربه ، وإن سالمك فسالمه ، وإن أشار عليك فاقبل منه مشورته ، والرابع حسين بن علىّ ، فإن الناس تدعوه حتى يخرج عليك فإن

ظفرت به فاحفظ قرابته من رسول الله .

ومات معاوية فضجت دمشق لموته ، وخرج الضحاك بن قيس وكان صاحب جيشه ومعه أكفانه ، فصعد المنبر خطيبًا فقال :

ـــ إن معاوية كان عبدًا لله فنصره على عدوه ، وفتح به بلاده ، وقد دعاه إليه فأجابه ، وهذه أكفانه وها نحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ، ثم ننصرف عنه ونخلى بينه وبين ربه ، فمن أحب أن يشاهد فليحضر وقت الظهر .

وأرسل إلى يزيد رسولا يخبره بهلاك أبيه،فدخل يزيد داره وقد تملكه حزن شديد ، ولم يخرج إلى الناس إلا بعد ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع خرج أشعث أغبر ، فلم يدروا أيعزونه أم يهنئونه ، فتقدم إليه رجل فقال :

ـــ آجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رزيت عظيما ، فاشكر الله على عطيته ، واصبر على عظيم رزيته .

ثم دخل عليه الضحاك بن قيس وقال :

ـــ السلام عليك يا خليفة المسلمين ، أصبحت خليفة ورزيت بخليفة ، وهنيت بالعطيه ، وآجرك الله على الرزية .

ودفع إليه بوصية معاوية ، ففضها وقرأها ، فغامت عيناه بالدموع ، ثم بكى أحر بكاء ، وبقى مدة يستعيد هدوءه ، ثم خرج والناس من حوله حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر فقال :

ـــ أيها الناس ، إن معاوية بن أبى سفيان كان عبدًا لله استخلفه فى الأرض فعاش بعمل ومات بأجل ، ولقد كان محمود الحياة ، مفقود الوفاة ، والآن قد صار إلى ربه ، إن يعذبه فبذنبه ، وإن يغفر له فهو أرحم الراحمين ، وقد وليت هذا الأمر من بعده ، وقد أوصانى بالإحسان إليكم والتجاوز عن مسيئكم ، ولست والله معتذرًا إليكم .

وكتب إلى ولاته بالأمصار أن يأخذوا البيعة له ، وكتب إلى عامله بالمدينة فى صحيفة كأنها أذن فأرة : « أما بعد ، فخذ حسينًا وعبد الله بن عمر وعبد الله

ابن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة » .

وبعث بالصحيفة مع رسول إلى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان عامله على المدينة ، فلما قرأها ظهر الهم على وجهه ، فراح يقطع الغرفة جيئة وذهوبًا ، وآى الاضطراب بادية عليه ، وجعل يعبث بأصابعه فى لحيته ، ويفكر فيما يفعل بعد أن تلقى رسالة يزيد بهلاك أمير المؤمنين ، وأخذ هؤلاء النفر بالبيعة أخذًا شديدًا ، إنه ولى المدينة من قبل معاوية ، وقد وقعت بينه وبين مروان بن الحكم مشادة ومشاتمة فبمن يستعين ، وممن يلتمس الرأى السديد ؟ لم يصبح الأمر أمر يزيد ، بل صار الأمر أمر بنى أمية جميعًا ، فإنه لو سأل مروان العون لما تأخر مروان .

عظم على الوليد هلاك معاوية وما أمر به من أخذ هؤلاء الرهط بالبيعة ، ففزع إلى مروان فبعث إليه يطلبه ، فجاء مروان فلما دخل وجلس قرأ الوليد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة ، أما بعد ، فإن معاوية كان عبدًا من عباد الله ، أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له ، فعاش بقدر ، ومات بأجل ، فرحمه الله فقد عاش محمودًا ، ومات بارًا تقيًا والسلام » .

فاسترجع مروان ، وترحم عليه ، وقرأ الوليد كتاب يزيد الذى يأمره فيه بأخذ ابن الزبير والحسين وابن عمر بالبيعة ، وراح الحزب السفيانى يتدبر أمره فقال الوليد :

— كيف ترى أن نصنع ؟

فأطرق مروان برهة ثم قال :

— أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدخول فى الطاعة ، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم ، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إن علموا بموت معاوية وثب كل امرئ منهم فى جانب وأظهر الخلاف والمنابذة ودعا إلى نفسه ، أما ابن عمر فإنى لا أراه يرى القتال ، ولا يحب أن يولى على الناس إلا أن يدفع إليه هذا الأمر عفوًا .

فنادى الوليد بن عتبة عبيد بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث وطلب منه أن

ينطلق إلى المسجد ليدعو الحسين وابن الزبير ، فخرج الغلام حتى أتى المسجد فألفاهما جالسين فأتاهما فقال :

— أجيبا الأمير يدعوكما .

فالتفت كل من الحسين وابن الزبير إلى الآخر ، وقد بان فى وجهه التساؤل ، فإن الغلام أتاهما فى ساعة ما كان الوليد يجلس فيها للناس ، ولا يأتيان فى مثلها ، فالتفت ابن الزبير إلى الغلام وقال :

— انصرف ! الآن نأتيه .

ثم أقبل أحدهما على الآخر ، فقال ابن الزبير للحسين :

— ظن فيم تراه بعث إلينا فى هذه الساعة التى لم يكن يجلس فيها ؟

— قد ظننت ، أرى طاغيتهم قد هلك ، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو فى الناس الخبر .

وسكت ابن الزبير برهة وقال :

— فما تريد أن تصنع ؟

— أجمع فتيانى الساعة ، ثم أمشى إليه ، فإذا بلغت الباب احتبستهم عليه ، ثم دخلت عليه .

— إنى أخافه عليك إذا دخلت .

فقال الحسين فى ثقة :

— لا آتيه إلا وأنا على الامتناع قادر .

وجمع الحسين إليه مواليه وأهل بيته ، ثم أقبل يمشى حتى انتهى إلى باب الوليد وقال لأصحابه :

— إنى داخل ، فإن دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا فاقتحموا على بأجمعكم ، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم .

فدخل الحسين فألفى الوليد ومروان جالسين ، فتظاهر بأنه لم يفطن إلى موت معاوية ، وشاء أن يفهمهما أنه يظن أنهما ما أرسلا إليه إلا ليصلح بينهما فقال :

— الصلح خير من القطيعة ، أصلح الله ذات بينكما .

فلم يجيباه فى هذا بشيء ، وجاء حتى جلس فأقرأه الوليد الكتاب ، ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة فقال حسين :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، إنها لمصيبة عظيمة ولنا فيها شغل عن البيعة .

فقال الوليد :

— لا بد من ذلك .

— إن مثلى لا يبايع سرًا . ولا أراك تجتزئ بها منى سرًا دون أن تظهرها على رءوس الناس علانية .

— أجل .

— فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمرًا واحدًا .

وكان الوليد رجلا يحسب العواقب فقال له :

— فانصرف أبا عبد الله وائتنا غدًا مع الناس .

فلم يستطع مروان عدو بنى هاشم أن يكبت عواطفه ، وأن يدارى ما به ، فقال للوليد :

— إن فاتك الثعلب لم تر إلا غبارًا فاحذر أن يخرج حتى يبايعك أو فاضرب عنقه .

فوثب عند ذلك الحسين وقال :

— يابن الزرقاء ، أنت تقتلنى أم هو ! كذبت والله وأثمت .

ثم قام من عندهما وانطلق إلى منزله ، فقال مروان للوليد :

— عصيتنى وخالفت أمرى ، والله لا قدرت على مثلها أبدًا .

— ويخ غيرك يا مروان ، إنك اخترت لى التى فيها هلاك دينى ، والله ما أحب أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وإنى قتلت حسينًا . سبحان الله ، أأقتل حسينًا أن قال لا أبايع ؟ والله إنى لا أظن امرأ يحاسب

بدم الحسين لخفيف الميزان عند يوم القيامة .

فقال مروان متهكمًا :

— فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت .

وذاع خبر موت معاوية فى مكة ، وكان ابن عباس فى المسجد الحرام جالسًا قد وضع له الخوان وعنده نفر ، فاقترب منه الناس فقالوا :

— أما علمت بهذا الخبر يابن عباس ؟

— وما هو ؟

— هلك معاوية .

— ارفع الخوان يا غلام .

وأطرق ابن عباس قليلا ثم قال :

— جبل تزعزع ثم مال بكلكله،أما والله ما كان كمن كان قبله،ولكن يكون بعده مثله . اللهم أنت أوسع لمعاوية منا ومن بنى عمنا هؤلاء معتبر اشتجرنا بيننا ، فقتل صاحبَهم غيرُنا ، وقتل صاحبَنا غيرُهم ، وما أغراهم بنا إلا أنهم لا يجدون مثلنا ، وما أغرانا بهم إلا أنا لا نجد مثلهم ، كما قال القائل : ما لك تظلمنى !، قال : لا أجد من أظلم غيرك ، ووالله إن ابنه لخير أهله . أعد طعامك يا غلام .

فجىء بالطعام ، وما رفع الخوان حتى جاء رسول خالد بن الحكم إلى ابن عباس أن انطلق فبايع ، فقال للرسول فى تخاذل :

— أقرئ الأمير السلام ، وقل له والله ما بقى فى ما تخافون ، فاقض من أمرك ما أنت قاض ، فإذا سهل المشى ، وذهبت حطمة الناس جئتك ففعلت ما أحببت .

ثم أقبل على الناس فقال :

— مهلا معشر قريش أن تقولوا عند موت معاوية ذهب جد بنى أمية وانقطع ملكهم ، ذهب لعمر الله جدهم وبقى ملكهم ، وشرها بقية هى أطول مما مضى . الزموا مجالسكم وأعطوا بيعتكم .

وظلوا يتحدثون حتى جاء رسول خالد ثانية فقال لابن عباس :

ــ يقول لك الأمير لا بد لك أن تأتينا .

ــ فإن كان لا بد فلا بد مما لا بد منه . يا نوار هلمى ثيابى .

والتفت إلى الرسول وقال :

ــ وما ينفعكم إتيان رجل إن جلس لم يضركم ؟

وقال له عتبة بن مسعود فى إنكار :

ــ أتبايع ليزيد وهو يشرب الخمر ، ويلهو بالقيان ، ويستهتر بالفواحش ؟

ــ مه ، فأين ما قلت لكم وكم بعده من آت ممن يشرب الخمر وهو شر من شاربها أنتم إلى بيعته سراع .

٤٦

ودخل الحسين داره يفكر ويدبر أمره ، وأهمه نكره فما يستطيع أن يبايع ليزيد ، فلو بايع له لأقر الفسق والجور ، وثبت دعائم الظلم والطغيان ، ومكن للباطل . وما كان الحسين ليرضى أن يحيد عن الجادة ، وإن كان فى ذلك تشريده وتشريد أهله وهلاك ناصريه .

وراحت الذكريات تترادف فى رأسه فتشد من أزره وتقوى من عزمه على الثورة ضد السلطان الجائر ، فجده العظيم فر بدينه من أتون مكة ، من وجه أبى سفيان واضطهاده ، وتحصن بالمدينة حتى إذا ما اشتد ساعده محق حزب أبى سفيان فقضى على الضلالة والكفر وتألق الحق الأبلج ، فلم لا يفر بدينه من وجه يزيد ويلوذ بمكة حتى إذا ما سنحت له الفرصة انقض على الجور فقوضه ، وسحق أنصار الرذيلة والفجور ؟

وبيت النية على الخروج إلى مكة ، وكان فى مقدوره أن يخرج وحده فيعز الطلب ويسهل عليه الفرار من وجه أعوان يزيد ، ولكنه خشى إن خرج وحيدًا أن ينكل عامل يزيد بأهله وهو يعلم حقد بنى أمية الموروث لبنى هاشم ، فعزم على أن

يخرج بأهله جميعا ليجنبهم اضطهاد الأمويين ، ومعاينة بيعة الضلالة لخليفة مستهتر مثل يزيد .

وخرج إلى أهله يأمرهم بالتأهب للرحيل ، فتأهب أبناؤه وأبناء الحسن وإخوته وجل أهل بيته ومواليه ، وجاء إليه محمد بن الحنفية وقال له :

ــ يا أخي ! أنت أحب الناس إلى ، وأعزهم على ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تنح بتبعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت ثم ابعث رسلك إلى الناس ، فادعهم إلى نفسك فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك . إنى أخاف أن تدخل مصرًا من هذه الأمصار وتأتى جماعة من الناس فيختلفون بينهم ، فمنهم طائفة معك وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفسًا وأبا وأما ، أضيعها دمًا وأذلها أهلا .

رأى الحسين التخاذل قد ران على العصر ، وروح الهزيمة قد شاعت فى النفوس ، فقرر أن يحفز الهمم ، وأن يضرب المثل ، وأن يحطم قيود الخنوع فقال :

ــ فإنى ذاهب يا أخى .

ــ فانزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نبت بك لحقت بالرمال وشعب الجبال،وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أصوب ما يكون رأيا وأجزمه عملا ، حين تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبدا أشكل منها حين تستدبرها استدبارًا .

ــ يا أخى قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديدًا موفقًا .

وتجهز الحسين للخروج ، فدخل قبر الرسول ليودعه قبل الرحيل ، فبان فى وجهه الأسى العميق وغامت عيناه بالدموع ، وقال وهو يشرق بعبراته :

ــ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! لقد خرجت من جوارك كرها ، وفرق بينى

وبينك ، وأخذت قهرًا أن أبايع يزيد شارب الخمور ، وراكب الفجور ، وإن فعلت كفرت ، وإن أبيت قتلت . فهأنا خارج من جوارك كرهًا ، فعليك السلام منى يا رسول الله .

وسار مطأطئ الرأس منقبض الصدر ، تشيع فى نفسه أحاسيس رهبة وحزن ، وتلفت قبل أن يخرج لفتة إلى القبر ، وألقى نظرة أخيرة طويلة كأنما يتزود منه لنهاية العمر فما يدرى أيعود إلى قبر الحبيب ثانية يزوره ، أم يلتقى بصاحب القبر فى جنات عرضها السموات والأرض ؟

وهاجر الحسين من مدينة جده ، فخرج منها خائفا يترقب ، قال : رب نجنى من القوم الظالمين .

وركب الحسين الجادة العظمى ، فخاف عليه أهل بيته خوفًا شديدًا ، فما يفعلون إذا ما دهمهم أعوان يزيد ، أيدعون الحسين يقع غنيمة باردة فى أيديهم ؟ كلا فما كانوا ليتخلون عنه وإن بادوا عن بكرة أبيهم ، فقد كان الحسين حبيب قلوبهم ، بل كان الروح التى تسرى فى أبدانهم ، ولولا حبهم الشديد له وتعلقهم به ما تركوا جميعًا ديارهم الآمنة ليخرجوا معه لا يدرون ما يخبئه لهم الغد من أحداث ، وما قد ينزل بهم من متاعب وأهوال ، واستخفوا بالمخاطر ، وركبوا الصعاب إرضاء للحسين الحبيب ، وقد خرجوا جميعا راضى النفوس ، فهم على يقين من أن الحسين ما غضب إلا لله ، وما ثار إلا لإعلاء كلمة الحق .

كانوا جميعا يخافون عليه فقالوا له :

— لو سلكت الطريق الأفرع لكان أصلح .

فقال :

— أتخافون الطلب ؟.

— أجل .

— أخاف أن أحيد حذر الموت .

إذا المرء لا يحمى بنيه وعرضه · وعترته كان اللئيم المسببا
ومن دون ما يبغى يزيد بنا غدًا · نخوض بحار الموت شرقًا ومغربا
ونضرب ضربا كالحريق مقدما · إذا ما رآه ضغيم فر مهربا

واستمر منطلقا حتى قابل عبد الله بن مطيع القرشي فقال له عبد الله :

ـــ جعلت فداك ، إنى أنصحك إذا دخلت مكة فلا تبرحن منها ، فهى حرم الله والأمان للناس ، فأقم فيها ، وتألف أهلها ، وخذ البيعة على كل من دخلها من الناس ، وعدهم العدل ،وارفع الجور عنهم، وأقم فيها خطباء تخطب وتذكر على المنابر شرفك وتشرح فضلك ، ويخبرونهم بأن جدك رسول الله ﷺ وآله ، وأباك علىّ بن أبى طالب ، وأنك أولى بهذا الأمر من غيرك ، وإياك أن تذكر الكوفة فإنها بلد مشئوم قُتل فيها أبوك ، ولا تبرح من حرم الله تعالى فإن معك أهل الحجاز واليمن كلها ، وسيقدم إليك الناس من الآفاق وينصرفون إلى أمصارهم ، وادعهم إلى بيعتك ، فاقبل نصيحتى وسر مسددا ، فوالله إن فعلت لترشدن .

ـــ جزاك الله عنى كل خير ، فإنى قابل نصيحتك .

ومضى حتى إذا ما لاحت له أرض مكة ، نظر إلى السماء وقال فى ابتهال :

ـــ اللهم خذ لى بحقى ، وقر عينى ، رب اهدنى سواء السبيل .

وهبط الحسين مكة ، البلدة التى يأمن فيها الطير مستجيرًا بحرم الله ممن يريدون أخذه بالشدة لمبايعة يزيد ، وبقى عاكفا بأم القرى لا يدعو الناس إلى بيعته ، فما هاجر طلبا للسلطان بل هاجر فرارًا من الظلم والطغيان ، فما كان ليرضى أن يمالئ فى دينه ، وما كان ليقبل أن يبايع لمثل يزيد ليتحكم فى رقاب المسلمين .

وذاع فى مكة أن الحسين لم يبايع ليزيد ، وانتشر فى الأمصار أن ابن بنت رسول الله لائذ ببيت الله الحرام ممن يريدون أن يرغموه على البيعة كرها ، فمالت قلوب الناس إليه ، وبذرت فى الصدور بذور المقت لبنى أمية وأعوانهم .

* * *

وبلغ أهل الكوفة وفاة معاوية ، وامتناع الحسين من البيعة ، فامتنعوا عن مبايعة

يزيد ، وتذكر سليمان بن صرد ما قاله الحسين له لما بايع الحسن لمعاوية : «ليكن كل رجل منهم حلسا من أحلاس بيته ما دام معاوية حيا ، فإنها بيعة كنت والله لها كارها ، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم » . وها قد هلك معاوية ، فليكتبوا إلى الحسين يدعونه ، واجتمع رجال عند سليمان فقالوا :

ــ نكتب إلى الحسين .

فقال لهم سليمان :

ــ يا معشر الناس ، إن معاوية قد هلك ، وقد امتنع الحسين من البيعة ونحن شيعته وأنصاره ، فإن كنتم تعلمون أنكم تنصرونه وتجاهدون بين يديه فافعلوا ، وإن خفتم الوهن والتخاذل فلا تغروا الرجل .

ــ بل نقاتل عدوه .

ــ اكتبوا على اسم الله .

فكتبوا إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى الحسين بن على بن أبى طالب من سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجية ، ورفاعة بن شداد البجلى ، وحبيب بن مظاهر الأسدى ومن معه من المسلمين ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، فإنما نحمد الله الذى لا إلـٰه إلا هو ، ونصلى على محمد وآل محمد ، واعلم يابن محمد المصطفى وابن علىّ المرتضى ، أن ليس لنا إمام غيرك ، فاقدم إلينا ، لنا ما لك وعليك ما علينا ، فلعل الله أن يجمعنا بك على الحق والهدى واعلم أنك تقدم على جنود مجندة ، وأنهار متدفقة ، وعيون جارية ، فإن لم تقدم على ذلك فابعث إلينا أحدًا من أهل بيتك يحكم بيننا بحكم الله تعالى ، وسنة جدك رسول الله ، واعلم أن النعمان بن بشير فى قصر الإمارة ولسنا نشهد معه جمعة ولا جماعة ، ولو أنك أقبلت إلينا لكنا أخرجناه إلى الشام والسلام » .

وبعثوا الكتاب مع رسولين فخرجا مسرعين حتى قدما على الحسين ومعهما خمسون صحيفة ، وما انقضى يومان حتى وصل إليه كتاب آخر فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى الحسين بن علىّ بن أبى طالب . أما بعد ، فإنه لا إمام غيرك لنا ، يابن رسول الله العجلَ العجل » .

وما انقضى يومان آخران حتى بلغه آخر فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . قد أينعت الثمار ، فاقدم إلينا يابن بنت رسول الله مسرعا » ، وتواترت الكتب إليه فسأل الرسل عن أمر الناس فقالوا :

— إنهم كلهم معك .

وراح الحسين يفكر فى أمر هذه الكتب ، إنه خرج من المدينة فرارا من الظلم والاضطهاد ، وهاهم أهل العراق يدعونه لنصرته ، فلو أنه خرج إليهم لاشتد ساعده بهم ، ولناوأ الجور وحاربه حتى محقه وأقام دعائم العدل والإنصاف .

هاهم أهل العراق يدعونه فحق عليه أن يلبى دعوتهم ، فهم يدعونه إلى رشاد ، وله فى رسول الله أسوة ، فما دعاه أهل يثرب حتى لبى الدعوة وخرج إليهم وانتصر بهم على الباطل والضلال . ما كان للحسين أن يحجم وهو رجل الإقدام ، فكتب إليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من الحسين بن علىّ إلى الملأ من المؤمنين ، أما بعد فإن هانيا وسعيدًا قدما إلىّ بكتبكم ، وكانا آخر من قدما إلىّ من رسلكم ، وقد فهمت ما ذكرتموه أنه ليس لكم إمام غيرى ، وتسألونى القدوم إليكم ، لعل الله يجمعكم على الحق والهدى ، وإنى باعث إليكم أخى وابن عمى المفضل عندى من أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وقد أمرته أن يكتب إلى بحسن رأيكم وما أنتم عليه ، وأنا أقدم إليكم إن شاء الله » .

ودعا الحسين بمسلم بن عقيل ، وأمره بتقوى الله واللطف بالناس ، فإن رأى الناس مجتمعين على رأيه يعجل له بالخبر ، ودعا بدليلين يدلانه على الطريق .

* * *

وخرج مسلم والدليلان وأغذوا فى السير فدخلوا المدينة وصلوا بمسجد الرسول ثم انطلقوا إلى العراق ، فلما توغلوا فى المسالك ، ضل الدليلان ونفد الماء

فأصابهم عطش شديد وأحسوا جفافا فى حلوقهم ، وأخذوا يترنحون ويبحثون عن ماء وقد زاغت الأبصار ، وحل بهم إعياء شديد ، فسقط رجل ، ثم سقط آخر ، وظل مسلم يضرب فى الطريق وحده حتى بلغ قافلة كانت تمخر عباب الفضاء العريض .

وكتب مسلم إلى الحسين كتابا يقول فيه :

« أما بعد ، فإنى أخبرك يابن بنت رسول الله أنى قد أتيت مع الدليلين فضلا عن الطريق ، واشتد العطش بهما فماتا وقد تطيرت من وجهى هذا ، فإن أردت أن تعفينى وتبعث غيرى فافعل » .

ووصل الكتاب إلى الحسين فكتب جوابه :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل ، إذا قرأت كتابى هذا فامض على ما أمرتك والسلام » .

٤٧

جثم سواد الليل على الكوفة ، فأوى الناس إلى دورهم ، وأقفرت الطرق ، فانسل مسلم فى جنح الليل إلى دار سليمان بن صرد وبات بها حتى إذا ما انفلق عمود الصبح همس أنصار الحسين بأن مسلما قد حضر ، فهرع الناس إليه ، فأقرأهم كتاب الحسين ، فانهمرت الدموع وجعلوا ينتحبون ثم قام رجل فقال :

ـــ إنى لست أعلم ما فى قلوب الناس ، ولكن أخبرك بما فى نفسى ، إذا دعوتمونى أجبتكم ، وأضرب بسيفى عدوكم حتى ألقى الله عز وجل .

فقام رجل آخر فقال له :

ـــ يرحمك الله ، فقد قضيت ما عليك ، وأنا والله على مثل ذلك .

وتدفق أهل الكوفة على دار سليمان بن صرد وجعلوا يبايعون مسلمًا حتى بايعه ثمانون ألف رجل .

ورأى رجل من أنصار يزيد تدفق الناس على دار سليمان فهرع إلى النعمان بن بشير والى الكوفة وقال له :

— إنك ضعيف أو متضعف ، قد أفسد البلاد .

فقال له النعمان :

— أن أكون ضعيفًا وأنا فى طاعة الله أحب إلى من أن أكون قويا فى معصية الله ، وما كنت لأهتك سترا ستره الله .

وخرج النعمان وصلى بالناس ثم قال :

— معاشر الناس ! إنى والله لا أقاتل من لا يقاتلنى ، ولا أتحرش بمن لا يتحرش بى ، فاحذروا الفتنة ، وشق العصا على السلاطين ، فإن صح ذلك عندى على أحد منكم لأضربن عنقه ولو لم يكن لى ناصر ولا معين .

فلم يرق ذلك القول لنصير يزيد فقام إليه فقال :

— أيها الأمير ، إن هذا الأمر لا يكون إلا بالغشم والقهر وسفك الدماء ، وهذا الذى تكلمت به كلام المستضعفين .

— أكون من المستضعفين فى ذات الله ولا أكون من الظالمين .

فخرج نصير يزيد ثائرًا ، ثم كتب إليه :

— « من عبد الله بن شعبة الحضرمى إلى يزيد بن معاوية . أما بعد ، فإن مسلم ابن عقيل ورد الكوفة ، وقد بايعه شيعة الحسين . فإن كان لك فى الكوفة حاجة فأنفذ إليها رجلا قويا ، فإن النعمان ضعيف ويتضاعف » .

وانطلق رسول ابن شعبة بأول كتاب يدعو يزيد إلى حرب الحسين .

قرأ يزيد الكتاب فاربد وجهه ، ودعا مولى له يقال له سرجون وقال :

— ما تنظر الحسين كيف أرسل ابن عمه إلى الكوفة يبايعهم ! وبلغنى أن النعمان ضعيف فيهم ، فما عندك من الرأى ؟

— أكنت قابلا من معاوية لو كان حيًّا ؟

— نعم .

— فاقبل منى ، فليس للكوفة إلا عبيد الله بن زياد فولها إياه .

وأطرق يزيد قليلا فقد كان ساخطًا على ابن زياد وكان قد هم بعزله عن البصرة ، ولكنه لم يجد فى أهله من هو أنكى لبنى هاشم منه ، فإن ابن مرجانة يحقد على الهاشميين أشد الحقد ، ويبغضهم بغضًا لا يحد ، فما من أحد لهذه الثورة غيره ، فقلبه قد من صخر ، فكتب يزيد :

« من يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد . أما بعد ، فقد بلغنى أن أهل الكوفة قد اجتمعوا على البيعة للحسين ، وقد كتبت إليك كتابًا ، فإنى لا أجد سهمًا أرمى به عدوى أجرأ منك ، فإذا قرأت كتابى فارتحل من وقتك وساعتك ، وإياك والتوانى . واجتهد ولا تبق من نسل علىّ بن أبى طالب أحدًا ، واطلب مسلم بن عقيل فاقتله وابعث إلىّ برأسه والسلام » .

وتأهب عبيد الله بن زياد للخروج إلى الكوفة ، فجاءه المنذر بن الجارود ، وكانت ابنته تحت ابن زياد ، وفى رفقته رجل مغلول اليدين فقال ابن زياد :

— من هذا ؟

— رسول الحسين إلى أشراف البصرة يدعوهم إلى نصرته .

ودفع بالكتاب إلى عبيد الله بن زياد فقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الحسين بن علىّ . أما بعد ، فإن الله اصطفى محمدًا على جميع خلقه . وأكرمه بنبوته ، وحباه برسالته ، ثم قبضه إليه مكرمًا . وقد نصح العباد وبلغ رسالات ربه ، وكان أهله وأصفياؤه أحق بمقامه من بعده ؛ وقد تأمر علينا قوم فسلمنا ورضينا كراهة الفتنة وطلب العافية . وقد بعثت إليكم بكتابى هذا ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، فإن سمعتم قولى واتبعتم أمرى أهدكم إلى سبيل الرشاد . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وغضب ابن زياد ، فأمر بالرسول فضربت عنقه ، فكان أول رسول قُتل فى الإسلام ، وما كان هذا أول منكر أتاه ابن زياد ولا آخر حكم جائر للوالى الفظ

الغليظ القلب .

خرج عبد الله بن زياد إلى المسجد فصعد المنبر فقال :

— يا أهل البصرة ، إن يزيد قد ولانى الكوفة ، وقد عزمت على المسير إليها ، وقد استخلفت عليكم أخى عثمان بن زياد ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإياكم والأراجيف ، فوالله إن بلغنى أن رجلا منكم خالف أمره لأقتلنه ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تستقيموا .

ثم خرج يريد الكوفة ومعه عشيرته ومواليه وأشراف أهل البصرة .

* * *

جلس الحسين فى الكعبة ، وجاءه ابن الزبير فساره ، وتطلع الناس إليهما ، فلما انتهى ابن الزبير من حديثه ، التفت الحسين إلى الناس وقال :

— أتدرون ما يقول ابن الزبير ؟

— لا ندرى جعلنا الله فداك .

— قال : أقم فى هذا المسجد أجمع لك الناس .

ثم صمت الحسين قليلا وقال :

— والله لأن أقتل خارجا منها بشبر أحب إلىّ من أن أقتل داخلا منها بشبر ، وأيم الله لو كنت فى جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجونى حتى يقضوا فىّ حاجتهم ، ووالله ليعتدن علىّ كما اعتدت اليهود فى السبت .

وكتب مسلم بن عقيل للحسين أن الناس معه ، فتأهب الحسين للخروج بأهله ومواليه إلى العراق ، وذاع نبأ ذلك التأهب فى مكة ، فأشفق المشفقون من ذلك الخروج وجاء رجل إلى الحسين وقال :

— إنى جئتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى أنى ناصح قلتها لك وأديت ما يجب على من الحق فيها ، وإن ظننت أنى غير ناصح كففت عما أريد قوله لك .

— قل .

ـــ بلغنى أنك تريد العراق وإنى مشفق عليك أن تأتى بلدًا فيه عمال يزيد وأمراؤه ومعهم بيوت المال ، وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار ، فلا آمن عليك من أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه ، وذلك عند البذل وطمع الدنيا .

ـــ جزاك الله خيرًا من ناصح ، لقد مشيت يابن عم بنصح وتكلمت بعقل ولم تنطق عن الهوى ، ولكن مهما يكن من أمر أخذت برأيك أم تركت مع أنك عندى أحمد مشير وأعز ناصح .

وجاء عبد الله بن عباس إلى الحسين وقال :

ـــ يابن عم ، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق فبين لى ما أنت صانع .

ـــ إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى .

فقال ابن عباس فى التياع :

ـــ فإنى أعيذك بالله من ذلك ، أخبرنى رحمك الله أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك .

ـــ وإنى أستخير الناس وأنظر ما يكون .

وعلم ابن الزبير بعزم الحسين على الخروج فأحس غبطة فقد كان على يقين من أن الناس فى الحجاز لا يعدلون بالحسين أحدًا ، فإذا خرج الحسين خلى له الحجاز فدعا الناس لبيعته ، ورأى أن يدخل على الحسين يزين له الخروج فأتاه وقال له :

ـــ ما أدرى ما تركنا هؤلاء القوم وكففنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم . خبرنى ما تريد أن تصنع ؟

— والله لقد حدثت نفسى بإتيان الكوفة ولقد كتب إلى شيعتى بها وأشراف أهلها وأستخير الله .

— أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلت بها .

ثم خشى أن يتهمه فقال :

— أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ههنا ما خولف عليك إن شاء الله .

وتم كل شيء ولم يبق إلا الرحيل ، فأتى الحسين عبد الله بن عباس فقال فى يأس :

— يابن عم إنى أتصبر ولا أصبر ، أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال ، إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم . أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية .

— يابن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مشفق ، ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير .

— فإن كنت سائرًا فلا تسر بنسائك وصبيتك فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه .

وساد الصمت بينهما ثم قال ابن عباس :

— لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز والخروج منها،وهو يوم لا ينظر إليه أحد معك ، والله الذى لا إلـه إلا هو لو أعلم أنك لو أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على وعليك الناس أطعتنى لفعلت ذلك .

ثم خرج ابن عباس من عنده فمر بعبد الله بن الزبير فقال له :

— قرت عينك يابن الزبير .

وسار ركب الحسين ليخرج من مكة فاعترضه رسل عمرو بن سعيد وقالوا للحسين :

— انصرف ، أين تذهب ؟

فأبى عليهم ومضى ، وتدافع الفريقان فاضطربوا بالسياط ومضى الحسين على وجهه فنادوه :

— يا حسين ، ألا تتقى الله ، تخرج من الجماعة وتفرق بين هذه الأمة ؟

— « لى عملى ، ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون » .

وفى الطريق لقيه الفرزدق ، فنزل وسلم على الحسين وقال له :

— أعطاك الله سؤلك ، وبلغك مأمولك ، فى جميع ما تحب .

— من أين أقبلت يا أبا فراس ؟

— الكوفة .

— بيّن لى خبر الناس .

— أجل ، على الخبير سقطت ، يابن رسول الله ﷺ ، قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء ، وربنا كل يوم هو فى شأن .

— صدقت ، الأمر لله يفعل ما يشاء ، والله سبحانه كل يوم هو فى شأن .

وسار الحسين حتى انتهى إلى ماء قريب من الحاجز فإذا هو بعبد الله بن مطيع نازل على الماء ، فتلاقى هو وإياه فتسالما واعتنقا وقال له :

— ما جاء بك يابن رسول الله ﷺ ؟

— أقصد الكوفة .

— ألم أتقدم إليك بالقول ؟! ألم أنهك عن المسير إلى هذا الوجه . اذكر الله تعالى فى حرمة الإسلام أن تنتهك ، أنشدك الله تعالى فى حرمة قريش وذمة

العرب ، والله لئن طلبت ما فى يد بنى أمية ليقتلنك ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدًا أبدًا ، والله إنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب ، فالله الله لا تفعل ولا تأت الكوفة ، ولا تعرض نفسك لبنى أمية .

ولم يلتفت الحسين إلى كلام ابن مطيع فقد عزم على أمر لن يثنيه عنه شىء ، فانطلق قدما .

وكتب عبد الله بن جعفر إلى الحسين مع ابنيه عون ومحمد : « أما بعد ، فإنى أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر فى كتابى ، فإنى مشفق عليك من الوجه الذى توجه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، إن هلكت اليوم طفئ نور الأرض ، فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير فإنى فى أثر الكتاب والسلام » .

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد والى يزيد على مكة فكلمه وقال له :

ـــ اكتب إلى الحسين كتابا تجعل له فيه الأمان ، وتمنيه فيه البر والصلة ، وتوثق له فى كتابك وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن إلى ذلك .

فقال عمرو بن سعيد :

ـــ اكتب ما شئت وائتنى به حتى أختمه .

فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له :

ـــ اختمه وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحرى أن تطمئن نفسه إليه ويعلم أنه الجد منك .

وخرج عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد فى أثر الحسين ، ولما بلغاه دفعا إليه بكتاب عمرو بن سعيد فنشره وقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن على ، أما بعد فإنى أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك ، وأن يهديك لما يرشدك ، بلغنى أنك توجهت إلى العراق ، وإنى أعيذك بالله من الشقاق ، فإنى أخاف عليك فيه

الهلاك ، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد فأقبل إلىّ معهما ، فإن لك عندى الأمان والصلة والبر وحسن الجوار لك ، الله علَىّ بذلك شهيد وكفيل ومراع ووكيل والسلام عليك » .

فالتفت الحسين إليهما وقال فى حزم :

ــ إنى رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ ، وأمرت فيها بأمر أنا ماض له ، على كان أولى .

ــ فما تلك الرؤيا ؟

ــ ما حدثت أحدا بها ، وما أنا محدث بها حتى ألقى ربى .

وسار الحسين حتى دخل المدينة ، فأتى قبر رسول الله يزوره قبل خروجه ، فأحس غصة فى حلقه ، وجرى دمعه غزيرا حتى بل لحيته ، ثم خرج بعد أن ودع جده العظيم ودخل إلى أخيه محمد بن الحنفية وقال له :

ــ يا أخى ، إنى راحل إلى العراق .

ــ ناشدتك الله يا أخى أن لا تسير إلى قوم قتلوا أباك ، وغدروا بأخيك ، فأقم عند حرم جدك وإلا فارجع إلى حرم الله فإن لك فيه أعوانًا كثيرة .

ــ لا بد من المسير إلى العراق .

ــ إنه ليفجعنى ذلك .

ثم بكى وقال :

ــ والله يا أخى لا أقدر أقبض قائم سيفى ، ولا كعب رمحى ، ثم لا فرحت بعدك أبدا .

وخرج الحسين ومحمد بن الحنفية يرقبه بعيون تترقرق فيها الدموع ثم غمغم :

ــ أستودعك الله من شهيد مظلوم .

وانطلق الحسين وهو على يقين من أنه سيقوض دعائم الظلم ظافرا أو مقتولا .

٤٨

كان أهل الكوفة يرقبون قدوم الحسين عليه السلام ، وصلى الناس الجمعة وانصرفوا من الصلاة ، فرأوا ركبا قادما يتوسطه رجل على بغلة شهباء ، عليه ثياب بيض ، وعمامة سوداء ، متلثما وبيده قضيب من خيزران ، فهرعوا إليه فسلم عليهم بقضيبه فقالوا له :

ــ قدمت خير مقدم يابن ينت رسول الله .

وصار لا يمر بملأ من الناس إلا ويسلم عليهم وهم يردون التحية مستبشرين فرحين ، وانطلق الناس خلفه حتى إذا اقترب من قصر الإمارة ، التفت مسلم بن عمر الباهلى إليهم وقال لهم :

ــ تأخروا يا ويلكم عن وجه الأمير فليس هو ظنكم وطلبتكم .

وسمع النعمان ضوضاء الناس فأشرف من أعلى القصر ، وأسفر الراكب عن وجهه فامتعض الناس،ولاح على الوجوه خيبة الأمل،فقد كان الرجل عبيد الله بن زياد ولم يكن الحسين المنتظر ، وتطلع عبيد الله إلى النعمان وقال :

ــ يا نعمان ، حصنت قصرك وتركت مصرك .

وفتح نعمان القصر فدخل ابن زياد وأهله ، ثم قال ابن زياد :

ــ يا نعمان ، ناد فى الناس للصلاة جامعة .

فنادى فاجتمع خلق كثير فصعد المنبر وقال :

ــ أيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فإنى أعرفه بنفسى ، أنا عبيد الله بن زياد وقد ولانى مصركم هذا يزيد ، وأمرنى بالإنصاف للمظلوم وإعطاء المحروم ، والإحسان إلى مسيئكم ، وأنا متبع فيكم أمره .

ثم نزل عن المنبر وأمر أن ينادى فى قبائل العرب أن اثبتوا على بيعة يزيد من قبل

أن يبعث إليكم من الشام رجالا يقتلون رجالكم ويسبون نساءكم ، فجعل أهل الكوفة ينظر بعضهم بعضا ويقولون :

— مالنا والدخول بين السلاطين .

وأصبح مسلم بن عقيل موعوكا فلم يخرج للصلاة ، فلما كان وقت الظهر خرج إلى المسجد فأذن وقام فلم يأته أحد ، فصلى وحده . فلما فرغ من صلاته إذا هو بغلام فقال له :

— يا غلام ، ما فعل أهل هذا المصر ؟

— إنهم نقضوا بيعة الحسين وبايعوا يزيد . .

فلما سمع كلام الغلام صفق يدا على يد ، وخرج يخترق الشوارع حتى بلغ محلة بني خزيمة ، فوقف هناك بإزاء بيت شاهق ، فخرجت من ذلك البيت جارية ، فقال لها :

— لمن هذه الدار ؟

— لهانئ بن عروة .

— ادخلى عليه وقولى له رجل بالباب ، فإن سألك عن اسمى قولى له إنه مسلم ابن عقيل.

فغابت الجارية قليلا ثم خرجت تقول له :

— ادخل يا سيدى .

دخل مسلم فألفى هانئا عليلا ، ونهض هانئ ليعتنقه فلم يقدر ، وجلسا يتحدثان حتى أتى حديثهما إلى عبيد الله بن زياد ، فأظهر مسلم كرها لوفوده فقال هانئ :

— سيبلغه مرضى ، وربما يأتى يعودنى ، فإذا جاء فخذ هذا السيف وادخل المخدع ، فإذا جلس فدونك فاقتله ، واحذر أن يفوتك ، فإن فاتك قتلك وقتلنى ، والعلامة بينى وبينك إذا قلعت عمامتى عن رأسى وأضعها على الأرض . فإذا رأيت ذلك فاخرج عليه واقتله .

ـــ أفعل .

وأرسل هانئ إلى ابن زياد يستجفيه ، فأرسل إليه معتذرا وقال :

ـــ ما علمت بعلتك ، وإنى رائح إليك العشية .

فلما صلى ابن زياد صلاة العشاء أقبل يعود هانئا ومعه حاجبه ، فقيل لهانئ :

ـــ ابن زياد بالباب يريد الدخول عليك .

فقال هانئ لجاريته :

ـــ ادفعى السيف لمسلم .

جاء ابن زياد وجلس إلى جانبه وحاجبه قائم على رأسه ، فجعل يحادثه ويسأله عن حاله وهانئ يشكو الذى يجده ، وخلع عمامته ووضعها على الأرض ثم وضعها على رأسه ولم يزل يفعل ذلك ومسلم لم يخرج وقام ابن زياد ، فخرج مسلم فقال له هانئ :

ـــ من الذى منعك من قتله ؟

ـــ منعنى خبر سمعته عن رسول الله قال : الإيمان ضد الفتك ، لا يفتك مؤمن .

ـــ لو قتلته لقتلت كافرًا .

وبلغ ابن زياد قصر الإمارة ، فدعا مولى له يقال له معقل فأعطاه ثلاثة آلاف درهم وقال له :

ـــ خذ هذه الدراهم واسأل عن مسلم بن عقيل وأعطها له ، وقل له استعن بها على عدوك ، وأظهر له الإخلاص وأتنى بخبره .

ـــ فأخذ معقل الدراهم وجعل يدور فى الكوفة حتى أرشدوه إلى رجل من أنصار الحسين فأتاه وهو يصلى فانتظره حتى إذا ما فرغ من صلاته قام إليه واعتنقه وأظهر له الإخلاص وقال له :

ـــ يا أبا عبد الله ، اعلم أنى رجل شامى وقد أنعم الله على بحب أهل البيت ومعى ثلاثة آلاف درهم وقد أحببت أن ألقى الرجل الذى يبايع الناس لابن بنت رسول الله ، وقد أتيتك لتقبل منى هذه الدراهم وتدخلنى على صاحبك فإنى ثقة من ثقاته

وعندى كتمان أمره .

ـــ يا أخا العرب ، اعزب عن هذا الكلام ، ما لنا ولأهل البيت وما أصاب الذى أرشدك إلى .

فقال معقل :

ـــ إذا كنت لم تطمئن إلى فخذ المواثيق والعهود على .

وراح يحلف بأغلظ الأيمان أنه من أنصار الحسين ، فاطمأن الرجل إليه وأدخله على مسلم . وثق مسلم بمعقل وأخذ عليه البيعة وأخذ المال منه ليشترى به سلاحا ؛ وجعل معقل يتردد على مسلم بن عقيل يأخذ أسراره ، فلما استقصى أخباره دخل على ابن زياد يقص عليه نبأ الذين يتأهبون للانقضاض عليه .

ودعا ابن زياد محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة وعمر بن الحجاج وقال لهم :

ـــ انطلقوا إلى هانئ وأتونى به .

فانطلقوا فوجدوه جالسا على باب داره فقالوا له :

ـــ يا هانئ إن الأمير يدعوك .

فنهض مع القوم حتى دنا من قصر الإمارة فأحس انقباضا كأنما أحس ببعض الذى كان ، فأقبل على أسماء بن خارجة فقال :

ـــ يا أخى إنى خائف من هذا الرجل ، ونفسى تحدثنى ببعض الذى أجده .

ـــ والله ما نخاف عليك منه ، وأنت بحمد الله برىء ، فلا تجعل على نفسك سبيلا .

وساروا حتى دخل على ابن زياد فلما رأى هانئ أعرض عنه ولم يكرمه ، فأنكر هانئ أمره ، فسلم عليه فما رد عليه السلام ، فقال هانئ :

ـــ بماذا ؟ أصلح الله الأمير .

ـــ يا هانئ ، خبيت مسلم بن عقيل وتجمع له الرجال والسلاح وظننت أن ذلك يخفى على .

— معاذ الله ، ما فعلت من ذلك شيئا .

— الذى جاءنى أصدق منك عندى . يا معقل اخرج إليه وكذبه .

فخرج معقل فقال فى سخرية :

— مرحبا بك يا هانئ ، أتعرفنى ؟

— نعم ، أعرفك فاجرا كافرا .

فقال ابن زياد :

— إذا لا تفارقنى أو تأتينى بمسلم .

— والله لو كان تحت قدمى ما رفعتها عنه .

— أدنوه منى .

فأدنوه ، فضربه بحربة على وجهه فشجه على حاجبه وكسر أنفه ، وتناول هانئ سيف شرطى ليسله فدفع عن ذلك ، وقال عبيد الله :

— قد أحل الله لى دمك .

ثم أمر بحبسه فى جانب الدار ، وجاء قومه من بنى مذحج مع عمرو بن الحجاج فوقفوا على باب القصر يظنون أنه قد قتل ، فسمع عبيد الله لهم جلبة فقد كانوا يتصايحون :

— يابن زياد تقتل صاحبنا ولم يخلع طاعة ولم يفرق جماعة ؟! يا هانئ إن كنت حيا فكلمنا ، فقد أتاك قومك مذحج يقتلون عدوك .

فالتفت ابن زياد إلى شريح القاضى وقال له :

— اخرج إليهم وأعلمهم أن صاحبهم حى ، وأن الأمير خبأه لأشياء يسأله عنها . فخرج إليهم وقال لهم :

— صاحبكم جالس مع الأمير يسأله عن أشياء وهذه الساعة يخرج إليكم .

فاطمأنت الجموع على هانئ وقال الناس :

— الحمد لله على السلامة .

وسمع مسلم بن عقيل خبر حبس ابن هانئ فركب ونادى بشعاره !!

— يا منصور يا منصور أمت .

فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة ، وكان معه المختار بن أبى عبيد ، ومعه راية خضراء ، وعبد الله بن نوفل بن الحارث براية حمراء ، فرتبهم ميمنة وميسرة وسار هو فى القلب إلى عبيد الله .

وأسرع أعوان ابن زياد إليه وقالوا وهم يرتجفون :

— جاء مسلم بن عقيل .

فبادر عبيد الله فدخل القصر ومن معه وأغلقوا عليهم الباب ، فلما انتهى مسلم إلى باب القصر وقف بجيشه هناك ، فأشرف أمراء القبائل الذين عند عبيد الله فى القصر ، فأشاروا إلى قومهم الذين مع مسلم بالانصراف ، وتهددوهم وتوعدوهم .

وانسل بعض الأمراء بأمر ابن زياد واندسوا فى الناس وجعلوا يخذلونهم عن ابن عقيل ، فجعلت المرأة تجىء إلى ابنها وأخيها تقول له :

— ارجع إلى البيت ، الناس يكفونك .

ويقول الرجل لابنه وأخيه .

— كأنك غدا بجنود الشام قد أقبلت ، فماذا تصنع معهم ؟!

فراح الناس ينصرفون عن مسلم بن عقيل ، وأخذ جيشه يتقلص حتى لم يبق إلا فى خمسمائة نفس ، ثم تقالوا حتى بقى فى ثلاثمائة ، ثم تقالوا حتى بقى معه ثلاثون رجلا . فصلى بهم المغرب وقصد أبواب كندة فخرج منها فى عشرة .

وفى جوف الظلام انصرف العشرة فبقى وحده ليس معه من يدله على الطريق ولا من يؤانسه بنفسه ، ولا من يأويه إلى منزله ، فذهب على وجهه واختلط الظلام وهو وحده يتردد فى الطريق لا يدرى أين يذهب .

هام مسلم بن عقيل فى وجهه ، وجعل يبحث عن مخبأ يلجأ إليه ، فلم يهتد إلى مكان أمين ، فأعوانه قد تخلوا عنه . وأنصار الحسين بايعوا ليزيد ، وأحس عطشًا فاقترب من دار من الدور الممتدة على طول الطريق ، فرأى امرأة قائمة بالباب تنتظر أوبة ابنها الذى خرج مع الناس ، فاقترب منها وقال لها :

ــ أسقنى ماء .

فدخلت المرأة دارها ثم عادت فسقته ، ودخلت لتعيد الإناء ثم أقبلت تنتظر أوبة ابنها فوجدته لا زال واقفًا أمام بابها ، فقالت :

ــ ألم تشرب ؟!

ــ بلى .

ــ فاذهب إلى أهلك عافاك الله ، فإنه لا يصلح لك الجلوس على بابى ولا أجمله لك .

ــ يا أمة الله ، ليس لى فى هذا البلد منزل ولا عشيرة ، فهل إلى أجر ومعروف وفعل نكافئك به بعد اليوم ؟

ــ يا عبد الله وما هو ؟

ــ أنا مسلم بن عقيل ، كذبنى هؤلاء القوم وغرونى .

ــ أنت مسلم ؟

ــ نعم .

ــ ادخل .

فأدخلته دارها وخبأته فى مخدع خاص وراحت تعد له العشاء ، وأدخلته له فلم يتعش ، وعاد ابنها فرآها تكثر الدخول والخروج على ذلك المخدع فأنكر حالها فقال

لها :

— يا أماه ما أكثر دخولك وخروجك إلى هذا المخدع .

— أعرض عن هذا .

— أخبرينى .

— لا .

— أخبرينى وإلا اقتحمت هذا المخدع .

— يا ولدى وآخذ عليك عهد الله أنك لا تفشى هذا الأمر ؟

— نعم !

— أقسم .

— أعاهد الله أن لا أبيح السر .

— يا ولدى ، هذا مسلم بن عقيل المغرور المخذول قد أخبيته إلى أن يسكن عنه الطلب ، وإياك يا ولدى أن تخون الأمانة .

بات الشاب تلك الليلة يفكر فى أمر مسلم بن عقيل ، وجعلت نفسه توسوس له أن ينكث بعهده ، وأن يفشى السر لابن زياد ، فنى ذلك رضا الأمير وإقبال الدنيا ، واستمرت نفسه تمنيه وتزين له الخيانة حتى إذا ما لاح الخيط الأبيض فى الأفق الشرقى هب من نومه وترك داره وانطلق إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأعلمه أن مسلم بن عقيل فى دارهم .

وكأنما كان بين آل الأشعث وآل طالب عداوة قديمة ، فالأشعث خذل الناس عن الإمام يوم صفين ، وجعدة بنت الأشعث سمت الحسن ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث انطلق إلى دار الإمارة ليرشد أعداء أهل البيت إلى مخبأ مسلم بن عقيل بن أبى طالب .

انطلق عبد الرحمن إلى دار الإمارة فدخل على أبيه وهو عند ابن زياد ، فساره فقال ابن زياد :

— ما الذى سارك به ؟

ـــ أخبرنى بمخبأ مسلم بن عقيل .

فنخس بقضيب فى جنبه وقال :

ـــ قم فأتنى به الساعة .

وبعث ابن زياد صاحب شرطته ومعه عبد الرحمن ومحمد بن الأشعث فى سبعين فارسًا ، وسمع مسلم صهيل الخيل وقعقعة اللجم ، وزعقات الرجال ، فغمغم :

ـــ ما طلب القوم غيرى .

وأطل على القوم فرآهم قد أحاطوا بالدار ، فالتفت إلى المرأة وقال :

ـــ هاتى سيفى .

وقام وشد وسطه بمنطقته وتدرع بدرعه وخرج إلى القوم وهو يهز سيفه ، فقالت له المرأة :

ـــ يا سيدى .. أراك تأهبت للموت !

ـــ والله أجل ، لا بد من الموت .

وخرج إلى القوم وكر عليهم ، وقاتلهم قتال من يعلم قرب نهايته ، وكان مسلم بطلا من صناديد بنى هاشم فجدل منهم رجلا ففروا مذعورين من الدار ، ولكنهم عادوا إليه بقلوب واجفة فهجم عليهم بقلب يائس ، وجدل منهم رجالا فخرجوا من الدار مذعورين ، ثم عادوا إليه يهاجمونه فكر عليهم وقد كشر عن أنيابه وأطل من سيفه المنون ؛ فخرجوا من الدار مذعورين ، ورأوا أنه سيفنيهم إذا عادوا إلى مهاجمة ذلك الليث الكاسر ، فرأوا أن يخدعوه ، فصاح عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث :

ـــ يا مسلم بن عقيل لك الأمان .

كان مسلم من بيت إذا عاهد أوفى ؛ فما كان يدرى أن النكث أصبح طابع العصر ، وإن رأى وعاين نكث الجماهير لعهودهم ، ومكابدته من خذلانهم .

وكان مسلم قد أعياه التعب ؛ فأمكن عبد الرحمن من يده ، فجاءوا ببغلة فأركبوه عليها وسلبوا عنه سيفه ، فلم يبق يملك من نفسه شيئًا ، وأطرق يفكر فتذكر

شيئًا ، فبكى وغمغم :

ـــ إنا لله وإنا إليه راجعون .

فحسب بعض من حوله أن يبكى فرقًا من الموت، ؛ فقالوا له فى سخرية :

ـــ إن من يطلب مثل الذى تطلب لا يبكى إذا نزل به هذا .

ـــ أما والله لستُ أبكى على نفسى ولكن أبكى على الحسين ، وآل الحسين . إنه قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكة .

ثم التفت إلى محمد بن الأشعث فقال :

ـــ إن استطعت أن تبعث إلى الحسين على لسانى تأمره بالرجوع فافعل .

وانطلق مسلم إلى دار الإمارة وهو مثخن بالجراح ، مخضب بالدماء فى وجهه وثيابه ، وهو فى غاية العطش ، وإذا قلة من ماء بارد هنالك ، فأراد أن يتناولها ليشرب منها ، فقال له رجل من الرجال الواقفين بباب ابن زياد :

ـــ والله لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم .

ـــ ويلك يا ابن ناهلة ! أنت أولى بالحميم والخلود فى نار الجحيم منى .

ثم جلس فتساند إلى الحائط من التعب والكلال والعطش ، فبعث رجل مولى له إلى داره فجاء بقلة عليها منديل ومعه قدح ، فجعل يفرغ له فى القدح ويعطيه فيشرب فلا يستطيع أن يسيغه من كثرة الدماء التى تعلو على الماء مرتين أو ثلاثا .

فلما شرب سقطت ثناياه مع الماء فقال :

ـــ الحمد لله لقد كان بقى لى من الرزق المقسوم شربة ماء .

وأدخل على ابن زياد . فلما رأى مسلم تجبره قال :

ـــ السلام على من اتبع الهدى ، وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

فتبسم ابن زياد فقال بعض حجابه :

ـــ يا مسلم أما ترى الأمير ضاحكًا عليك لو قلت السلام عليك أيها الأمير !

ـــ والله ما علمت أن لى أميرًا غير الحسين ، وإنما يسلم عليه بالإمارة من يخاف منه .

— إيه يابن عقيل ، أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتتهم وتفرق كلمتهم وتحمل بعضهم على قتل بعض ؟

— كلا لست لذلك أتيت ، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم ، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب .

— وما أنت وذاك يا فاسق ؟ لم لا كنت تعمل بذلك فيهم إذا أنت بالمدينة تشرب الخمر ؟!

— أنا أشرب الخمر ! والله إن الله ليعلم أنك غير صادق ، وأنك قلت بغير علم ، وأنت أحق بذلك مني ، فإني لست كما ذكرت ، وإن أولى بها مني من يلغ فى دماء المسلمين ولغًا ، ويقتل النفس التى حرم الله بغير نفس ، ويقتل على الغضب والظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئًا .

— يا فاسق ، إن نفسك تمنيك ما حال الله دونك ودونه ، ولم يرك أهله .

— فمن أهله يابن زياد ؟

— أمير المؤمنين يزيد .

— الحمد لله على كل حال ، ورضينا بالله حكمًا بيننا وبينكم .

— كأنك تظن أن لكم فى الأمر شيئًا ؟

— لا والله ما هو بالظن ولكنه اليقين .

— قتلنى الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد فى الإسلام من الناس .

— أما إنك أحق من أحدث فى الإسلام ما لم يكن فيه ، أما إنك لا تدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السيرة ، ولؤم الغلبة ، ولا أحد من الناس أحق بها منك .

وأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسينًا وعليًّا وعقيلا وأخذ مسلم لا يكلمه . ثم قال ابن زياد :

— اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه ثم اتبعوا جسده رأسه .

فقال مسلم :

— يابن الأشعث ، أما والله لولا أنك آمنتنى لما إستسلمت ، قم بسيفك دونى قد أخفرت ذمتك .

فأطرق ابن الأشعث ولم تنفرج شفتاه بكلمة ، فقال ابن زياد :

— أين الرجل الذى ضرب ابن عقيل رأسه وعاتقه ؟

فذهبوا يدعونه ، فقال مسلم :

— دعنى أوصى إلى بعض قومى .

— أوص .

فنظر فى جلساء ابن زياد وفيهم عمر بن سعد بن أبى وقاص فقال :

— يا عمر ، إن بينى وبينك قرابة ، ولى إليك حاجة ، وهى سر فقم معى إلى ناحية القصر حتى أقولها لك .

فأبى أن يقوم معه حتى أذن له ابن زياد ، فقام فتنحى قريبًا من ابن زياد فقال له مسلم :

— إن علىّ دينًا فى الكوفة سبعمائة درهم فاقضها عنى واستوهب جثتى من ابن زياد فوارها ، وابعث إلى الحسين ، فإنى كنت قد كتبت إليه أن الناس معه ولا أراه إلا مقبلا .

فالتفت عمر إلى ابن زياد وقال :

— أتدرى ما قال لى ؟

ثم راح يذيع وصية مسلم له فقال له ابن زياد :

— إنه لا يخونك الأمين ، ولكن قد يؤتمن الخائن ، أما مالك فهو لك ولسنا نمنعك أن تصنع فيه ما أحببت ، وأما حسين فإنه إن لم يردنا لم نرده وإن أرادنا لم نكف عنه .

فقال عمر بن سعد :

— أما الحسين فلا بد أن يقدم علينا ونذيقه الموت غصة .

فقال ابن زياد لعمر :

— قبحك الله من مستودع سرا ، والله لو أنه باح إلى بسره لكتمت عليه وقضيت حاجته ، ولكن من حيث أفشيت سره فلا يخرج لحرب الحسين غيرك .

وجاء الرجل الذى طلبه ابن زياد فقال له :

— أنت تقتله .

وأصعد مسلم إلى أعلى القصر وهو يكبر ويهلل ، ثم التفت إلى الرجل وقال له :

— دعنى أصل ركعتين ، وافعل ما بدا لك .

— ليس إلى ذلك سبيل .

فقال مسلم :

جزى الله عنا شر ما جزى ... شرار الموالى بل أعق وأظلما
هم منعونا حقنا وتظاهروا ... علينا وراموا أن نذل ونرغما
أغاروا علينا يسفكون دماءنا ... ولم يرقبوا فينا زمامًا ولا دما
فنحن بنو المختار لا خلق مثلنا ... نبى أبت أركانه أن تهدما

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

— اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا .

٥٠

انطلق الحسين وأهله ومواليه ، وكان لا يمر بماء من مياه العرب إلا اتبعوه حتى إذا بلغ الحاجز من بطن ذى الرمة بعث قيس بن مسهر الصيداوى إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علىّ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إلٰه إلا هو ، أما بعد ، فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءنى يخبرنى فيه بحسن رأيكم ، واجتماع ملئكم على نصرنا ، والطلب بحقنا ، فنسأل الله أن يحسن لنا الصنيع ، وأن يثيبكم على

ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذى الحجة يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولى فاكتموا أمركم ، وجدوا فإنى قادم عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وأقبل قيس بكتاب الحسين إلى الكوفة حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذه الحصين ابن نمير فقد بعثه ابن زياد فى أربعة آلاف فارس لما علم بخروج الحسين ، فبعث به إلى عبيد الله بن زياد فلما وصل إليه شاء أن يذله بأن يرغمه على سب من أوفده رسولا ، فقال له :

ـــ يا فتى ، اصعد إلى أعلى القصر فسب الكذاب ابن الكذاب علىّ بن أبى طالب وابنه الحسين .

فصعد الفتى إلى أعلى القصر ، فاجتمع الناس ينظرون ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ أيها الناس ! هذا الحسين بن علىّ خير خلق الله ، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته بالحاجز من بطن ذى الرمة ، فأجيبوه واسمعوا له وأطيعوا .

ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ، واستغفر لعلىّ والحسين ، فأمر به ابن زياد فألقى من رأس القصر فتقطع .

وقضى أناس الحج فلم يكن لهم هم إلا اللحاق بالحسين ، وأدركوه وقد مر برجل قادم من العراق ، فهم الحسين أن يكلمه ويسأله ثم ترك ، فجاءوا ذلك الرجل فسألوه عن أخبار الناس فقال :

ـــ والله لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة ورأيتهما يجران بأرجلهما فى السوق .

فلحقوا الحسين فأخبروه ، فبان الأسى فى وجهه وقال :

ـــ إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرحمة الله ورضوانه عليهما .

ـــ يا أبا عبد الله ، إلا ما رجعت من موضعك هذا فليس لك فى الكوفة ناصر

ولا معين .

فوثب عند ذلك بنو عقيل بن أبى طالب وقالوا :

ــ لا والله لا نرجع حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا .

فقال الحسين :

ــ لا خير فى الحياة بعد هؤلاء الفتية .

فعلم الملأ أنه عازم على المسير ولن يثنيه عن عزمه شىء ، كان الحسين يعرف هدفه وغايته ، كان على يقين من أن موته سيزلزل أركان دولة الظلم والجور ، فانطلق إلى الموت راضى النفس لا تداخله ذرة من شك فى مصيره وفيما هو سائر إليه .

وسار الحسين حتى إذا كان بزرود بلغه أيضًا مقتل الذى بعثه بكتابه إلى أهل الكوفة ، فغمغم :

ــ خذلتنا شيعتنا .

وراح يفكر فى أمر الناس الذين انضموا إليه فى سيره ، إنهم ما تبعوه إلا وهم يظنون أن العراق له وفى قبضته ، ولكنه قادم على الموت ، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون ، فقام فخطبهم :

ــ أيها الناس ، إنما جمعتكم على أن العراق فى قبضتى ، وقد جاءنى خبر صحيح أن مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة قتلا وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن كان منكم يصبر على ضرب السيوف وطعن الرماح وإلا فلينصرف من موضعه هذا . فليس عليه من ذمامى شىء .

فسكتوا جميعا ، ثم تفرقوا عنه أيادى سبا ، يمينا وشمالا ، حتى بقى فى أصحابه الذين خرجوا معه من مكة ، بقى فى أهله ومواليه وهم نيف وسبعون رجلا ، فنظر إليهم كأنما يسألهم رأيهم فقالوا فى حزم أكيد :

ــ والله ما نرجع حتى نأخذ بثأرنا أو نذوق الموت غصة بعد غصة .

وكان السَّحَر فأمر الحسين فتيانه أن يستقوا من الماء ويكثروا منه ، وجلس يقرأ

القرآن والدموع تسيل على خديه ولحيته ، ودخل عليه رجل فقال :

— بأبى وأمى يابن بنت رسول الله ، ما أنزلك هذه البلاد والفلاة التى ليس بها أحد ؟

— هذه كتب أهل الكوفة إلىّ ولا أراهم إلى قاتلى ، فإذا فعلوا ذلك لم يدعوا لله حرمة إلا انتهكوها ، فيسلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قرم الأمة .

ورحل الحسين ومن معه ، فساروا إلى صدر النهار ، فسمع الحسين رجلا يكبر فقال له :

— مم كبرت ؟

— رأيت النخيلة .

فقال رجلان من أصحابه :

— إن هذا المكان لم ير أحد منه نخيلة .

فقال الحسين :

— فماذا تريانه رأى ؟

— هذه الخيل قد أقبلت .

— أما لنا ملجأ نجعله فى ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ؟

— بلى ، ذو حسم .

فأخذ ذات اليسار إليها فنزل ، وأمر بأبنيته فضربت ، وجاء القوم وهم فى ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمى ، وهم مقدمة الجيش الذين بعثهم ابن زياد .

وفى نحو الظهيرة ، وقف جيش الحر أمام الحسين ، فهب أصحاب الحسين وفى أيديهم السيوف ، فاقترب الحر من الحسين فقال :

— يا أبا عبد الله اسقنا الماء .

فقال الحسين لأصحابه :

— اسقوا القوم وارووا خيلهم .

واقترب من رجل منهم وقال له فى رقة :

— يابن الأخ ، أنخ الجمل وافتح الراوية واشرب واسق راحلتك .

ودخل وقت الظهر فأمر الحسين رجلا من أصحابه فأذن ، ثم خرج الحسين فى إزار ورداء ونعلين وقال :

— أيها الناس ، إن رسول الله ﷺ قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله مخالفا لسنة رسول الله ﷺ ، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله ، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود واستأثروا بالفئ ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غير . وقد أتتنى كتبكم وقدمت على رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلمونى ولا تخذلونى فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، فأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم فى أسوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم فلعمرى ما هى لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

والتفت إلى الحر وقال له :

— تريد أن تصلى بأصحابك ؟

— لا . ولكن صل أنت ونحن نصلى وراءك .

وانتهت الصلاة فقال الحر للحسين :

— إنا لا ندرى ما هذه الكتب ، ولا من كتبها .

فأحضر الحسين خرجين مملوءين كتبا فنثرها بين يديه وقرأ منها طائفة . فقال الحر :

— لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك فى شىء ، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك إلى عبيد الله بن زياد .

ــ الموت أدنى من ذلك .

ثم قال الحسين لأصحابه :

ــ اركبوا .

فركبوا وركب النساء ، فلما أراد الانصراف حال القوم بينه وبين الانصراف فقال الحسين للحر :

ــ ثكلتك أمك ، ماذا تريد ؟

ــ أما والله لو غيرك يقولها لى من العرب وهو على مثل الحال التى أنت عليها لأقتصن منه ، ولما تركت أمه ، ولكن لا سبيل إلى ذكر أمك إلا بأحسن ما نقدر عليه .

وتقاوم القوم وتراجعوا فقال له الحر :

ــ إنى لم أومر بقتالك ، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد ، فإذا أبيت فخذ طريقًا لا يقدمك الكوفة ولا تردك إلى المدينة ، واكتب أنت إلى يزيد ، وأكتب أنا إلى ابن زياد إن شئت ، فلعل الله يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشىء من أمرك .

فأخذ الحسين يسارًا عن طريق العذيب والقادسية ، والحر يسايره وهو يقول له :

ــ يا حسين ، إنى أذكرك الله فى نفسك ، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن .

ــ أفبالموت تخوفنى ؟ ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فقال : أين تذهب فإنك مقتول ؟ فقال :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى حقًا وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق خوفا أن يعيش ويرغما

فلما سمع ذلك الحر منه ، تنحى عنه وجعل يسير بأصحابه ناحية عنه . وأقبل أربعة نفر من الكوفة على رواحلهم يخبون يقصدون الحسين ، وراح الدليل ينشد :

يا ناقتى لا تذعرى من زجرى وشمرى قبل طلوع الفجر
بخير ركبان وخير سفر حتى تحلى بكثير الفخر
الماجد الحر رحيب الصدر أثابه الله بخير أجر
ابن أمير المؤمنين الطهر وابن الشفيع من عذاب الحشر
يا مالك النفع معا والضر أيد حسينا سيدى بالنصر
على اللعينين سليلى صخر وابن زياد العهر وابن العهر

وأراد الحر أن يحول بينهم وبين الحسين فقال له الحسين :

ــ ألم تكن قد عاهدتنى أن لا تتعرض لأحد من أصحابى ، فإن كنت على ما بينى وبينك وإلا نازلتك فى ميدان الحرب .

فكف عنهم الحر ، وذهبوا إلى الحسين فاستقبلهم وقال لهم :

ــ أخبرونى عن الناس وراءكم .

ــ أما أشراف الناس فهم إلب واحد عليك ، وأما سائر الناس فأفئدتهم تهوى إليك ، وسيوفهم غدا مشهورة عليك .

وتلفت رجل منهم وقال :

ــ انظر فما معك ، لا أرى معك أحدًا إلا هذه الشرذمة اليسيرة ، وإنى لأرى هؤلاء القوم الذين يسايرونك أكفاء لمن معك . فكيف وظاهر الكوفة مملوء بالخيل والجيوش يعرضون ليقصدوك ، فأنشدك الله ، إن قدرت أن لا تتقدم إليهم شبرًا فافعل .

فقال الحسين فى هدوء :

ــ جزاك الله خيرًا .

ولم يرجع الحسين عما اعتزمه ، فلما كان من الليل أمر فتيانه أن يستقوا من الماء كفايتهم ، ثم سرى فنعس فى مسيره حتى خفق برأسه،واستيقظ وهو يقول:

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون .

فأقبل عليه ولده علىّ وقال :

— يا أبت ، لم استرجعت لا أراك الله سوءًا ؟

— يا ولدى خفقت خفقة فرأيت فارسًا وهو يقول : القوم يسيرون والمنايا تسير بهم .

— يا أبت ألسنا على الحق ؟

— بلى ، نحن والله على الحق .

— إذًا والله لا نبالى .

٥١

دعا ابن زياد عمر بن سعد فقال :

— سر إلى الحسين ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك .

— إن رأيت رحمك الله أن تعفينى فافعل .

— نعم على أن ترد لنا عهدنا .

فأطرق عمر بن سعد قليلا ثم قال :

— أمهلنى اليوم حتى أنظر .

وانصرف عمر وهو مبلبل الفكر لا يريد أن يتصدى للحسين ، وابن زياد لن يقبل منه أن يتخلى دون أن يوغر ذلك صدر الأمويين عليه ، وانصرف عمر يستشير نصحاءه فجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة ، وهو ابن أخته فقال له :

— أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم بربك وتقطع رحمك ، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها ، لو كان لك ، خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين .

— فإنى أفعل إن شاء الله .

وظل عمر بن سعد فى حيرته فما وجد رجلا واحدا ينصحه بالخروج إلى الحسين ، إنه كان خارجا لقتال الديلم قبل ورود أنباء مسير الحسين ، فيا ليته

خرج ، إذًا لعرف مواقع أقدامه ، أما أن يخرج لابن بنت النبى الكريم الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذى رفعهم إلى ما هم فيه ، وجعلهم سادة وحكاما ففى ذلك الضلال البعيد .

مر اليوم وعمر بن سعد فريسة لأفكاره ، ودخل على ابن زياد فانهارت مقاومته جميعا وقال :

— أصلحك الله إنك وليتنى هذا العمل و كتبت لى العهد وسمع به الناس ، فإن رأيت أن تنفذ لى ذلك فافعل ، وابعث إلى الحسين فى هذا الجيش من أشراف الكوفة من لست بأغنى ولا أجزأ عنك فى الحرب منه .

فسمى له أناسا ، فقال له ابن زياد :

— لا تعلمنى بأشراف أهل الكوفة ، ولست أستأمرك فيمن أريد أن أبعث إن سرت بجندنا وإلا فابعث إلينا بعهدنا .

فأطرق عمر بن سعد وقال :

— فإنى سائر .

وخرج عمر بن سعد يندب الناس إلى الحسين ، وأتاه من نصحوه بعدم الخروج فأعرض عنهم بوجهه ، فتركوه آسفين ، فقد باع عمر بن سعد دينه بدنياه .

* * *

ثار النقع ، وأقبل راكب على نجيب له وعليه السلاح ، متنكب قوسا ، مقبل من الكوفة ، فوقفوا جميعًا ينتظرونه ، فلما انتهى إليهم سلم على الحر بن يزيد وأصحابه ، ولم يسلم على الحسين وأصحابه ، فدفع إلى الحر كتابا من عبيد الله بن زياد ، فإذا فيه :

« أما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابى ويقدم عليك رسولى ، فلا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى والسلام » .

فالتفت الحر إلى الحسين وأصحابه وقال :

— هذا كتاب الأمير عبد الله بن زياد يأمرنى فيه أن أجعجع بكم فى المكان الذى يأتينى فيه كتابه ، وهذا رسوله وقد أمره أن لا يفارقنى حتى أنفذ رأيه وأمره .

فنظر رجل من أصحاب الحسين إلى الرسول وقال له :

— ثكلتك أمك ، ماذا جئت فيه ؟!

— وما جئت فيه ؟ أطعت إمامى ووفيت بيعتى .

— عصيت ربك ، وأطعت إمامك فى هلاك نفسك ، كسبت العار والنار . قال الله عز وجل : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ . فهو إمامك .

وأخذ الحر بن يزيد القوم بالنزول فى ذلك المكان على غير ماء ولا فى قرية ، فقالوا :

— دعنا ننزل فى هذه القرية أو هذه القرية أو هذه الأخرى .

— لا والله ما أستطيع ذلك ، وهذا رجل قد بعث إلى عينا .

فاقترب رجل من أصحاب الحسين وقال له :

— إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا من بعدهم . فلعمرى ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به .

— ما كنت لأبدأهم بالقتال .

— سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنها حصينة وهى على شاطئ الفرات ، فإن منعونا قاتلناهم فقتالهم أهون علينا من قتال من يجيئ بعدهم .

فرفض الحسين ونزل كربلاء كأنما كانت أرضه تناديه .

وسار عمر بن سعد بجيشه حتى نزل قبالة الحسين ، فدعا رجلا من رجاله وقال له :

— ائته فسله ما الذى جاء به ؟ وماذا يريد ؟

فاستحيا الرجل أن يذهب إلى الحسين ؟ فقد كان ممن كتب إليه ، فعرض عمر ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه ، فكلهم أبى وكره . وقام إليه كثير بن عبد الله

الشعبى فقال :

— أنا أذهب إليه ، والله لئن شئت لأفتكن به .

— ما أريد أن تفتك به ، ولكن ائته فسله ما الذى جاء به .

فأقبل إليه ، فلما رآه أحد أصحاب الحسين قال :

— أصلحك الله أبا عبد الله ؛ قد جاءك شر أهل الأرض .

فقام صاحب الحسين إليه فقال :

— ضع سيفك .

— لا والله ولا كرامة ، إنما أنا رسول ، فإن سمعتم منى أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، وإن أبيتم انصرفت عنكم .

— فإنى آخذ بقائم سيفك ثم تكلم بحاجتك .

— لا والله لا تمسه .

— أخبرنى ما جئت به أنا أبلغه عنك ولا أدعك تدنو منه فإنك فاجر .

فاستبّا وانصرف كثير إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر ؛ فدعا عمر قرة بن قيس الحنظلى فقال له :

— ويحك يا قرة ! الق حسينًا فسله ما جاء به وماذا يريد ؟

فأتاه قرة بن قيس ، فلما رآه الحسين مقبلا التفت إلى أصحابه وقال :

— أتعرفون هذا ؟

— نعم ، هذا رجل من حنظلة وهو ابن أختنا . ولقد كنت أعرفه بحسن الرأى ، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد .

فجاء قرة حتى سلم على الحسين ، وأبلغه رسالة عمر بن سعد ، فقال الحسين :

— كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم ، فأما إذ كرهونى ، فأنا أنصرف عنهم .

والتفت حبيب بن مظاهر إلى قرة وقال :

— ويحك يا قرة بن قيس ، أنى ترجع إلى القوم الظالمين ، انصر هذا الرجل الذى بآبائه أيدك الله بالكرامة وإيانا معك .

— أرجع إلى صاحبى بجواب رسالته ، وأرى رأيى .

وكتب ابن سعد إلى ابن زياد كتابا بما قال الحسين ، وأوفد إليه رسولا . وصار ابن سعد يخرج كل ليلة ويبسط بساطا ويدعو الحسين ويتحدثان حتى يمضى من الليل شطره .

ودخل رسول عمر بن سعد على ابن زياد ، فلما قرأ الكتاب قال :

الآن إذ علـــقت مخالبنـــا به   يرجو النجاة ولات حين مناص

كتب إلى ابن سعد .

«أما بعد،فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت ،اعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه ، فإن أطاع وإلا فحل بينه وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالنقى الزكى المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان » .

فلما بلغت هذه الرسالة عمر بن سعد قال :

— قد حسبت ألا يقبل ابن زياد العافية .

وبعث عمر بن سعد رجالا ليحولوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء . فقد كان ابن سعد يعلم علم اليقين أن الحسين لن يبايع ليزيد وإن ذاق الموت غصة بعد غصة .

وأصبح الصباح فرأى الحسين أن القوم قد حالوا بينه وبين الماء ، فدعا راحلته فركبها ، وأقبل على القوم ونادى :

— أيها الناس أنصتوا لى ، انسبونى من أنا ثم راجعوا أنفسكم ، هل يحل لكم قتلى وأنا ابن بنت نبيكم ، وابن صفيه وأول المؤمنين والمصدق بالله ورسوله وبما جاء به من عند الله . أليس حمزة سيد الشهداء عم أبى ، أوَليس جعفر الطيار فى الجنة عمى ، أوَما بلغكم قول جدى لى ولأخى الحسن : «هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ وقال : إنى مخلف فيكم الثقيلين ، كتاب الله وعترتى أهل بيتى .

ويلك يا شبث بن ربعى ، ويا كثير بن شهاب ويا فلان ويا فلان ، ألم تكتبوا إلى أن أقدم علينا لك ما لنا وعليك ما علينا ؟.

— لم نفعل شيئا من ذلك .

— إذا كرهتمونى دعونى أنصرف إلى ما شئت من الأرض .

فقال قيس بن الأشعث :

— انزل على حكم الأمير ابن زياد فما ترى إلا ما تحب .

— والله لا أعطى بيدى إعطاء الذليل ، ولا أفر فرار العبيد . ﴿ إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ .

* * *

جلس ابن زياد وعنده شمر بن ذى الجوشن وكان من أعدى أعداء أهل البيت .

فجعل يوغر صدره على الحسين ويحرضه على البطش به ويقول :

— والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت فأنت ولى العقوبة ، وإن غفرت كان ذلك لك .

— نعم ما رأيت .. الرأى رأيك .

وكتب عبد الله بن زياد إلى عمر بن سعد :

« أما بعد فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ولا تمنيه السلامة والبقاء ، ولا تقعد له عندى شافعًا ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم ، وليس دهرى فى هذا أن يضر بعد الموت شيئا ، ولكن على قول لو قد قتلته فعلت هذا به ، إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا ، وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر ، فإنا قد أمرناه بأمرنا والسلام » .

ودفع ابن زياد بالكتاب إلى شمر فقام هو وعبد الله بن أبى المحل وكانت عمته عند علىّ بن أبى طالب فولدت له العباس وعبد الله وجعفر وعثمان ، فقال عبد الله بن أبى

المحل .

ـــ أصلح الله الأمير ، إن بنى أختنا مع الحسين ، فإن رأيت أن تكتب لهم أمانًا فعلت .

ـــ نعم ونعمة عين .

فأمر كاتبه فكتب لهم أمانًا. فلم يستطع عبد الله بن أبى المحل أن يصبر حتى يقدم على الحسين فبعث بالأمان مع مولى له ، فانطلق يغذ فى السير حتى إذا ما نزل معسكر الحسين دعاهم فقال :

ـــ هذا أمان بعث به خالكم .

ـــ أقرئ خالنا السلام ، وقل له أن لا حاجة لنا فى أمانكم ، أمان الله خير من أمان بنى سمية .

وأقبل شمر بن ذى الجوشن بكتاب عبيد الله بن زياد ، فلما قرأه عمر بن سعد قال :

ـــ مالك ، ويلك لا قرب الله دارك ، وقبح الله ماقدمت به على ، والله إنى لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به إليه ، فأفسدت علينا أمرنا . كنا رجونا أن يصلح . لا يستسلم الحسين أبدًا . إن نفسًا أبية لبين جنبيه .

ـــ أخبرنى ما أنت صانع ؟ أتمضى لأمر أميرك وتقتل عدوه ؟ وإلا فخل بينى وبين الجند والعسكر .

ـــ لا .. لا كرامة لك .. وأنا أتولى ذلك .

ـــ فدونك وكن أنت على الرجال .

وجاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين فقال :

ـــ أين بنو أختنا ؟

فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو على وقالوا له :

ـــ مالك ؟ وما تريد ؟

ـــ أنتم يا بنى أختى آمنون .

— لعنك الله ولعن أمانك ، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له ؟

ونادى عمر بن سعد :

— يا خيل الله اركبى وأبشرى .

وجلس الحسين بعد أن صلى العصر أمام بيته محتبيا بسيفه ، إذ خفق برأسه على ركبتيه ، وارتفع صهال الخيل وقعقعة السلاح ، فخرجت أخته زينب إليه واقتربت منه وقالت :

— يا أخى ، أما تسمع الأصوات قد اقتربت ؟

فرفع الحسين رأسه وقال :

— إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى : إنك تروح إلينا . فلطمت زينب وجهها وقالت فى التياع :

— يا ويلتا .

— ليس لك الويل يا أخيتى ، اسكتى رحمك الله .

وهرع العباس بن على إليه وقال :

— يا أخى القوم .

فنهض ثم قال :

— يا عباس ، اركب — بنفسى أنت يا أخى — حتى تلقاهم فتقول لهم مالكم ؟ وما بدا لكم ؟ وتسألهم عما جاء بهم .

فأتاهم العباس فاستقبلهم فى نحو من عشرين فارسا ، فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر فقال لهم العباس :

— ما بدا لكم وما تريدون ؟

— جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننازلكم .

— فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبى عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم .

— القه فأعلمه ذلك والقنا بما يقول .

فانصرف العباس راجعا يركض إلى الحسين يخبره بالخبر ووقف أصحابه

يخاطبون القوم ، فقال حبيب بن مظاهر لزهير :

— كلم القوم إن شئت وإن شئت كلمتهم .

— أنت بدأت بهذا فكن أنت تكلمهم .

فقال حبيب :

— أما والله لبئس القوم عند الله غدًا قوم يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيه عليه السلام وعترته وأهل بيته ﷺ ، وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين الله كثيرًا .

فقال له عزرة بن قيس :

— إنك لتزكى نفسك ما استطعت .

— يا عزرة إن الله قد زكاها وهداها فاتق الله يا عزرة فإنى لك من الناصحين ، أنشدك الله يا عزرة أن تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكية .

— يا زهير ، ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت ، إنما كنت عثمانيا .

— أفلست تستدل بموقفى هذا أنى منهم ، أما والله ما كتبت إليه كتابا قط ، ولا أرسلت إليه رسولا قط ، ولا وعدته نصرتى قط ، ولكن الطريق جمع بينى وبينه فلما رأيته ذكرت به رسول الله ﷺ ومكانه منه ، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم فرأيت أن أنصره وأن أكون فى حزبه وأن أجعل نفسى دون نفسه حفظا لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله عليه السلام .

وأقبل العباس بن علىّ يركض حتى انتهى إليهم فقال :

— يا هؤلاء إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية حتى ينظر فى هذا الأمر ، فإن هذا أمر لم يجر بينكم وبينه فيه منطق ، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله فإما رضينا فأتينا بالأمر الذى تسألونه وتسومونه أو كرهنا فرددناه .

فالتفت عمر بن سعد إلى شمر وقال :

— ما ترى يا شمر ؟

— ما ترى أنت ؟ أنت الأمير والرأى رأيك .

— قد أردت ألا أكون .

ثم أقبل على الناس فقال :

— ماذا ترون ؟

— سبحان الله ، والله لو كانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغى لك أن تجيبهم إليها .

٥٢

وأقبل الليل فدخل الحسين ليعود عليا ، ابنه المريض ، ثم خرج وجمع أصحابه وقال :

— أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء،وأحمده على السراء والضراء،اللهم إنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارًا وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين ، أما بعد ، فإنى لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرًا من أصحابى ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى ، فجزاكم الله عنى جميعًا خيرًا ، وألا وإنى أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، ألا وإنى قد رأيت لكم فانطلقوا جميعًا فى حل ليس عليكم منى ذمام . هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملا ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتى ، ثم تفرقوا فى سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله ، فإن القوم إنما يطلبونى ، ولو قد أصابونى لَهَوْا عن طلب غيرى .

فقال أخوه العباس :

— لم نفعل ؟ لنبقى بعدك ؟! لا أرانا الله ذلك أبدًا .

فالتفت إلى بنى عقيل وقال :

— يا بنى عقيل ، حسبكم من القتل بمسلم . اذهبوا قد أذنت لكم .

— فما يقول الناس ؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبنى عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف

وما ندرى ما صنعوا ؟ لا والله لا نفعل ، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا ، ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك .

فقام إليه رجل من أنصاره فقال :

— أنحن نخلى عنك ولما نعذر إلى الله فى أداء حقك ؟ أما والله حتى أكسر فى صدورهم رمحى ، وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى ، ولا أفارقك ، ولو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك .

وقال آخر :

— والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك ، والله لو علمت أنى أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ثم أذر ، يفعل ذلك بى سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامى دونك ، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هى قتلة واحدة ثم هى الكرامة التى لا انقضاء لها أبدًا .

واعتزل الحسين بأصحابه فى خباء له ، وعنده مولى أبى ذر الغفارى وهو يعالج سيفه ويصلحه والحسين يقول :

يا دهر أف لك من خليل   كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل   والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمــر إلى الجليــل   وكل حى سالك السبيــل

فأعادها مرتين أو ثلاثا ، فبلغت أذنى علىّ بن الحسين وهو مريض ، فخنقته عبرته ، فرد دمعه ولزم السكون ، فقد علم أن البلاء قد نزل ، أما زينب فقد كانت تمرض عليًّا فسمعت ما سمع فأحست كأن سكينا يتطع أحشاءها فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها وإنها لحاسرة حتى انتهت إليه فقالت :

— واثكلاه ! ليت الموت أعدمنى الحياة ، اليوم ماتت فاطمة أمى ، وعلىّ أبى وحسن أخى ، يا خليفة الماضى ، وثمال الباقى .

فنظر إليها الحسين وهو يغالب ما يعتمل فى صدره وقال :

— يا أخية ، لا يذهبن حلمك الشيطان .

— بأبى أنت وأمى يا أبا عبد الله استقتلت نفسى فداك .

فرد غصته ، وترقرقت عيناه وقال :

— لو ترك القطا ليلا لنام .

— يا ويلتا ، أفتغصب نفسك اغتصابا ؟ فذلك أقرح لقلبى وأشد على نفسى .

ولطمت وجهها ، وأهوت إلى جيبها وشقته ، وخرت مغشيا عليها ، فقام إليها الحسين فصب على وجهها الماء ، وقال لها :

— يا أخية ، اتقى الله وتعزى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون وأن أهل السماء لا يبقون . وأن كل شىء هالك إلا وجه الله الذى خلق الأرض بقدرته ، ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد وحده ، أبى خير منى ، وأمى خير منى ، وأخى خير منى ، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة .

يا أخية ، إنى أقسم عليك فأبرى قسمى ، لا تشقى على جيبا ، ولا تخمشى على وجها ، ولا تدعى علىّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت .

ثم جاء بها حتى أجلسها عند علىّ المريض ، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض ، وأن يدخلوا الأطناب بعضها فى بعض ، وأتى بقصب وحطب إلى مكان من ورائهم منخفض كأنه ساقية ، فحفروه فجعلوه كالخندق ثم ألقوا فيه ذلك الحطب والقصب وقالوا :

— إذا عدوا علينا فقاتلونا ألقينا فيه النار كيلا نؤتى من ورائنا .

وراحوا يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ، وأصبح الصباح فعبأ الحسين أصحابه وصلى بهم ، فلما فرغ استدعى بدرع جده رسول الله ، وتعمم بعمامته ، وتقلد بسيف أبيه ذو الفقار ، وخرج إلى أصحابه وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا ، فجعل زهير بن القين فى ميمنة أصحابه ، وحبيب ابن مظاهر فى ميسرة أصحابه ، وأعطى رايته العباس بن علىّ أخاه ، وجعلوا البيوت فى ظهورهم ، وتأهب أصحاب الحسين الأبرار للقتال ، وقد عزموا على أن يذودوا عن الحق وأن يهلكوا دونه .

وركب الحسين دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه ، ورأى جيش عمر بن سعد اللجب قد تأهب لقتال الحفنة المصطفاة من المؤمنين ، فرفع يديه فقال :

— اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدة ، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتفل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك ، وشكوته إليك ، رغبة منى إليك عن سواك ، ففرجته وكشفته فأنت ولى كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل رغبة .

وتأججت النار فى الحطب والقصب الذى وضع ليحمى ظهور الحسين وأصحابه ، فأقبل رجل من جيش عمر بن سعد يركض على فرس كامل الأداة حتى يمر على أبيات القوم ، فإذا هو لا يرى إلا حطبًا تلتهب النار فيه فرجع فنادى بأعلى صوته :

— يا حسين ، استعجلت النار فى الدنيا قبل يوم القيامة .

فقال الحسين :

— من هذا ؟ كأنه شمر بن ذى الجوشن .

— نعم أصلحك الله هو هو .

— يابن راعية المعزى ، أنت أولى بها صليًا .

فقال له رجل من أصحابه :

— يابن رسول الله جعلت فداك ، ألا أرميه بسهم فإنه قد أمكننى وليس يسقط سهم فالفاسق من أعظم الجبارين .

— لا ترمه ، فإنى أكره أن أبدأهم .

وجعل يزيد بن حصين يمزح فى هذه الساعة التى أطل فيها المنون ، فقال له بعض أصحاب الحسين :

— دعنا منك ، والله ما هذه بساعة باطل .

فقال وهو مستبشر :

— والله لقد علم قومى أنى ما أحببت الباطل شابا ولا كهلا ، ولكن والله إنى لمستبشر بما نحن لاحقون ، والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء القوم فيقتلوننا .

وانطلق الحسين إلى القوم ، وصاح بأعلى صوت :

— أيها الناس ، اعلموا أن الدنيا دار فناء وزوال ، متغيرة بأهلها من حال إلى حال . معاشر الناس ، عرفتم شرائع الإسلام ، وقرأتم القرآن ، وعلمتم أن محمدًا رسول الله الملك الديان ، ووثبتم على قتل ولده ظلما وعدوانا ، معاشر الناس أما ترون إلى ماء الفرات يموج كأنه بطون الحيتان ، يشربه اليهود والنصارى والكلاب والخنازير ، وآل رسول الله يموتون عطشا ؟

— أقصر عن هذا الكلام ، فلن تذوق الماء ولا لأحد من أصحابك . بل تذوق الموت غصة .

فعاد إلى أهله ، وقال:

— إن القوم استحوذ عليهم الشيطان ، فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . وأنشأ يقول :

تعـديتم يا شر قوم ببغيكـم ... وخالفتمو فينا النبى محمدا

أما كان خير الخلق أوصاكم بنا ... أمـا كان جدى خير الله أحمدا

أما كانت الزهراء أمى ووالدى ... عليًا أخا خير الأنـام مسددا

لعنتم وأخزيتم بما قد جنـيتم ... ستصلون نارًا حرها قد توقدا

وقال الحسين لرجل من أنصاره :

— امض إلى هؤلاء القوم وذكرهم الله ورسوله عساهم يرجعون عن قتالنا ، وأعلم أنهم لا يرجعون ، ولكن لتكون لى عليهم حجة يوم القيامة .

وخرج زهير بن القين على فرس له ذنوب . شاك فى السلاح ، فقال :

— يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله ، نذار إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد وملة واحدة ما لم يقع بيننا

وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة ، وكنا أمة وأنتم أمة . إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد فإنكم لا تدركون منها إلا بسوء عمر بن سعد ، سلطانهما كله ليسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخل ، ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه وهانئ بن عروة وأشباهه .

فسبوه وقالوا :

ــ والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما .

ــ عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية ، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم .

فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم .

ــ اسكت ، اسكت الله نأمتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك .

فقال له زهير :

ــ يابن البوال على عقبيه ، ما إياك أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين ، فأبشر بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم .

ــ إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة .

ــ أفبالموت تخوفنى ؟ فوالله للموت معه أحب إلى من الخلد معكم .

ثم أقبل على الناس رافعًا صوته فقال :

ــ عباد الله ، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعة محمد ﷺ قوما هراقوا دماء ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم .

فناداه رجل فقال له :

ــ إن أبا عبد الله يقول لك أقبل ، فلعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح

لقومه وأبلغ فى الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء القوم وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ .

٥٣

خرج عبد الله بن عمير من بنى سليم من داره بالكوفة ، فرأى جيوشًا تتأهب ، وقوما بالنخيلة يعرضون فاقترب وسأل :

— ما هذه الجيوش ، وإلى أين وجهتها ؟

— يسرحون إلى حسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

فأطرق قليلا يفكر فى هذا الأمر ، فغمغم :

— والله لو قد كنت على جهاد أهل الشرك حريصا وإنى لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثوابا عند الله من ثوابه إياى فى جهاد المشركين .

وعاد إلى داره يتزود ويتأهب للخروج لنصرة الحسين ، وسألته زوجته أم وهب عن وجهته فأخبرها فقالت :

— أصبت ، أصاب الله بك أرشد أمورك ، افعل وأخرجنى معك .

وفى هجعة الليل انسل من الكوفة وأخذ فى السير حتى نزل كربلاء فانضم عبد الله بن عمير إلى أصحاب الحسين ، ودخلت أم وهب على النساء .

وزحف عمر بن سعد إلى الحسين ، فالتفت الحر بن يزيد إليه ، وكان أول من بعث ابن زياد لمقابلة الحسين ، وقال :

— أصلحك الله ، مقاتل أنت هذا الرجل ؟

— إى والله قتالا أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الأيدى .

— أفمالكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضى ؟

— أما والله لو كان الأمر إلىّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك .

ووقف الحر بن يزيد قليلا يفكر فى أمره ، إنه يعلم أن الحسين مع الحق ، وأن الدنيا مع ابن زياد ، فأخذ يدنو من الحسين قليلا قليلا ، فقال له رجل من قومه :

ـــ ما تريد يابن يزيد ؟ أتريد أن تحمل ؟

فسكت وظل يتقدم فقال الرجل :

ـــ والله إن أمرك لمريب ، والله ما رأيت منك فى موقف قط مثل شىء أراه الآن ، ولو قيل لى من أشجع أهل الكوفة رجلا ما عدوتك ، فما هذا الذى أرى منك ؟

ـــ إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار ، ووالله لا أختار على الجنة شيئا ، ولو قطعت وحرقت .

ثم ضرب فرسه فلحق بحسين عليه السلام ، فلما اقترب منه قال :

ـــ جعلنى الله فداك يابن رسول الله ، أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع ، وسايرتك فى الطريق وجعجعت بك فى هذا المكان ، والله الذى لا إلٰه إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبدا ، ولا يبلغون منك هذه المنزلة ، فقلت فى نفسى لا أبالى أن أطيع القوم فى بعض أمرهم ، ولا يرون أنى خرجت من طاعتهم ، وأما هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التى يعرض عليهم ، ووالله ما ظننت أنهم لا يقبلونها منك ما ركبتها منك ، وإنى قد جئتك تائبا مما كان منى إلى ربى ، ومواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك ، أفترى ذلك لى توبة ؟

ـــ نعم يتوب الله عليك ويغفر لك . انزل .

ـــ أنا لك فارسا خيرا منى راجلا ، أقاتلهم على فرسى ساعة ، وإلى النزول ما يصير آخر أمرى .

ـــ فاصنع يرحمك الله ما بدا لك .

وتقدم الحر الصفوف ثم قال :

ـــ أيها القوم ، ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم ، فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟!

— هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه .

— يا عمر .

وراح الحر يكلم عمر بن سعد فقال عمر :

— قد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلا فعلت .

— يا أهل الكوفة لأمكم الهبل والعبر إذ دعوتموه حتى إذا أتاكم استلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه . أمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه ، وأحطتم به من كل جانب ، فمنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وخلأتموه ونساءه وأصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجارى الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هم قد صرعهم العطش ، بئسما خلفتم محمدا فى ذريته ، لا أسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه .

ووضع سعد سهمه فى كبد قوسه ثم رمى فقال :

— اشهدوا أنى أول من رمى .

وحملت على الحر رجالة للقوم ترميه بالنبل ، فأقبل حتى وقف أمام الحسين ، وسكنت الألسن لتتكلم السيوف ، وليحاول الباطل أن يزهق الحق ، ولكن الباطل كان زهوقا .

وخرج يسار مولى زياد وسالم مولى عبيد الله بن زياد فقالا :

— من يبارز ؟ ليخرج إلينا بعضكم .

فوثب حبيب بن مظاهر ، وبرير بن حضير فقال لهما الحسين :

— اجلسا .

فقام عبد الله بن عمير فقال :

— أبا عبد الله ، رحمك الله ائذن لى فلأخرج إليهما .

فنظر الحسين إليه فرأى رجلا آدم طويلا ، شديد الساعدين ، بعيد ما بين

المنكبين ، فقال :

— إنى لأحسبه للأقران قتالا ، اخرج إن شئت .

فخرج عبد الله بن عمير ، فقالا له :

— من أنت ؟

فانتسب لهما فقالا :

— لا نعرفك؟ليخرج لنا زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو برير بن حضير.

— يابن الزانية، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس. ويخرج إليك أحد من الناس إلا وهو خير منك .

ثم شد بسيفه، فلما رأت أم وهب مبارزة زوجها لرجلين أخذت عمودًا ثم أقبلت نحوه تقول له : — فداك أبى وأمى ، قاتل دون الطيبين ذرية محمد .

فأقبل إليها يردها نحو النساء فأخذت تجاذب ثوبه ، ثم قالت :

— إنى لن أدعك دون أن أموت معك .

فناداها حسين فقال :

— جزيتم من أهل بيت خيرًا ، ارجعى رحمك الله إلى النساء فاجلسى معهن ، فإنه ليس على النساء قتال .

واستمر عبد الله يبارز الرجلين حتى أرداهما فأقبل يرتجز :

إنى امرؤ ذو مرة وعصب ولست بالخوار عند النكب

إنى زعيم لك أم وهب بالطعن فيهم مقدمًا والضرب

ضرب غلام مؤمن بالرب

وخرج رجل من صفوف ابن سعد فقال :

— يا برير بن حضير ، كيف ترى الله صنع بك ؟

— صنع الله والله بى خيرا وصنع الله بك شرا .

— كذبت وقبل اليوم ما كنت كذابا ، هل تذكر وأنا أماشيك فى بنى لوذان وأنت تقول إن عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفا وإن معاوية بن أبى سفيان ضال

مضل ، وإن إمام الهدى والحق علىّ بن أبى طالب ؟

— أشهد أن هذا رأيى وقولى .

— فإنى أشهد أنك من الضالين .

— هل لك فلأ بأهلك ولندع الله أن يلعن الكاذب ، وأن يقتل المبطل ثم اخرج فلأبارزك .

فخرجا فرفعا أيديهما إلى الله يدعوانه أن يلعن الكاذب وأن يقتل المحق المبطل .

وبرز كل واحد منهما لصاحبه فاختلفا ضربتين فضرب الرجل برير بن حضير ضربة خفيفة لم تضره شيئا وضربه برير بن حضير ضربة قدت المغفر وبلغت الدماغ فخر كأنما هو من حالق ، وإن سيف ابن حضير لثابت فى رأسه ، فراح ينضنضه من رأسه ، وحمل عليه رجل آخر فاعتنق بريرًا فاعتركا ساعة ثم إن بريرًا قعد على صدره ، فصاح الرجل .

— أين أهل المصاع والدفاع ؟

فذهب رجل فحمل عليه بالرمح حتى وضعه فى ظهره . ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله .

واستمرت المبارزات فما من رجل خرج لأصحاب الحسين إلا قتل ، فصاح رجل من جيش ابن سعد :

— يا حمقى ، أتدرون من تقاتلون ؟ فرسان المصر ، قوما مستميتين ، لا يبرزن لهم منكم أحد فإنهم قليل . وقل ما يبقون ، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم .

وحمل عمر بن الحجاج فى ميمنة عمر بن سعد من نحو الفرات ، فاضربوا ساعة ثم انصرف ابن الحجاج وأصحابه وارتفعت الغبرة فإذا مسلم بن عوسجة صريع ، فمشى إليه الحسين فإذا به رمق ، فقال :

— رحمك ربك يا مسلم ، منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلو تبديلا .

ودنا منه حبيب بن مظاهر فقال :

ـــ عز على مصرعك يا مسلم ، أبشر بالجنة .

فقال مسلم فى صوت ضعيف :

ـــ بشرك الله بخير .

ـــ لولا أنى أعلم أنى فى أثرك ، لاحق بك من ساعتى هذه ، لأحببت أن توصينى بكل ما أهمك حتى أحفظك فى كل ذلك بما أنت أهل له فى القرابة والدين .

ـــ بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله ، ـــ وأهوى بيده إلى الحسين ـــ أن تموت دونه .

ـــ أفعل ورب الكعبة .

وحمل شمر بن ذى الجوشن فى الميسرة على أهل الميسرة ، فراح عبد الله بن عمير يصول ويجول ، ويجدل الرجال ، وتكاثروا عليه فقتلوه ، وقاتلهم أصحاب الحسين قتالًا شديدًا ، وأخذت خيلهم تحمل وإنما هم اثنان وثلاثون فارسا ، وأخذت لا تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة إلا كشفته ، فلما رأى قائد فرسانهم ما تلقى خيله من هذه العدة اليسيرة بعث إلى عمر بن سعد أن ابعث إليهم الرجال والرماة .

وأقبل المرامية حتى إذا دنوا من الحسين وأصحابه رشقوهم بالنبل ، وشب قتال هائل ، وأخذ رجال ابن سعد لا يقدرون على أن يأتوا الحسين وأصحابه إلا من وجه واحد لاجتماع أبنيتهم وتقارب بعضها من بعض ، فلما رأى ذلك عمر بن سعد أرسل رجالا يقوضونها عن أيمانهم وعن شمائلهم ليحيطوا بهم ، فأخذ أصحاب الحسين يتخللون البيوت فيشدون على الرجل وهو يقوض وينتهب فيقتلونه ويرمونه من قريب ويعقرونه ، فأمر بها عمر بن سعد عند ذلك فقال :

ـــ احرقوها بالنار .

فأخذوا يحرقون ، فقال الحسين :

— دعوهم فليحرقوها فإنهم لو قد حرقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها .

وحمل شمر بن ذى الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين برمحه ونادى :

— على بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله .

فصاح النساء وخرجن من الفسطاط ، وصاح به الحسين :

— ويلك يا شمر ، تريد أن تحرق خيمة رسول الله ؟!

— نعم .

— حرقك الله بالنار .

واقترب رجل من رجال ابن سعد من شمر وقال له :

— سبحان الله ، إن هذا لا يصلح لك ، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين تعذب بعذاب الله وتقتل الولدان والنساء ؟ والله إن قتلك الرجال لما ترضى به أميرك .

— من أنت ؟

وخشى الرجل أن لو عرفه أن يضره عند السلطان ، فقال له :

— لا أخبرك من أنا .

وحمل عليه زهير بن القين فى رجال من أصحابه فشد على شمر بن ذى الجوشن وأصحابه فكشفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها .

وخرجت أم وهب امرأة عبد الله بن عمير تمشى إلى زوجها حتى جلست عند رأسه تمسح عنه التراب وتقول :

— هنيئًا لك الجنة .

فقال شمر بن ذى الجوشن لغلام :

— اضرب رأسها بالعمود .

فضرب رأسها ، فسقطت على صدر زوجها وهس فى أذنيها هاتف كأنما كان ترجيع صوتها .

— هنيئًا لك الجنة .

٥٤

كان أصحاب الحسين يشدون على الأعداء شد الليوث ، وكانوا يجدلون منهم خلقا كثيرا ، ولكن إذا قتل منهم الرجل والرجلان تبين فيهم ، وأؤلئك كثير لا يتبين فيهم ما يقتل منهم ، فلما رأى ذلك أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدى قال للحسين :

— يا أبا عبد الله ، نفسى لك الفداء ، إنى أرى هؤلاء قد اقتربوا منك ، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله ، وأحب أن ألقى ربى وقد صليت هذه الصلاة التى دنا وقتها .

فرفع الحسين رأسه وقال :

— ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين . نعم هذا أول وقتها .

وأذن مؤذن الحسين . فلما فرغ من الأذان نادى الحسين :

— يا عمر بن سعد ، أنسيت شرائع الإسلام ، ألا تكف عنا الحرب حتى نصلى ؟

فلم يجبه عمر ، فناداه الحصين بن نمير :

— يا حسين صل ، فإن صلاتك لا تقبل .

فقال له حبيب بن مظاهر :

— لا تقبل ؟ زعمت الصلاة من آل رسول الله ﷺ لا تقبل ، وتقبل منك يا حمار .

فغضب الحصين من كلامه وبرز إليه وهو يقول :

— يا حبيب ، ابرز إلى ميدان الحرب ، ومكافحة الطعن والضرب .

فالتفت حبيب إلى الحسين وقال :

— إنى أحب أن تتم صلاتى فى الجنة ، وأقرأ جدك وأباك وأخاك منى السلام ، ثم برز وهو يقول :

أنا حبيب وأبى مظاهرُ ... وفارس الهيجاء ليث قسور
أنتم أعـــد عدة وأكثر ... ونحن أوفى منكـم وأصبر
ونحن أعلى حجة وأظهر ... حقا وأتقى منكم وأعذر

وحمل على الحصين وضايقه فى مجاله ، وضربه على أم رأسه ، وقطع خيشوم جواده ، وأرداه إلى الأرض ، وهم أن يأخذ رأسه فحمل عليه أصحابه وتكاثروا عليه فقتلوه .

وهد مقتل حبيب بن مظاهر حسينا وقال :

— أحتسب نفسى وحماة أصحابى .

وجعل الحسين يشهد مصارع الشهداء فبان الإنكسار فى وجهه ، فقام إليه زهير بن القين وقال :

— بأبى أنت وأمى يابن رسول الله ، ما هذا الانكسار الذى أراه على وجهك ؟ ألست تعلم أنَّا على الحق ؟

— بلى وإلٰه الخلق إنى لأعلم علما يقينا أنى وإياكم على الحق والهدى .

— إذا لا نبالى ونحن نصير إلى الجنة ونعيمها .

ثم تقدم أمام الحسين فقال :

— أتأذن لى بالبراز ؟

— ابرز .

فبرز زهير وهو يقول :

أنا زهير وأنا ابن القين ... وفى يمينى مرهف الحدين
أذب بالسيف عن الحسين ... الطاهر ابن الطاهر الجدين

ثم حمل على القوم ولم يزل يقاتل حتى قتل خلقًا كثيرا ، ثم رجع وقال :

— إنى خشيت أن تفوتنى الصلاة ، فصل بنا .

فقام الحسين وصلى بأصحابه صلاة الخوف ، فلما انتهى من صلاته قال :

— هذه الجنة قد فتحت أبوابها،واتصلت أنهارها،وأينعت ثمارها.وزينت قصورها ، وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا معه ، وأبى وأمى يتوقعون قدومكم عليهم ، ويتباشرون بكم ، وهم مشتاقون إليكم ، فحاموا عن دينكم ، وذبوا عن حرم رسول الله وعن إمامكم وابن بنت نبيكم ، فقد امتحنكم الله بنا ، فدافعوا بارك الله فيكم عنا .

فضجوا بالبكاء والنحيب ، وقالوا :

— نفوسنا دون أنفسكم ، ودماؤنا دون دمائكم ، وأرواحنا لكم الفداء ، والله لا يصل إليكم أحد بمكروه وفينا الحياة ، وقد وهبنا للسيوف نفوسنا ، وللطير أبداننا ، فلعله نقيكم زحف الصفوف ، ونشرب دونكم الحتوف ، فقد فاز من كسب اليوم خيرًا .

ثم برز زهير بن القين وهو يرتجز :

أقدم حسينا هاديا مهديا اليوم نلقى جدك النبيا
وحسنا والمرتضى عليا وذا الجناحين الفتى الكميا
وأسد الله الشهيد الحيا

وراح يمشى مشى الوعول ، ويضرب ضرب واثق غير مرتاب ، ويقبل على الموت إقبال صنديد لا يقدر الحياة ، فما بينه وبين الجنة إلا لحظات وحمل عليه رجلان فطعناه ، فسقط يخبط فى دمه ، ويجود بروحه الطاهرة لترجع إلى ربها راضية مرضية .

ورأى أصحاب الحسين أنهم قد كسروا ، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا حسينًا ولا أنفسهم فجعلوا يتنافسون فى أن يقتلوا بين يديه ، فجاءه بطلان فقالا :

— يا أبا عبد الله ، عليك السلام ، حازنا العدو إليك ، فأحببنا أن نقتل بين

يديك ، نمنعك وندفع عنك .

— مرحبًا بكما ، ادنوا منى .

فراحا يقاتلان ليقتلا ، وجاء فتَيَان ودنوا منه وهما يبكيان فقال :

— أى ابنى أخى ما يبكيكما ، فوالله إنى لأرجو أن تكونا عن ساعة قريرى عين .

— جعلنا الله فداك ، لا والله ما على أنفسنا نبكى ، ولكنا نبكى عليك ، نراك قد أحيط بك ولا نقدر على أن نمنعك .

— جزاكما الله يا ابنىْ أخى بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياى بأنفسكما أحسن جزاء المتقين .

وجاء رجل فقام بين يدى حسين فأخذ ينادى :

— يا قوم ، إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . يا قوم لا تقتلوا حسينًا فيسحقكم الله بعذاب وقد خاب من افترى .

— رحمك الله ، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق ، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك ، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين ؟

— صدقت ، جُعلت فداك ، أنت أفقه منى وأحق بذلك ، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا ؟

— رح إلى خير من الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى .

— السلام عليك أبا عبد الله ، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك ، وعرف بيننا وبينك فى جنته .

— آمين آمين .

وتقدم ليقاتل ويُقتل ويلحق بالشهداء والصديقين .

والتفت رجل إلى مولاه وقال :

ــ ما فى نفسك أن تصنع ؟

ــ ما أصنع ! أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله ﷺ حتى أقتل .

ــ ذلك الظن بك ، فتقدم بين يدى أبى عبد الله حتى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه وحتى أحتسبك أنا ، فإنه لو كان معى الساعة أحد أنا أولى به منى بك لسرنى أن يتقدم بين يدى حتى أحتسبه ، فإن هذا يوم ينبغى لنا أن نطلب الأجر فيه بكل ما قدرنا عليه ، فإنه لا عمل بعد اليوم ، وإنما هو الحساب .

ثم التفت إلى الحسين وقال :

ــ يا أبا عبد الله ، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز على ولا أحب إلى منك ، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشىء أعز على من نفسى ودمى لفعلته . والسلام عليك يا أبا عبد الله : أشهد الله أنى على هديك وهدى أبيك .

وخرج وقد كشر عن أنيابه فما خرج له أحد ، فصاح :

ــ ألا رجل لرجل ؟

فأحجموا جميعا فقد كانوا يعرفون أنه أشجع الناس فقال عمر بن سعد :

ــ ارضخوه بالحجارة .

فرمى بالحجارة من كل جانب ، فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره ، ثم شد على الناس ، فمشت فى أجسادهم رعدة فقد كان كل منهم يخشى أن يذوق الموت بغتة ، أما هو فقد كان يرتمى فى أحضان الموت مستريح الضمير ، هادئ البال . ثم إنهم تعطفوا عليه من كل جانب ، فقتل .

وقتل أصحاب الحسين بين يديه ، وكان آخر من بقى من أصحابه سويد بن عمرو فراح يذب عنه ، وخرج على الأكبر ابن الحسين يشد على الناس وهو يقول :

أنا علىّ بن حسين بن علىّ   نحن ورب البيت أولى بالنبى
تالله لا يحكم فينا ابن الدعى

ومر يشد على الناس بسيفه ، فاعترضه رجل فطعنه فصرع ، واحتوله الناس فقطعوه بأسيافهم ، فقال الحسين :

ـــ قتل الله قومًا قتلوك يا بنى ، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول ، على الدنيا بعدك العفاء .

وخرجت زينب ابنة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ كأنها الشمس الطالعة ، وهرعت إليه وهى تقول :

ـــ يا أخياه ويابن أخاه .

وأكبت على أول قتيل من بنى أبى طالب يومئذ ، فجاءها الحسين فأخذ يدها فردها إلى الفسطاط . وأقبل الحسين إلى ابنه ، وأقبل فتيانه إليه فقال :

ـــ احملوا أخاكم .

فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه ، وبرز عبد الله بن مسلم بن عقيل ووقف بإزاء الحسين وقال :

ـــ أتأذن لى بالبراز ؟

ـــ يابنى ، كفاك وأهلك القتل .

ـــ يا عم ، بماذا ألقى جدك محمدًا وقد تركتك ، والله لا كان ذلك أبدًا ، بل أقتل دونك حتى ألقى الله بذلك .

وراح يبارز فكان شبل الأسد ، ورماه رجل بسهم ، فخر صريعًا ينادى :

ـــ واأبتاه ، وانقطاع ظهراه .

فلما نظر الحسين إليه وقد صرع قال :

ـــ اللهم اقتل قاتل آل عقيل .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

وراح أبناء عبد الله بن جعفر يسقطون صرعى بين يدى خالهم ، وزينب أمهم تنظر وقد انفطر كبدها حزنًا على أبنائها الأبرار ، الذين فاضت أرواحهم فى سبيل

نصرة الحق .

وخرج القاسم بن الحسن بن علي ، وكان غلاما كأن وجهه شقة قمر ، في يده السيف ، عليه قميص وإزار ونعلان ، وكان حزم آل أبي طالب يبدو في قسمات وجهه الصغير ، ورآه رجل قُد قلبه من صخر فشد عليه ، فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف ، فوقع الغلام لوجهه فقال :

— يا عماه !

فهد صوته قلب الحسين ، فجلى كما يجلى الصقر ، ثم شد شدة ليث أغضب ، فضرب الرجل بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنها من لدن المرفق ، فصاح ثم تنحى عنه ، وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوه من حسين فاستقبلته بصدورها ، فحركت حوافرها ، وجالت الخيل بفرسانها عليه فتوطأته حتى مات ، وانجلت الغبرة ، فإذا بالحسين قائم على رأس الغلام ، والغلام يفحص برجليه وحسين يقول :

— بُعدًا لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك .

ونظر إلى الوجه الجميل وقال :

— عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، ثم لا ينفعك صوت والله كثر واتره ، وقل ناصره .

ثم احتمله وقد وضع صدره على صدره ، ورجلاه تخطان في الأرض . فجاء به حتى ألقاه مع ابنه عليّ بن الحسين ، وقتلى قد قتلت حوله من أهل بيته .

ونظر الحسين فرأى أهل بيته صرعى ، وأصحابه قتلى ، قطعت رءوسهم وألقيت إليه ، فراح يرقبهم وهو واله حزين ، وأحس الظمأ يضنيه ، فأراد أن يشرب قبل أن يلقى مصرعه ، فركب ودنا من الماء ليشرب فرماه رجل بسهم فوقع في فمه ، ثم انتزع الحسين السهم ثم بسط كفيه فامتلأتا دمًا ، ثم قال :

— اللهم إني أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك .

٥٥

بقى الحسين وحده ، شاهرا سيفه ، يذب عن حياضه ، وما كان مكسورًا قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا ، وأمضى جنانا منه ، ولا أجرأ مقداما . وراحت الرجالة تنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب . وأقبل شمر بن الجوشن فى الرجالة نحو الحسين فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه ، فلن يخلصوا إليه قبل أن يروى أرض كربلاء بدمائهم ، ثم إنهم أحاطوا به إحاطة ، وأقبل إلى الحسين أحمد بن الحسن بن علىّ ، وكان غلاما صغيرا ، فانضم إلى عمه ، وقد غارت عيناه من العطش ، فأخذته زينب ابنة على لتحبسه ، فقال لها الحسين :

ــ احبسيه .

فأبى الغلام وشهر سيفا ليذود عن عمه ، ويموت بين يديه كما مات كل أهله ، وراحت زينب تصيح :

ــ ليت السماء تطابقت على الأرض .

ودنا عمر بن سعد من حسين فقالت :

ــ يا عمر بن سعد،أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر ؟

فغامت عينا ابن سعد بالدموع ، وصرف بوجهه عنها ، وأهوى رجل إلى الحسين بالسيف ، فصاح فيه أحمد بن الحسن :

ــ يابن الخبيثة ، أتقتل عمى ؟

فضربه الرجل بالسيف ، فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلا الجلدة ، فإذا يده معلقة فنادى الغلام .

ــ يا أمتاه .

فأخذه الحسين فضمه إلى صدره وقال :

ــ يابن أخى ، اصبر على ما نزل بك ، واحتسب فى ذلك الخير ، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين ، برسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب وحمزة وجعفر والحسن بن على رضوان الله عليهم أجمعين .

وأقبل إلى أم كلثوم وقال لها :

ــ يا أختاه ، أوصيك بولدى الأصغر خيرًا .

ــ يا أخى ! إن هذا الطفل له ثلاثة أيام ما شرب الماء فاطلب له شربة من الماء .

فأخذ الطفل بين يديه وتوجه نحو القوم وقال :

ــ يا قوم ، قد قتلتم أخى وأولادى وأنصارى ، وما بقى غير هذا الطفل وهو يتلظى عطشا ، فاسقوه شربة من ماء .

وما أتم عبارته حتى أتاه سهم فذبح الطفل من الأذن إلى الأذن ، فجعل الحسين يتلقى الدم بكفيه ويرمى به إلى السماء ويقول :

ــ اللهم إنى أشهدك على هؤلاء القوم ، فإنهم نذروا ألا يتركوا أحدًا من ذرية نبيك .

ورجع بالطفل مذبوحا ودمه يجرى على صدره ، فألقاه إلى أم كلثوم ثم نادى :

ــ يا أم كلثوم ويا زينب ويا سكينة ويا رقية ويا عاتكة ويا صفية . عليكن منى السلام ، فهذا آخر الاجتماع .

فصاحت أم كلثوم :

ــ يا أخى كأنك استسلمت للموت .

ــ يا أختاه ، فكيف لا يستسلم من لا ناصر له ولا معين ؟

ــ يا أخى .. ردنا إلى حرم جدنا .

ــ يا أختاه .. هيهات هيهات .

فرفعت سكينة صوتها بالبكاء والنحيب ، فضمها الحسين إلى صدره وقبلها ومسح دموعها بكمه وقال :

سيطول بعدى يا سكينة فاعلمى منك البكاء إذا الحمام دهانى
لا تحزنى قلبى بدمعك حسرة مادام منى الروح فى جثمان

وخرج وهو يسمع عويل النساء ونحيبهم ، ثم توجه نحو القوم وقال :

ـــ ويلكم ، علام تقاتلونى ؟ على حق تركته أم على سنة غيرتها أم على شريعة بدلتها ؟

ـــ بل نقاتلك بغضا منا لأبيك ، وما فعل بأشياخنا يوم بدر وحنين .

وجعل ينظر يمينا وشمالا فلم ير أحدًا من أنصاره إلا من صافح التراب جنبيه ، فنادى :

ـــ يا مسلم بن عقيل ، ويا هانئ بن عروة ، ويا حبيب بن مظاهر ، ويا زهير بن القين ، يا أبطال الصفا ويا فرسان الهيجا ، مالى أناديكم فلا تجيبون ، وأدعوكم فلا تسمعون . أحالت مودتكم عن إمامكم فلا تنصروه ؟، هذه نساء الرسول لفقدكم قد علاهن النحول ، فقوموا من نومتكم ودافعوا عن حرم الرسول الطغاة اللئام ، ولكن صرعكم والله ريب المنون وإلا لما كنتم عن نصرتى تقصرون ، فها نحن عليكم منتجعون .

وأخذ يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع يتقى الرمية ، ويشد على الخيل وهو يقول :

ـــ أعلى قتلى تحاثون ؟ أما والله لا تقتلون بعدى عبدًا من عباد الله ، الله أسخط عليكم لقتله منى ، وأيم الله إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله إن لو قتلتمونى لقد ألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم .

ومكث الحسين طويلا من النهار كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه ، وكره أن يتولى قتله وعظيم إثمه ، وأقبل شمر بن ذى الجوشن فى نفر نحو من عشرة من رجالة أهل الكوفة قِبل منزل الحسين الذى فيه ثقله وعياله ، فمشى نحوه ، فحالوا بينه وبين رحله ، فقال الحسين :

— ويلكم ، إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد ، فكونوا فى أمر دنياكم أحرارًا ذوى أحساب .

امنعوا رحلى وأهلى من طغامكم وجهالكم .

فقال ابن ذى الجوشن :

— ذلك لك يابن فاطمة .

والتفت شمر إلى رجل شاك فى السلاح وقال له :

— أقدم عليه .

— وما يمنعك أن تقدم عليه أنت ؟

— إلى تقول ذا ؟

— وأنت لى تقول ذا ؟

فاستبا ، فقال الرجل لشمر :

— والله لهممت أن أخضخض السنان فى عينيك .

وأحس الحسين عطشًا شديدًا ، والماء يترقرق فى الفرات أمامه ، فحمل على أعدائه وكشفهم عن المشرعة ، ونزل إلى الفرات ، وكان الفرس عطشان ، فلما أحس ببرودة الماء أرسل رأسه ليشرب فكره أن ينغص عليه شربه ، فصبر حتى شرب الفرس ، فمد يده ليشرب ، وإذا بصائح يصيح :

— يا حسين ، أدرك خيمة النساء فإنها قد هتكت ..

فنفض الماء من يده ، وهرع إلى الخيمة ليذود عن حريمه ، فوجدها سالمة ، فعلم أنها مكيدة من القوم ، فرجع لينطلق إلى الفرات فحالوا بينه وبين الماء .

وثار شمر بن الجوشن لإحجام الناس عن الحسين ، فنادى فيهم :

— ويحكم ، ماذا تنتظرون بالرجل ؟!! اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم .

فحمل عليه من كل جانب ، فضربت كفه اليسرى ، وضرب على عاتقه ، ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو ، وهم ليقوم للقتال ، فلم يقدر فنادى :

— واجداه وامحمداه ، واأبتاه واعلياه ، واأخاه واحسناه ، واغربتاه

واعطشاه ، وَاغوثاه واقلة ناصراه ، أقتل مظلوما وجدى المصطفى ، وأذبح عطشان وأبى علىّ المرتضى ، وأترك مهتوكا وأمى فاطمة الزهراء .

وأغمى عليه وما جرؤ أحد على الدنو منه ، فما كانوا يدرون أمات سيد الشهداء أم لا زال فيه رمق . وتحرك الحسين وغمغم :

— صبرًا على قضائك ، لا إلٰه سواك .

وابتدر إليه أربعون رجلا كل منهم يريد حز نحره ليفوز بجائزة ابن زياد ويبوء بخزى من الله عظيم ، وصاح عمر بن سعد :

— يا ويلكم ، عجلوا عليه .

فدنا منه شبث بن ربعى وبيده السيف ، وطالما شهره مع على بن أبى طالب فى وجه بنى أمية ، ولكنه اليوم يشهره ليحز نحر شهيد كربلاء فرمقه الحسين بطرفه ، فأطرق شبث خزيا ورمى السيف من يده ، وولى هاربا وهو يقول :

— ويحك يابن سعد ، تريد أن تكون بريئًا من قتل الحسين وإهراق دمه ، معاذ الله أن ألقى الله بدمك يا حسين .

وقابله سنان بن أنس وهو يفر وقد بان فى وجهه الندامة والخزى فصاح به :

— ثكلتك أمك وعدمك قومك ، لم رجعت عن قتله ؟

— يا ويلك ، إنه فتح عينيه فى وجهى فأشبهتا عينى رسول الله ، فاستحييت أن أقتل شبيها لرسول الله .

— يا ويلك ، أعطنى السيف فأنا أحق منك بقتله .

وذهب سنان إليه واحتز رأسه ، فسالت دماء الحسين الزكية لتزلزل ملك بنى أمية وتقوض أركانه ، فقد كان الحسين ميتا أخطر منه حيا .

وسلب الحسين ما كان عليه فأخذت سراويله وقطيفته ونعلاه ، ومال الناس على الإبل والخيل وانتهبوها ، وانطلق فرس الحسين يطلب الخيمة ، وصهل ، فلما سمعت زينب صهيله ، أقبلت على سكينة وقالت :

— قد جاء أبوك بالماء .

فخرجت سكينة فرحة بذكر أبيها ، فرأت الجواد عاريا والسرج خاليا من راكبه ، فنظرت فرأت أباها الحبيب مجدلا رأسه بأرض وجثته بأخرى فهتكت خمارها ونادت :

ــ واأبتاه ، واحسيناه ، واقتيلاه ، واغربتاه ، وابعد سفراه ، واطول كرباه ، هذا الحسين بالعرى ، مسلوب العمامة والردا .

فلما سمع باقى الحرم قولها خرجن ينظرن ، فرأين ما يفتت الأكباد ، ويذيب النفوس ، ويقطع نياط القلوب ، فجعلن يلطمن الخدود ويشققن الجيوب ، وصاحت أم كلثوم :

ــ اليوم مات محمد المصطفى ، اليوم مات على المرتضى ، اليوم ماتت فاطمة الزهراء .

وتبادر الرجال إلى نهب النساء ، فدخلوا الخيمة فأخذوا ما كان فيها وأخذوا القناع من رأس زينب ، ونظر رجل إلى علىّ بن الحسين وهو على نطع من الأديم ، وكان مريضا ، فجذب النطع من تحته ورماه إلى الأرض ، وجاء شمر بن ذى الجوشن فرأى علىّ بن الحسين وهو مريض ، فقال :

ــ ألا تقتل هذا ؟

فقال رجل أخذته رقة :

ــ سبحان الله ، أتقتل الصبيان ؟ إنما هذا صبى .

وجاء عمر بن سعد فقال :

ــ ألا لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد ، ولا يعرضن هذا الغلام المريض ، ومن أخذ من متاعهن شيئًا فليرده عليهن .

فما رد أحد شيئًا . وخرجت زينب فلما مرت بأخيها الحسين صريعًا صاحت :

ــ يا محمداه يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السما ، هذا الحسين بالعرا ،

مرمل بالدما ، مقطع الأعضا ، يا محمداه وبناتك سبايا وذريتك ومقتلة تسفى عليها الصبا .

٥٦

وسرح برأس الحسين خولى بن يزيد إلى عبيد الله بن زياد ، فأقبل به خولى فأراد القصر ، فوجد باب القصر مغلقا ، فأتى منزله فوضعه تحت إجانة فى الدار ، ثم دخل البيت ، فأوى إلى فراشه فقالت له زوجه :

— ما الخبر ؟ ما عندك ؟

— جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس الحسين معك فى ألدار .

فقالت المرأة فى غضب :

— ويلك ، جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ ؟! والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت أبدا .

وأذن عمر بن سعد بالرحيل ، فساروا بالسبايا وعلىّ بن الحسين على الجمال بغير غطاء ولا وطاء ، وتركوا الشهداء مطروحين بأرض كربلاء ، أرض سالت بها أزكى دماء ، فى سبيل نصرة الحق ، وانطلقوا حتى خلفوا وراءهم قبلة كل نفس أبية ، لا تقبل أن تنام على ضيم ، أو تخضع لجبروت الظلم والطغيان .

وحملت الرءوس على الرماح ، ودخل الركب الكوفة ، فلما رأت النساء بنات الرسول سبايا ، شققن الجيوب ، ولطمن الخدود ، واقترب أهل الكوفة من أهل البيت وصاروا يطعمون الأطفال بعض الثمر والجوز فصاحت أم كلثوم وقالت :

— يا أهل الكوفة ، الصدقة علينا حرام .

وجعلت تأخذ من أيدى الأطفال وترمى به ، فضج الناس بالبكاء والنحيب .

فقالت أم كلثوم :

— تقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم ، لقد تعديتم علينا عدوانا وظلما عظيما ، وجئتم شيئا فريا تكاد السموات يتفطرن ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا .

وارتفعت صيحة عظيمة ، فالتفت أهل البيت فإذا برأس الحسين منصوب على رمح ، فانهمرت الدموع ، وارتفع النشيج والنحيب حتى لكادت الأكباد تنفلق من البكاء . وران حزن عميق ، وعطلت الأسواق وخرج الناس ينظرون ، وخفقت رايات عمر بن سعد ، وتطلع الناس إلى ذرية رسول الله . فنادت أم كلثوم :

— يا أهل الكوفة ، غضوا أبصاركم عنا ، أما تستحون من الله ورسوله أن تنظروا إلى حرم رسول الله وهن حواسر ؟

فامتلأت العيون بالدموع ، وانقبضت القلوب ، ومالت إلى أهل البيت النفوس ، وتحركت الأحقاد ونبت المقت فى الصدور ، وسيترعرع ذلك المقت على كر الأيام ليزيل ملك آل أبى سفيان .

وجلس ابن زياد للناس ، وقد وفد الوفد عليه فأدخلهم وأذن للناس . وجيء برأس الحسين فوضع بين يديه ، وراح ينكت بقضيب بين ثنيتيه ، وكان عنده زيد ابن أرقم ، فأحس يداً قوية تهصر قلبه ، ولم يستطع أن يكبت ما يعانيه من حزن ، فصاح بابن زياد :

— اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما .

وانفجر الشيخ باكيا ، فقال له ابن زياد فى غضب :

— أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك .

فقام زيد غاضبًا ، وخرج فرأى الناس فقال لهم :

— ملك عبد عبدا ، فاتخذهم تلدا ، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة ، وأمرتم ابن مرجانة ، فهل يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ؟ فرضيتم

بالذل ، فبعدًا لمن رضى بالذل .

ودخل صبيان الحسين وأخواته ونساؤه على عبيد الله بن زياد ، ولبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها ، وتنكرت وحف بها إماؤها . ووقفوا بين يديه فقال على بن الحسين :

ــ سنقف وتقفون ، ونسأل وتسألون ، وأنتم لا تردون لرسول الله جوابا .

فسكت ابن زياد ولم يجبه ، ثم أقبل على النساء وقال :

ــ من هذه ؟

فلم تجبه ، فقال :

ــ من هذه ؟

فقال بعض إمائها :

ــ هذه زينب ابنة فاطمة .

ــ يا زينب بحق جدك كلميني .

ــ ما تريد منا يا عدو الله ورسوله ؟ لقد هتكتنا بين البر والفاجر .

ــ الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم .

ــ الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد ﷺ ، وطهرنا تطهيرًا ، لا كما تقول أنت ، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر .

ــ فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

ــ كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتخاصمون عنده .

فغضب ابن زياد واستشاط ، فقال له رجل عنده :

ــ أصلح الله الأمير ، إنما هى امرأة ، وهل تؤاخذ المرأة بشىء من منطقها ؟ إنها لا تؤاخذ بقول ولا تلام على خطل .

فقال لها ابن زياد :

ــ قد أشفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك .

فبكت ثم قالت :

— لعمرى قد قتلت كهلى ، وأبرت أهلى ، وقطعت فرعى ، واجتثثت أصلى ، فإن يشفـك هذا فقد اشتفيت .

— هذه شجاعة ، قد لعمرى كان أبوك شاعرًا شجاعا .

— ما للمرأة وللشجاعة ، إن لى عن الشجاعة لشغلا، ولكنى نفثنى ما أقول .

فغار علىّ زين العابدين على عمته وقال :

— يابن زياد ، إلى كم تهتك عمتى وتعرفها لمن لا يعرفها ؟

فغضب ابن زياد لكلامه وقال فى حدة :

— ما اسمك ؟

— أنا علىّ بن الحسين ؟

— أوَلم يقتل الله على بن الحسين ؟

فسكت ، فقال له ابن زياد :

— مالك لا تتكلم ؟

— قد كان لى أخ يقال له أيضا علىّ فقتله الناس !

— إن الله قد قتله .

فسكت علىّ ، فقال له :

— مالك لا تتكلم ؟

— الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .

فقال ابن زياد فى ثورة :

— أنت والله منهم ، اقتله .

فقال علىّ بن الحسين :

— من توكل بهؤلاء النسوة ؟!

وتعلقت به زينب عمته ، فقالت :

— يابن زياد حسبك منا ، أما رويت من دمائنا ، وهل أبقيت منا أحدًا ؟؟

فاعتنقته فقالت :

— أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلته لما قتلتنى معه .

ونادى علىّ بن الحسين :

— يابن زياد إن كانت بينك وبينهن قرابة ، فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحبة الإسلام .

فنظر إلى زينب وهى معتنقة علىّ ابن أخيها فقال :

— عجبا للرحم ! والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلتها معه . دعوا الغلام ، انطلق مع نسائك .

ونودى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فى المسجد الأعظم ، فصعد المنبر ابن زياد فقال :

— الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علىّ وشيعته .

فوثب عبد الله بن عفيف ، وكان من شيعة علىّ كرم الله وجهه ، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل فلما كان يوم صفين ضرب على رأسه ضربة وأخرى على حاجبه فذهبت عينه الأخرى ، فكان لا يفارق المسجد ، فلما سمع مقالة ابن زياد صاح :

— يابن مرجانة أنت الكذاب ابن الكذاب ، أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه ، يابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين ، وتتكلمون بكلام الصديقين ؟

فقال ابن زياد :

— على به .

فأحاط رجال ابن زياد به ، فوثب إليه فتية من أهله فانتزعوه فأتوا به منزله .

وظل ابن زياد يذكر مقالة ابن عفيف ، فلما جن الليل بعث ابن زياد رجالا ليأتوه برأسه ، فانطلقوا حتى أحاطوا بداره ، فلما سمعت ابنته صهيل الخيل قالت :

— يا أبتاه ، إن الأعداء قد هجموا عليك .

— ناولينى سيفى ، وقفى فى مكانك ولكن قولى لى القوم عن يمينك وشمالك وخلفك وأمامك .

ثم وقف لهم فى مضيق وجعل يضرب يمينا وشمالا ، وتكاثروا عليه وأخذوه أسيرًا إلى ابن زياد ، فلما نظر إليه قال :

— الحمد لله الذى أعمى عينيك .

— فقال له عبد الله بن عفيف :

— الحمد لله الذى أعمى قلبك .

— قتلنى الله إن لم أقتلك شر قتلة .

— قد ذهبت عيناى يوم صفين مع أمير المؤمنين ، وقد سألت أن يرزقنى الشهادة على يد أشر الناس ، وما علمت على وجه الأرض شرًا منك .

وقتل عبد الله بن عفيف وصلب . وتأهب ابن زياد ليبعث بالسبايا ورأس سيد الشهداء إلى الشام ، وهو يحسب أنه قد انتهى من أمر الحسين ، وما دار بخلده قط أن خطر الحسين قد اشتد بعد أن أهريقت أطيب دماء لتروى أرض كربلاء .

٥٧

دخلت أم سلمة أم المؤمنين فراشها ، وما أغمضت عينيها وأخذها النوم حتى هبت فزعة مرعوبة ، وقبل أن تملك روعها صاحت :

— واحسيناه ! واحسيناه !

فجعل الناس يهرعون إليها وقد بان فى وجوههم الدهشة وقالوا :

— يا أم المؤمنين ما الخبر ؟

— قتل ولدى الحسين .

— وكيف ذلك وأنت فى المدينة والحسين فى الكوفة ؟ ومن أخبرك بذلك ؟

فقالت ودمعها يسيل على خديها :

— رأيت رسول الله وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت : يا رسول الله جُعلت فداك — ما هذا التراب الذى أراه على رأسك ولحيتك ؟ قال : يا أم سلمة الآن رجعت من دفن ولدى الحسين .

فشعر الناس بغصة ، وبجفاف فى حلوقهم ، وجرت عبراتهم ، وطأطأوا رءوسهم ثم انطلقوا إلى قبر الرسول يعزونه بقتل الحسين ، ودمعهم جار وحزنهم ثقيل .

ومرت أيام وقدم رسول ابن زياد إلى المدينة فلقيه رجل من قريش فقال :

— ما الخبر ؟

— الخبر عند الأمير .

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، قتل الحسين بن علىّ .

ودخل الرسول على عمرو بن سعيد بن العاص فقال عمرو :

— ما وراءك ؟

— ما سَر الأمير ، قُتل الحسين بن علىّ .

— ناد بقتله .

فخرج الرسول ينادى بقتله ، فارتفعت أصوات نساء بنى هاشم بالبكاء والنوح ، فقال عمرو بن سعيد فى شماتة :

— هذا ببكاء نساء عثمان بن عفان .

وأقبلت صارخة حتى انتهت إلى أم مسلمة ، فقالت :

— قُتل الحسين .

فنزل الخبر على أم سلمة نزول الصاعقة ، فقالت :

— ملأ الله بيوتهم عليهم نارًا .

ووقعت مغشيا عليها .

وبلغ عبد الله بن جعفر بن أبى طالب مقتل ابنيه مع الحسين فدخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه فقال :

— هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين .

فحذفه عبد الله بن جعفر بنعله ثم قال :

— يابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتى أقتل معه ، والله إنه لمما يسخى بنفسى عنهما ويهون علىّ المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخى وابن عمى مواسين له صابرين معه .

ثم أقبل على جلسائه فقال :

— الحمد لله عز وجل على بمصرع الحسين أن لا يكن آست حسينًا يدى ، فقد آساه ولدى .

* * *

وأقبل زخر بن قيس حتى دخل على يزيد ، فقال له يزيد :

— ويلك ، ما وراءك ؟ وما عندك ؟

— أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره ، ورد علينا الحسين بن على فى ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته ، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال ! فاختاروا القتال على الاستسلام ، فعدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى إذا ما أخذت السيوف مأخذها من هام القوم يهربون إلى غير وزر ، ويلوذون منا بالآكام والحفر لواذًا كما لاذ الحمائم من صقر ، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة ، وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس ، وتسفى عليهم الريح ، زوارهم العقبان والرخم بقى سبسب .

— قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سمية ، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين .

ودخل ركب السبايا دمشق ، وعلىّ بن الحسين مغلول بغل إلى عنقه ، ودخل شمر بن ذى الجوشن ، وقد رفع رأس الحسين على رمح ، وأقبل من بعده رأس

الحر بن يزيد ، وأقبل من بعده رأس العباس بن علىّ ، وأقبل من بعده رأس عون بن عبد الله بن جعفر ، وأقبلت الرءوس على أثرهم ، وصاحت أم كلثوم :

— وامحمداه ، واجداه ، واعلياه ، واأبتاه ، واحسناه ، واحسيناه ، واعقيلاه ، واعباساه ، وابعد سفراه ، واسوء صباحاه .

واقترب الناس ينظرون إلى النساء ، واقترب رجل من محبى آل على من على بن الحسين وقال له :

— هل لك من حاجة ؟

— هل عندك من الدراهم شيء ؟

— ألف دينار وألف ورقة .

— خذ منها شيئًا وادفعه إلى حامل الرأس وأمره أن يبعده عن النساء حتى تشتغل الناس بالنظر إليه عن النساء .

وأدخلت رءوس الشهداء على يزيد ، ومروان بن الحكم عنده ، فلما رأى رأس الحسين هز أعطافه طربًا ، وراح يقول :

شفيت قلبى من دم الحسين أخذت ثأرى وقضيت دينى

ونسى مروان أن الحسين كلم أباه يوم الجمل ليعفو عنه ، ولا غرو فقد كان الحسين كريمًا ، وكان مروان ينضح بخبث نفسه ولؤم طويته ، فراح ينفس عن أحقاد السنين والحسد المكبوت .

وقال يحيى بن الحكم ، أخو مروان :

لهام بجنب الطف أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل
سمية أمسى نسلها عدد الحصى وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

فضربه يزيد بن معاوية فى صدره وقال له :

— اسكت .

ونظر يزيد إلى رأس الحسين ثم التفت إلى من عنده وقال :

— أتدرون من أين أتى هذا ؟ قال أبى علىّ خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من

أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه ، وأحق بهذا الأمر منه . فأما قوله أبوه خير من أبى لقد حاج أبى أباه وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما قوله أمى خير من أمه ، فلعمرى فاطمة ابنة رسول الله ﷺ خير من أمى ، وأما قوله جدى خير من جده ، فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ .

ودعا بعلىّ بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه فأدخلوا عليه ، فالتفت يزيد إلى علىّ فقال :

ــ يا علىّ ، أبوك الذى قطع رحمى ، وجهل حقى ، ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما قد رأيت .

فقال على :

ــ ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

فغضب يزيد وجعل يعبث فى لحيته وقال لابنه خالد :

ــ اردد عليه .

فما درى خالد ما يرد عليه ، فقال له يزيد :

ــ قل : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ .

وصاح نساء آل يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن لما رأين بنات رسول الله فى هيئة قبيحة ، وقالت فاطمة بنت الحسين :

ــ أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟!

فغامت عيناه بالدمع ، وقام رجل من أهل الشام إلى فاطمة وقد أعجبه حسنها وقال :

— يا أمير المؤمنين هب لى هذه .

فأرعدت فاطمة وفرقت ، وأخذت بثياب زينب ، فصاحت زينب :

— كذبت والله ولؤمت ، ما ذلك لك ولا له .

فغضب يزيد وقال :

— كذبت والله إن ذلك لى ، ولو شئت أن أفعله لفعلت .

— كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا .

— إياى تستقبلين بهذا ؟! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك .

— بدين الله ودين أبى ودين أخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وأخوك .

— كذبت يا عدوة الله .

— أنت أمير مسلط تشتم ظالما وتقهر بسلطانك .

فاستحيى يزيد فسكت ، ثم التفت إلى من عنده وقال :

— يا أهل الشام ، ما ترون فى هؤلاء ؟

فقال رجل منهم :

— لا تتخذن من كلب سوء جروا .

فقال النعمان بن بشير :

— يا أمير المؤمنين ، اصنع بهم ما كان يصنع بهم رسول الله لو رآهم بهذه الحال .

— خلوا عنهم ، واذهبوا بهم إلى الحمام واغسلوهم واضربوا عليهم القباب ،

ودخلن دار يزيد فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكى وتنوح على الحسين . ووضعت سكينة رأسها لتنام ، وراحت مشاهد الفاجعة تمر فى خيالها فتحس أسى عميقًا ، وفكرت فيما كانت تفعله جدتها فاطمة لو أنها شهدت مصرع الحسين ، فترقرق الدمع فى مآقيها ، ونامت وهى حزينة ، فرأت امرأة ناشرة شعرها ، قد صبغت أثوابها بالسواد ، وبين يديها قميص مصمخ بالدماء ، ولم تتبين ملامح الوجه ، ولكنها أحست أنها أمام جدتها الزهراء ، فمشت إليها

وقالت لها :

ــ يا جدتاه ، قُتل والله أبي ، وأيتمت على صغر سني .

فضمتها إليها في حنان وقالت ودمعها لا يرقأ :

ــ يعز والله عليّ ذلك .. يا سكينة ، من غسل ابني ؟ من كفنه ؟ من صلى عليه ؟ من جهزه ؟ من نادت : واولداه ، واثمرة فؤاداه .

فهبت سكينة من نومها كأنما طعن قلبها سكين حاد ، وجعلت تنشج وتنوح وتصيح :

ــ واأبتاه ، واحسيناه .

٥٨

اجتمع الناس في مسجد دمشق ، وجلس عليّ بن الحسين بالقرب من يزيد ، فارتقى رجل المنبر وجعل يسب الحسين ، فقام عليّ زين العابدين ، وسار إلى المنبر والتفت إلى الرجل وقال :

ــ بالله عليك إلا ما أذنت لي أن أصعد المنبر ، وأتكلم بكلام فيه رضى لله ورسوله .

ــ اصعد وقل ما بدا لك .

فصعد المنبر ، وتكلم بعذوبة لسان وفصاحة وبلاغة فأعاره الناس أسماعهم فقال :

ــ أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي ، أنا عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، أنا ابن من حج ولبى ، أنا ابن من طاف وسعى ، أنا ابن زمزم والصفا ، أنا ابن فاطمة الزهراء ، أنا ابن العطشان حتى قُضي ، أنا ابن من منعوه من الماء وأحلوه على سائر الورى ، أنا ابن محمد المصطفى ، أنا ابن من راحت أنصاره تحت الثرى ، أنا ابن من غدت حريمه

أسرى ، أنا ابن من ذبحت أطفاله من غيز سوء ، أنا ابن من أضرم الأعداء فى خيمته لظى ، أنا ابن من أضحى صريعًا بالعرا ، أنا ابن من لا له غسل ولا كفن يُرى .

وضج الناس بالبكاء والنحيب وعلت الأصوات ، فخاف يزيد أن تكون فتنة ، فأمر المؤذن أن يقطع عليه خطبته ، فصعد المؤذن فقال :

ــ الله أكبر .

فقال علىّ بن الحسين :

ــ كبرت كبيرًا وعظمت عظيما وقلت حقا .

ــ أشهد أن لا إلٰه إلا الله .

ــ أشهد بها مع كل شاهد .

ــ أشهد أن محمدًا رسول الله .

فبكى علىّ وقال :

ــ يا يزيد ، سألتك بالله محمد جدى أم جدك ؟

ــ جدك .

ــ فلم قتلت أهل بيته ؟

فأفحم يزيد وقام وقد ظهر عليه الغضب والضيق ، ودخل داره ، فقام رجل إلى علىّ زين العابدين وقال له :

ــ كيف أصبحت يابن رسول الله ؟

ــ كيف حال من أصبح وقد قُتل أبوه ، وقل ناصره ، وينظر إلى حرم من حوله أسارى ، فقد فقدوا الستر والغطاء ، وقد أعدموا الكافل والحمى ، فهل ترانى إلا أسيرًا ذليلا قد عدمت الناصر والكفيل ، قد كسيت أنا وأهل بيتى ثياب الأسى ، فإن تسأل فهأنا كما ترى قد شمتت فينا الأعداء .

قد أصبحت العرب تفتخر على العجم بأن محمدًا منهم ، وأصبحت قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدًا منهم ، ونحن أهل بيته أصبحنا مقتولين مظلومين ، قد حلت بنا الرزايا ، نُساق سبايا ، ونُجلب هدايا ، كأن حسينا من

أسقط الحسب ، ومنتسبنا من أرذل النسب ، كأن لم نكن على هام المجد رقينا .

وخشى أعوان يزيد أن تكون فتنة فعجلوا بالصلاة ، وبعث يزيد إلى من سمح لعلىّ بن الحسين بارتقاء المنبر وقال له فى ثورة :

ـــ ويحك ، أردت بصعوده زوال ملكى ؟!

ـــ والله ما علمت أن هذا الغلام يتكلم بمثل هذا الكلام .

ـــ أما علمت أن هذا من أهل بيت النبوة ؟

فأطرق الرجل ، وإن كانت تجيش فى صدره رغبة أن يسأله : إن كان كذلك فلم قتل أباه ؟

وآن أوان الغداء ، فدعا يزيد علىّ بن الحسين إليه ، ودعا عمرو بن الحسن بن علىّ وهو غلام صغير ، وجلس عمرو بجوار خالد بن يزيد ، فرمقهما يزيد وهما متجاوران فخطر له خاطر ، فمن يدرى فقد يقتتلان غدًا على الملك والسلطان ، والتفت يزيد إلى عمرو وقال :

ـــ أتقاتل هذا الفتى ؟

فقال عمرو بن الحسن الذى سمع قعقعة السلاح ، وعاين الطعن والنزال :

ـــ لا ، ولكن أعطنى سكينًا وأعطه سكينا ثم أقاتله .

فقال يزيد وهو يبتسم :

ـــ شنشنة أعرفها من أخزم ، هل تلد الحية إلا حية ؟

وظلمه يزيد ولو أنصفه لقال : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ ، فقد كان عمرو ابن الحسن حفيد فارس الإسلام الذى غذى أبناءه بالحق ووهبهم للموت .

وأمر يزيد النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم ، وأن يبعث معهم رجلا من أهل الشام أمينًا صالحًا فيسير بهم إلى المدينة ، وتجهزوا للخروج ، فدعا يزيد علىّ ابن الحسين ثم قال :

ـــ لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو أنى صاحبه ما سألنى خصلة أبدًا إلا أعطيتها إياه ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن الله

قضى ما رأيت .

وخرج صبيان الحسين ونساؤه وأهل بيته من دمشق قاصدين مدينة جدهم العظيم ، وراح رسول يزيد يسايرهم بالليل فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه فإذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم ، وجعل يسألهم عن حوائجهم ويلاطفهم .

وبانت أرض يثرب ، فبعث علىّ بن الحسين رسولا إلى أهل المدينة ، فركب فرسه وركض حتى بلغ مسجد رسول الله فنادى :

ـــ يا أهل المدينة ، هذا علىّ بن الحسين وإخوته وعماته قد نزلوا بساحتكم ، وأنا رسوله إليكم .

فخرج الناس من دورهم وقد لبسوا السواد ، وقد لاح فى محياهم أعمق الحزن ، وران على المدينة وجوم ، فقد كان اليوم أشبه بيوم مات رسول الله ﷺ .

وقالت فاطمة بنت علىّ لأختها زينب :

ـــ يا أخية ، لقد أحسن هذا الرجل الشامى إلينا فى صحبتنا ، فهل لك أن نصله ؟

ـــ والله ما معنا شىء نصله به إلا حلينا .

ـــ فنعطيه حلينا .

فبعثتا بحليهما إليه وقالتا له :

ـــ هذا جزاؤك بصحبتك إيانا بالحسن من الفعل .

فرد الرجل الحلى شاكرًا وقال :

ـــ لو كان الذى صنعت إنما هو للدنيا كان فى حليكن ما يرضينى ودونه ، ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكن من رسول الله ﷺ .

ورأى نساء أهل البيت خروج أهل المدينة إليهن فى السواد ، فصرخت زينب وأم كلثوم وباقى النساء ، وارتفع العويل والصياح ، وكثر النوح والبكاء ، وهتف أكثر من صوت :

— واحسيناه !، واحبيباه !

وما صك أصوات العويل آذان بنت عقيل بن أبى طالب ، وأم هانئ ورملة وأسماء بنات علىّ حتى خرجن يندبن الحسين ، وصاحت بنت عقيل :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

وانطلق الركب حتى أناخ بباب مسجد الرسول ، فدخل الناس وفى القلب حسرة ، وفى النفس لوعة ، ووقفت أم كلثوم أمام قبر النبى تبكى وتقول :

— السلام عليك يا جداه ، إنى ناعية إليك ولدك الحسين .

محمد رسول الله
والذين معه

١ ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢ ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ـــ قريش	يوليو ١٩٦٧
٦ ـــ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧ ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨ ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ـــ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١ ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ـــ غزوة بدر	نوفبر ١٩٦٨
١٣ ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤ ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ـــ صلح الحديبية	يونيو ١٩٦٩
١٦ ـــ فتح مكة	نوفبر ١٩٦٩
١٧ ـــ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨ ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ـــ حجة الوداع	نوفبر ١٩٧٠
٢٠ ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠